



VAGA CITY

الروح المحلقة فوق الصروح المعلقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الطبعة الأولى 1441 هـ - 2020 م

التوزيع الدولي للكتاب: لبنان، العراق، مصر، الأردن، السودان.

(ISBN): 978-9947-79-615-3

إيداع القانوني: 2020/01

اسم العمل: VAGA CITY.

اسم المؤلف: زاكي مختاري.

تصميم الغلاف: مصطفى برجم.

المدير العام / سميرة منصوري.

إخراج: سيف الدين.ل.

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر / بيلومانيا للنشر والتوزيع مصر

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

[/https://www.facebook.com/elmothakaf](https://www.facebook.com/elmothakaf)

الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

هاتف / فاكس 033 85 65 75 / 0666 76 28 50



جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر



زاكي مختاري

VAGA CITY

الروح المحلقة فوق الصروح المعلقة



الإهداء

من حسن حظّي أنّي ربّيت ونشأت في أسرة ربّ بيتها قارئ
 لكتاب الله، ووتده أستاذة لغة عربية محبّة للشعر، مولوعة
 بالنثر، ففتحت عينيّ في منزل نشبت فيه حوارات ومناظرات
 علمية في النّحو والصّرف والبلاغة كالتي كانت تحدث بين
 المدرسة العراقية ونظيرتها المدنية، فدبّ فكري ودرج في
 حجر اللغة العربية، علق في قلبي مقّة مفرداتها الجمالية
 وبديع معانيها. وبكتابتي لهذه الرواية أسترجع القليل من تلك
 اللحظات الرائعة، وعرفانا بجميل المدرسة التي نضج فكري
 فيها، اسمحو لي أن أهتبل فرصتي هذه لشكر أبي العزيز الذي
 أحاطني دعواته وأمّي العزيزة التي لفّنتني بحنانها وزادتني
 تشجيعاتها قوة وإصرارا، ثمّ أبتهل الله أن يطيل في عمرهما
 ويرضى عليهما ويرعف لهما المنّة والعطاء.

مقدمة

في فلم *incassable* (لا يكسر) كان صموئيل جاكسون يمثل شخصية هشّة العظام ضعيفة البنية يتفتت هيكلها لضمة صدر من أمه الرؤوم.

وقد كان هذا السبب كافيا لينقم على الطبيعة التي جعلته بهذا الوهن دون أن تطلب إذنه أو تستشيريه في أمره، فقد حرّمته بكل ديكتاتورية كما أعتقد من أبسط حقوقه كلعب كرة السلة أو الجري وراء صديق في فسحة المدرسة، أو القفز فرحا أو ضمّ عشيقة أو العمل من كد جبينه أو حتى تغيير مصباح غرفته،.... فكل هذه الحركات البسيطة والاعتيادية كانت خطرا على صحته، ففضّل الكف عن الحركة والانزواء على النفس ليكتفي بالغوص في أسرار الطبيعة متدبرا فلسفة العالم، أين اعتاد الاسترسال معظم أوقات يومه في تساؤلاته وملاحظاته محاولا فهم مكنونات العلم وأبعاده، وذات نهار وهو يجوب شوارع المعرفة بفكره كما استأنس فعله تفتّن لجزئية غيرت نظرتة للحياة ورمته من جديد في حضنها وأعطته دافعا قويا للعيش بدلا من جلوسه على كرسي متحرك كشيخ هرم مرمي



في نصف رواق لدار المسنين.

وكانت ملاحظته كالتالي:

تبين لصموئيل أن لكل شيء ضد في هذه الحياة سماء وأرض، موت وحياة، طول وقصر، حب وكراهية، فرح وحزن، قوة وضعف وبما أنه ضعيف جدا فمن البديهي أن يكون في الجهة المقابلة شخص قوي جدا رجل خارق لا يكسر ولا يهزم، شخص أعطته الطبيعة كل ما حرم منه، وبعد طول بحث وتنقيب وجد صموئيل الرجل ذو القوة الهائلة ذاك الرجل الخارق الذي تقمص شخصيته الممثل بروس ويليس والذي تحدى في دوره هذا الموت في أكثر من واقعة وتغلب عليه!

السؤال المطروح هنا:

هل فعلا فلسفة صموئيل جاكسون صحيحة وتنطبق على كل شيء في هذه الحياة؟!

منطلقا من هذا التساؤل اللاعقلاني تحركت فكرة أكثر جنونا لتستقر في عقلي وتدفعني بعدها للاستفهام: هل أملك ملكة الكتابة؟

ما دمت لا أجيد فن الكلام فقد أكون موهوبا في ما يقابله لا أقصد السكوت طبعاً فأنا لا أجيده أيضا! بل أقصد موهبة الكتابة.

فأنا مملّ جدا كجليس ثقيل الظل، كنديم يصاب بالغثيان لكل من يواعدني، فدائما ما أجدني في صراع داخلي مع شخصيتي التي لو تجسّد المرح في ابن الإنسان لأصيب بالضجر من محادثتها ولسلمّ نفسه للصلب قبل أن يسلمه يهوذا الخائن وأفضع من هذا سيذهب صلبه من أجل خطيئتي سُدَى.

فقد تعودت على تبادل كلمات حادة مع نفسي كلما جالست أحدهم فتأمرني قائلة:

قل شيئا يا أبله لتكسر به حاجز الصمت.

فأجيبها: ولم لا يتكلم هو أولا؟

لسنا في مسابقة يا غبي كي نقرر من يبدأ أولا.

اسأله أي سؤال!، عن عمله مثلا.

وما أدراني ربما هو عاطل عن العمل.

اسأله عمّا أكل في الغداء إذا.

ربما لم يتناول وجبة الغداء؟ إنه لا يملك المال لاقتناء أكل

فهو عاطل عن العمل!

انظر إليّ كالأبله الممل إذا ولا تقل شيئا.

كما ترون بدل من أن أجاري جليسي في الكلام وأسأله عن

أمور تخصصنا وهي كافية للكلام فيها إلى يوم البعث، أو تخصص



ما يحيط بنا والذي لو تكلمنا فيه لنفدت كل نجوم وكواكب
مجرّتنا قبل أن تنفذ كلماتنا، لكن عوض هذا أدخل في عالم
شيزوفرنيا غريب أحدث فيه أحشائي.

وقد تعايشت مع هذا الصراع وتعوّدت عليه مع مرور الزمن
لكن لطيفة في قلبي رأفت لحال من يجالسوني، وقرّرت أن
أبحث عن حلّ يخلصهم من عذاب مجالستي ذاك العذاب الذي
يضاهي ألم سجين زجّ به في حبس نيوجيت اللندني لمدة تزيد
عن القرن، فالساعة بالنسبة لمن يجلس معي كمئة سنة مما
تعدون أو أكثر.

وبما أن غوغل هو الحل السحري لكل جهالة هرعت لأبحث
فيه عن ضالتي، وبعد بحث ثوان معدودة وجدت درسا بهذا
العنوان:

كيف تدير حوارا!

قرأته وحفظت عن ظهر قلب نصائحہ وخلتني وجدت فيه
ما سيغير شخصيتي المملة، فأصبح حوارى على هذا الشكل
الجو جميل اليوم أو كئيب يجب أن تكون ذكيا وتتغير مع
تغير الحال!

الكوكاكولا لذيذة في هذا المقهى (أي غياب هذا وكان
الكوكاكولا تتغير من مقهى لآخر لكني لا أحب القهوة والدرس

يقول القهوة لذيذة وقد تكيفت مع الحال!)
لون الحائط جميل هنا (الدرس المجاني يقول يجب أن تتكلم
عن الأشياء المحيطة بك وما العمل لو كان الحائط أبيضاً؟!)
ماذا تفعل لو ربحت مليون أورو! (أكيد لن يجلس مع شخص
ممل مثلي).

وبالفعل نجحت هذه النصائح في تغيير شخصيتي فبعد ما
كنت مملاً أصيب الناس بالغثيان أصبحت مملاً ومعتوها في
نفس الوقت بسبب هذا الدرس الغبي!

بعد هذه المحاولة البائسة ومحاولات أخرى أكثر فشلاً قررت
أن أتفادي الجلسات الثنائية واكتفيت بالجلسات المكتظة أين
أستطيع فيها الاختفاء وراء شقشقة الغير والرمي من حين لآخر
نكتاً ثقيلة الظلّ تجعل الموجودين يضحكون مجاملة، كي لا
يضطروا لرؤية تقاطيع وجهي الخجلة.

وفي خضمّ هذا الصراع النفسي وتلك المشاحنات الذاتية
برزت على السطح مجدداً تلك الفكرة التي استقرت في عقلي
من قبل، فكرة أصبحت ملحة إلحاح ذباب الخريف، فقد أصرت
على الطواف في أعلى مخيلتي إلى أن رضخت لإصرارها فدُفعت
في ليلة من الليالي إلى حمل قلم فأرخت بحذر الحبل لأناملي
ورحت أراقب تحركاتها فوجدتها ترقص كمجموعة خيل عربية



أصيلة سوداء تسرّ الناظرين، ومع جمال هذا المنظر في عيني إلا أن الرقص كان يبدو عشوائيا على أنغام أفكارى المحدودة وعلى أصوات قرع دفّ مفرداتي البسيطة وجمل ممزقة لا صدى لها.

لكن هذا المستوى المتدنّي لم يكن عائقا أو سداً بيني وبين الكتابة فقد أحببت الفكرة وتمنيت في قرارة نفسي أن أرى أنا ملي ترقص باحترافية أكثر، فلم أجد لها وسيلة أنجع من فكرة برنامج الرقص مع المشاهير الذي يبث على قناة tf1 الفرنسية أين يأتون فيه بمشاهير لا يجيدون الرقص ومعهم محترف في رقص ويضعون كل محترف مع مبتدئ ليعلمه كيف يحرك يديه ورجليه وخصره... واعتمادا على هذه الفكرة اتخذت الكتب كمدرب محترف لي ورحت أقرأ أمهات الكتب في اللغة وفن البلاغة وأنصفح أشهر الروايات العربية والعالمية لأتعلّم من خبرتهم وأنهل من مفرداتهم لأفتح بها آفاقا جديدة لأفكاري وأملأ حساب بنك كلماتي وأرقع بها رتق جملي.

وبما أنني رجل عملي عاشق للمغامرات محبّ للتحديات قرّرت أن أكتب لأتعلّم بدلا من أن أتعلّم لأكتب، فقد علمتني تجاربي أن الحياة مليئة بالمشاكل الوهمية التي لو اقتربت منها أكثر لوجدتها كلّها حلولا، لهذا كنت دائما ما أرمي بنفسي في سلة المشاكل لكي لا يكون لها خيار آخر غير استخلاص حلّ،

وأول فكرة تبادرت إلى ذهني هي كتابة قصة حياتي، وبالفعل بدأت لكن بعد بضعة أسطر توقفت وأجلت مشروع هذا الكتاب لوقت آخر فقصة حياتي ليست ملهمة بالقدر الكافي لتصلح رواية على الأقل حتى الآن!

لكن الآلة الكاتبة اشتغلت وزرّ توقيفها تعطل فحاجتي للكتابة أصبحت كحاجة مدمن المخدرات لجرعته اليومية، فوجب علي إيجاد متنفس لحاجتي فلم أجد مكانا أحسن من الشبكة العنكبوتية لإفراغ هذه الطاقة بنقيضها الإيجابي والسلبى، فلم أترك حوارا إلا وأدخلت أنفي فيه، حوارات دينية وسياسية واجتماعية ورياضية حتى الطبخ أدليت بدلوي فيه، إلى أن أتني فكرة كتابة هذه الرواية بعد أن قرأت قصة الشاعر الصعلوك عروة بن الورد الذي عاش في القرن الخامس الميلادي وكانت كنيته أبو الجود لكرمه وشهامته فقد كان يسرق من الغني المتغطرس ليعطي الفقير المحتقر ويعين المسن ويجير اللاجئ ويداوي على نفقته المريض... ومع أن هذه الفكرة قتلت بحثا وأحاط من كان قبلي بكل زواياها، إلا أن حبي وانجذابي لهذه الشخصية الرائعة دفعني دفعا كي أسقط هذه الفكرة على واقعنا المعاش محاولا أن أخلق لها زوايا وأبعادا لم يسبقني إليها أحد.



فهل سأنجح في استحداث هذه الأبعاد أم سأكون مملا في
الكتابة أيضا كالكلام باجترار ما قد كتب من قبل!؟



الفصل الأول



استيقظ جود في صباح يوم بارد على صوت أبيه المنكسر
التاعب من وطأة الهموم وبأس الحياة، انهض يا جود إنها
السابعة والنصف حان وقت مدرستك، يُخرج جود رأسه من
تحت الغطاء ويجيب بكلمات مرتجفة تجر في أذيالها غمامة
بيضاء:

نعم أبي في الحال... البرد قارص اللعنة على مدفئة البناية
تختار أكثر يوم زمهيرا لتتعطل.

ليخرج من غرفته حافي القدمين متجها نحو الحمام، يغسل
وجهه بماء بارد وبيدين جافتين تتخللهما شقوق صغيرة من
أثر البرد، يتجه بعدها إلى المطبخ لتناول فطوره فيجد كالعادة
كوب حليب بالقهوة مع قطعة خبز قد حصرهما له والده.

يتناول فطوره في عجلة ويمسح الطاولة المغطاة بغطائها
الأحمر البالي الذي فقد الكثير من زركشته، ثم يضع كأسه في
حوض غسيل الأواني ليغسل كل ما فيها.

اهتز جود لصوت مدوّ. صوت الباب يغلق معلنا خروج
والده إلى العمل دون أن ينبس ببنت شفة ككل صباح.

بعد أن انتهى جود من غسل أواني الفطور وارتداء الملابس
خرج من الشقة موصدا الأبواب بسلسلة مفاتيح ثقيلة ثم ينزل
مسرعا في درج البناية التي انبعثت منها رائحة النشادر وبقايا



السجائر، وبقع بساق هنا وهناك وقارورة كوكاكولا فارغة
مكومة في أحد الأركان وكيس بطاطا مقرمشة مكرمش عند
درجة السلم قبل الأخيرة...

كان جود آخر من يدخل القسم كعادته ودون أن يبالي بأحد
جلس وحيدا في آخر الصف أمام النافذة ليسرح في السماء
ويذهب بروحه بعيدا، وكأن كل من حوله لا يعنيه في شيء.
كان كلما جلس في ذلك المقعد أبحر في حسن ماضيه تارة،
وفكر في سوء حاضره تارة أخرى وقليل ما كان يحلم بغد
أفضل.

* * * * *

من الصعب على عقل أي إنسان أو مجتمع تحمك فكرة
أن يكون ماضيه أحسن من حاضره، فمن الطبيعي أن
تتطور الحياة نحو الأجل ومن المنطقي أن تقدمك إلى
الأمام يعطيك نتائج أفضل لهذا لا تستوعب العقول هذه
الوضعية فتتمرد على واقعها إما بأعمال عنف أو لا مبالاة
تامة



الفصل الثاني





تعال ادخل إلى الداخل نرى الأشياء أحسن عن قرب يقول
راوول لجود، ثم يدخل إلى غرفة صغيرة هناك في نهاية المعرض
ويتجه جود نحو لوحة شدّت انتباهه، يتسمّر أمامها دون حركة.
لوحة حين تراها يغمرك شعور غريب، ويتابك خليط عجيب
بين الإحساس بالحزن والأسى وبين التفاؤل والأمل، واقع مريّر
ملؤه الحب والذكريات البريئة وآخر جميل براق بشم خال من
الحنان، فأول ما يلفت نظرك للصورة عجوز بوجهها المجمعّد في
بيت جدرانها مشققة ونظرتها الحزينة المليئة بالحبّ والحنان
بثيابها العتيقة المرقعة تحتها دراجة صغيرة، عند قدميها كلب
يرمقك بنظرة بريئة وهناك على الجانب محفظة مفتوحة ملقاة
على الأرض يخرج منها بعض الكراريس عليها خربشات لا
تفهم...

وفي مقدمة الغرفة شاب يدير ظهره لكلّ ما سبق وكأنّه
يهرب من ماضيه ويتنصّل مما خلفه وراءه، يلبس لباساً أنيقاً
يقابله كنبه جميلة صفراء حيكت من الحرير وطاولة أرضية
زجاجية من الطراز العالي كالتي نراها في المجلات وتمثال
ذئب أسود في الركن يقف وكأنه سينقضّ على ناظره، غرفة
جدرانها ناصعة البياض يتوسّطها لون أزرق تيركواز معبرا عن
أحلام جميلة وأهداف منشودة، يقف الشاب وسط هذا مفتخرا

يده اليمنى تحمل قلما، تلمع بسبب الضوء المسلط عليها، يده اليسرى منغمسة بقوة وكأنه ينزع قلبه من صدره أو يستأصل وجعا من فؤاده.

لما تقدّم راوول حاملا في يديه كراسية وأقلاما وجد الفتى مستغرقا في تأمله لوحة دون الآخرين فسأله متعجبا:

ما الذي جذبك في هذه اللوحة بالذات؟!

فردّ جود دون تردد:

طول ظل هذه العجوز رغم قصرها!

يتعجب أكثر الرسام لدقة ملاحظته رغم صغر سنه.

وبالفعل فالمشاهد للوحة أول ما يجذبه طول ظل العجوز الحزينة الذي يمتد من الغرفة العتيقة حتى يلامس بلطف جسم الشاب الواقف في الغرفة العصرية ليحتضنه بدفء.

أترى يا فتى ما يحيط بالشاب من أناقة وبريق؟

نعم غرفته وملابسه جميلة جدا.

صحيح لكن الظل الذي يلامسه أجمل ما يحيط به.

أعطى راوول الكراسية والأقلام للفتى ثم قال له:

هذه هدية مني لك حاول أن ترسم ما يحيط بك وابتحث عن

الفنان الذي بداخلك وأطلق العنان لموهبته.

خرج جود راكضا والبهجة تنتظط من عينيه وهو يصيح:



شكرا جزيلا على هذه الهدية القيمة أعدك يا سيد راوول
بأنني سأطلق له العنان...
ثم اتجه نحو المنزل وجلّ فكره منصب في ماهية رسمته
الأولى، لما وصل أمسك بحزمة المفاتيح الثقيلة بيديه متأبطا
كراسته مكلّما نفسه:

ماذا تراك سترسم يا جود ماذا تراك سترسم...؟ دخل إلى
منزله المظلم الكئيب، نزع حذاءه ورمى بمحفظته في الرواق
ثم ارتمى على سريره حيران متبلدا في أمره، اتكأ على ظهره
واضعا يديه وراء رأسه مادّا رجليه اللتين تحرّكتا دون انقطاع،
وأخذ يبحث عن فكرة تستحق الرسم وبعد فترة غير وجيزة
انتفض فجأة واعتدل قليلا ثم راح يتأمل رجليه وهما تلعبان
كماسحة زجاج السيارة، أطال التأمل فيهما ثم ثبتهما وذهب
يدقق فيما حولهما، أوقف رأسه عن الحركة، استقرّ برهة على
هذا الوضع ثم قال:

نعم أرسم ما يحيط بي هذا ما قاله لي السيد راوول... سحب
كرّاسته ورزمة أقلامه وأخذ منها قلما أسود، خطّ خطّا بالكاد
يُرى قاسما به ورقته إلى قسمين، ثم رفع رأسه وحدّق أمامه
مطولا في كل ما تقع عليه عيناه ثم طأطأه مرة أخرى وشرع
في رسم أول رسم له.

خيم سكون الأموات على الغرفة وخلت من كل الأصوات إلا
من حشرجة أنفاس جود، وحوافر أقلامه تصول وتجول على
تلك الورقة الناصعة البياض التي بدت كرمال شواطئ تايلند
العذراء، والتي سرعان ما تغيّرت معالمها أول ما غمرتها أمواج
أفكاره وآثار أقلامه.

لبث فناننا الصّغير ساعات على هذا الحال وهاته الوضعيّة
حتّى اهتز لصوت باب المنزل يغلق والساعة تشير إلى الثامنة
مساء موعد عودة الأب من العمل.

جود هل أنت في غرفتك؟

نعم أبي أنا هنا مستلق على سريري.

لما اطمأن الأب على ابنه، دخل إلى المطبخ حضر وجبة
العشاء ثمّ صاح:

جود حضر الطعام

جلس الابن في الكرسي الذي يقابل والده متناولاً بيده قطعة
خبز وملققة بالأخرى وعيناه تراقبان على استحياء تعابير وجه
أبيه الحزينة، الذي ترك أكله جانبا كي يتصفّح بعض الأوراق
متذمرا وهو يتمتم:

يعتقدون أنني غني وأمتلك الكثير من المال! لا يعلمون
شيئا عن تعاسة حالي.



ليخرج بعدها زفيرا عميقا عمق ألمه وهو ينظر إلى السقف
معاتبا نفسه قائلا:

لكنهم أهلي ليس لهم أحد سواي!

عجزت عينا جود عن حلّ شفرة تمتمات والده حين ذاك،
لكنه علم فيما بعد أن الأوراق التي كانت بيد والده واحدة
لمرتبه والأخرى لحوالة بنكية يحولها كل شهر لأهله في
الجزائر.

تناول الأب في عجالة عشاءه ملقيا الأوراق على حافة الطاولة
دون أن يُعيرها كثير اهتمام، ثم نهض متّجها نحو الحمام قائلا:
جود اغسل الأطباق وضع ما تبقى في الثلاجة سأخلد للنوم
ينتظرني يوم شاق غدا.

أخذ الطّفل الأواني ووضعها في الحوض، ووضع قليلا من
الصابون في إناء به ماء وراح يغسلها وتقاسيم وجه أبيه الحزينة
لا تفارق مخيلته.

تري ما سبب حزن أبي العميق أتراها هاته الأوراق المرماة
على الطاولة أم تراها أسبابا تراكمية أجهلها قد أكون أنا
أحدها!؟

نظّت في مخيلة جود صورة لرجل ضاحك بسّام الثغر يلاعب
طفلا صغيرا في الرابعة من عمره، عيناه تشعّ بهجة، وصوت

جميل دافئ لامرأة تبدو رقيقة وأنيقة مطموسة الملامح تقترب

لتشاركهما لحظاتهم المليئة بالحب والسعادة...

ارتسمت في هذه اللحظة ابتسامة لطيفة على وجهه جود،

قد يُظن منها أنه أسعد أهل الأرض، لكن سرعان ما اندثرت

ابتسامته لما اقتحمت مخيلته صورة أخرى للمرأة ذاتها وهي

تصرخ بصوت غليظ بشع:

نحن أولى بهذا المال منهم.

أنا شابة وأريد أن أتمتع بحياتي ككل قريناتي، أمكتوب عليّ

الشقاء؟

تساءل وهي تحزم حقائبها ثم تجيب:

لا ليست هذه هي الحياة التي طالما حلمت بها وتمنيتها.

والطفل الصغير يبكي وينادي أمه التي أدارت له ظهرها

حاملة حقيبتها تهمّ بالرّحيل دون أن تلتفت إليه ليرى ملامح

وجهها للمرة الأخيرة.

أفاق جود من كابوسه على صوت رنين الساعة وفي يده آخر

صحن، وبعد أن غسله ومسح الطاولة اتجه نحو غرفته واستلقى

منكبا على وجهه واضعا المخدة على رأسه وذكريات الماضي

البعيد وآهات الحاضر القريب تطارده وتحاصره ثم تضيق

الخناق على صدره لتجعل فيه غصّة من الصّعّب تجاهلها، فليس



من السهل أن يتغاضى الابن عن حالة الحزن التي تلازم والده.
... استدار جود جالسا فوجد لوحته عارية مبعثرة جواهرها
من حولها وأدوات الرّسم تناديه... تنظر إليه بنظرات إغراء،
نظرات عاشقة تتوق للمسّات حبيبها، عاشقة قدمت من قبل
أعلى ما تملك وتريد إفراطا في تلطيخ شرفها لتصيح رغبتها
قائلة هيت لك فتمتد أقلامه كالأنامل تداعب محاسن لوحته
لتزيدها نضارة وحسنا.

استيقظ جود من أحلام يقظته على صوت الكراسي تهتزّ
من حوله والتلاميذ يهمون بالخروج من القسم، خرج بدوره
واتّجه مباشرة نحو معرض اللوحات.

انظروا من هنا كيف حالك يا فتى أفضيت نهاية أسبوع

جميلة؟

يسأل راوول وهو مبتسم.

نعم لا بأس بها قضيتها في الرسم يجيبه جود.

آها!! أرني ما رسمت إذا.

جميل، عمل رائع بالنسبة لمبتدئ، ألم أقل لك أنك دقيق

الملاحظة وأن لك موهبة يجب عليك تنميتها؟

فرح جود جدا بما سمع وارتسمت ابتسامة مشرقة على

وجهه

ثم أردف قائلا:

أتمنى أن نلتقي ثانية كي أستطيع رؤية تطوّر موهبتك
وكيف ستوظّفها.

يقاطعه جود وهو ينظر من حوله فينتبه أن اللوحات لم تكن
معلّقة، وعلب وكراتين مغلقة في وسط قاعة حزينة وقبيحة من
دون حلتها.

أذهب أنت من هنا؟ أهو آخر يوم لك؟

نعم يا فتى لقد انتهت مدة معرضي وعلي الرّحيل إلى
باريس غدا، فقد يبتسم لي الحظّ هناك وأجد من يقدر أعمالي
ومن يدري فقد أبيع إحدى لوحاتي بمبلغ محترم وأستطيع به
دفع كل فواتيري وديوني.

إذا ستذهب! يقول جود لراوول ثمّ يردف:

كنت أريد أن أريك المزيد من الصّور!

لا عليك يا فتى فلا يهم من يرى أعمالك، الأهم أن تؤمن بها
أنت وتصل بها إلى القمة وأن تحقق كل أمانيك، أما أنا وكل
من سيصادف طريقك فهي معارف ثانوية في الحياة، هناك من
سيترك ذكرى جميلة تنحفر في أعماقك، وأرجو أن أكون أنا من
هذا النوع، وهناك من يترك أثرا سيئا أو ذكرى أليمة، لا تكثر
لهم ولا تُعْطهم الكثير من الأهمية ولا تحزن لظلمهم لأنك في



كلّ الأحوال ستتعلم من تجاربك معهم وستصقل خبرتك بتمييز الطيب من الخبيث، فدائماً ما نتعلم من تجاربنا الفاشلة أكثر مما نتعلم من تجاربنا الناجحة.

هناك أيضاً من يمرّ في حياتك مرور الكرام وهناك من سيطلق المكوث وهناك من سيبقى إلى الأبد، فاختر بعناية من سيطلق ومن سيبقى إلى الأبد لأن هذين النوعين من الأشخاص هم من سيدفعك دفعا إلى الأمام وهم من سيكون حجر العثر في حياتك. سيكونون القوة التي تجعلك تنطلق لتصل إلى هدفك وهم من سيكون لجامك الذي يكبح طموحك... في بعض من فترات حياتك سيحتم عليك القدر مجالسة أو منادمة أناس ليسوا من مقامك لكنك ستضطرّ لمعايشتهم والتعامل معهم فاصبر على غلاظتهم وغبائهم.

لكن أول ما تنتهي مهمّتهم في حياتك لا تتوان على رميهم في أول منعطف يقابلك.

أتعرف المنطاد يا جود؟

نعم درسنا عليه في المدرسة لكنني لم أراه يوماً في الحقيقة.

أتدري كيف يعمل؟

نعم بالهواء الساخن.

وما الذي يثبته في الأرض والهواء الساخن يملأ بلونته؟



الأثقال سيّدي يجيب جود.

وماذا يجب أن نفعل كي يطير المنطاد بالإضافة إلى الهواء
السّاخن؟

نرمي الأثقال أكيد.

أحسنّت، كذلك أنت ارم الأثقال عنك كي ترتقي فوق وإلا
ستحرق طاقتك دون أن تبأرح مكانك.

ينصت جود بكثير من الاهتمام والعناية لكل كلمة يتلفّظ
بها راوول ويسجّلها في أعماق ذاكرته ويكتبها كبنء من بنوء
ءستور حياته.

آه أخيرا وصل صءيقي الءي سيوصلني إلى محطة القطار
بسيارته، ثم نظر إلى ساعته وأرءف فالقطار سينطلق على
الساعة السادسة..

هيا يا جود أستأءنك وءب علي الرءيل في الءين أرجو
أن نلءقي مجدءا كي أرى نءاحاتك فيءيني فيك يجعلني أراها
كرؤيتي لك الآن.

رءء راوول آخر كلماته وهو يصافء جود بيءه اليمنى ويضع
اليسرى على يءيهما بكلّ حرارة، ثم ركب السيارة واخءفى
سريعا في وسط زءمة السيارات.

* * * * *



كثيرا ما يصادفنا أطفال ومراهقون يمرّون بأوقات عصيبة، بسبب مشاكل عائلية أو صحية... فنمرّ عليهم مرور الكرام لاعتقادنا أنه لا حيلة لنا تجاه مشاكلهم، لكن التفاتة جميلة أو كلمة طيبة أو نصيحة أخوية قد يكون لها أثر عظيم، فأسباب التغيير ليست مادية بحتة دائما فقد تلقى بكلمة صغيرة في سمع أحدهم فتكبر في داخله وتكون كفيلة بتغيير مجرى حياته.



الفصل الثالث



رنّ جرس العاشرة صباحاً معلناً وقت فسحة التلاميذ لينتشر كلّ وجهته، هناك من يهرع نحو المرحاض ليقضي حاجته، وهناك من يهرول ليشرب سيجارته وفيهم من يستغلّ هذا الوقت القصير ليروي ظمأ قلبه المتلهّف لرؤية حبيبته. وهناك جود جالس تحت الشجرة وحده كعادته منشغلاً منذ أيام بالرّسم، في الأسبوع الماضي رسم تلك الشجرة هناك على الجانب الأيمن من السّاحة وتحتها مقعدين حجريّين وفي الأسبوع الذي قبله رسم مبنى المدرسة الأبيض ذا الثلاث طوابق المخطط بخطوط عريضة آجورية تتخلله نوافذ بنية، وها هو اليوم يراقب تلك المجموعة من التلاميذ الواقفة على بوابة المرحاض يشربون سجائرهم في هدوء ورزانة مع بعض الابتسامات الطفيفة وكأنهم يلعبون دور رجال مافيا في فلم هوليودي.

راح جود يراقب طريقة شربهم للسجائر، طريقة ابتسامتهم ألبستهم وطريقة وقوفهم.

نظر لهم النظرة الأولى فالثانية وتلاها بعد هنيهة بالثالثة، وفي النظرة الأخيرة انتبه له أحد التلاميذ فاستغرب الأمر:
أتعرفون ذاك الصبي الذي يمسك كراسة؟



منذ بضعة دقائق وهو يراقبنا ثم يدوّن شيئاً ما؟ أترأه واش
يكتب ما يسمع ويرى لينقله لإدارة المدرسة؟
تحرك أحد أفراد الشلة نحوه ببطء وحذر كي يرى ما
يكتب، وجود منغمس في ورقته غير منتبه، إلى أن أحسّ بهالة
سوداء تظلل ورقته، وبالكاد رفع رأسه كي يرى مصدر الظل حتى
خطف تلميذ ضخّم القلم من يده وهمّ بانتشال الكراسة، لكن
جود منعه وانبطح أرضاً وهو يصرخ:

دعني... دعني، ماذا تريد مني؟

لم يستطع الضخم الإمساك إلا بمحفظة جود التي كان يضع
عليها كراسته ليرسم بإريحية.

لتتناثر رزمة الأقلام أرضاً وتستقرّ أشلاء تحت أقدام الضخم
وهو يزأر محاولاً النيل من الكراسة:
ما الذي تكتبه؟ هيا أرني ما تكتب.

وجود لا يفهم ما يحدث له، بل لم يحاول الفهم أصلاً فقد
كان كلّ تركيزه منصباً علي حماية رسوماته بكل ما أوتي من
قوة، ولم تكن له حيلة إلا الصراخ والتشبث بالأرض.
وفجأة خرج تلميذ وسيم طويل عريض المنكبين من بين
صفوف المتفرّجين ودفع الضخم وهو ينادي:

ماكسيم دع الطفل إنه صديقي... لماذا تعامله بقسوة هكذا...؟

وما الذي جعلك تشور عليه كالحیوان المفترس؟
إنه واش يا جولیان رأیناه یراقبنا ویكتب على كراسة
ملاحظاته، من المؤكد هو عمیل للإدارة.
وجود ملتصق بالأرض لا یتحرک وكأنه صورة ذات ثلاثة أبعاد
طبعت على البلاط.

یربّت التلميذ الوسیم على كتف جود وهو یردّد:
انهض لا تخف،
ثم یضيف:

أصحیح ما یقوله ماكسیم؟

ماكسیم! من ماكسیم هذا؟

یسأل جود وهو یرتجف غضبا

هذا الضخم الذي أراد بك شرًا

لا أدري ما یقول ولا علم لي بسبب غضبه، لم أفعل له شيئًا!!

یقول إنك تراقبه وأصدقاءه.

أراقبه! أنا! ولم أراقبه!؟

هدئی من روعك ولا تخف يا صديقي، أرني فقط كراستك

وأعدك بأنه لن یصیبك أحد بسوء، أطلعُ فقط على ما فیها

وأرجعها لك هذا وعد مني.



لم يفهم جود سرّ اهتمام كل من حوله بمحتوى كراسته واحترار لسبب كل هذا العنف من شخص لا يعرفه، وفي الوقت نفسه ارتاح لهذا الشاب الوسيم الذي صرّح بأنه صديقه ودافع عنه دون سابق معرفة.

فكر جود هنيهة ثم قرر أن يعطي كراسته للشباب ممسكا بطرفيها.

بعدها تصفحها الشاب ابتسم قائلا:

جميلة هي رسوماتك يا صديقي.

فضحك الضخم بطريقة هستيرية ثم صاح أنت مجنون أتعتقد نفسك بيكاسو ثم ابتعد وهو يصيح إنه مجنون... غريب الأطوار هذا الفتى يعتقد نفسه فنانا، فتعالى الضحكات من حولهم وتتناثر السخریات تتبعها نظرات مستهزئة.

فابتسم مرة أخرى التلميذ الوسيم ذو الوجه البشوش ثم يخاطب الضخم بلغة لطيفة فيها نوع من التحدي دع الفتى وشأنه يا ماكسيم، مادّا يده إلى جود.

انهض يا صديقي ولا تعرهم أي اهتمام إنهم حمقى فلا تكثر لهم.

يجمع جود أشلاء أقلامه وقد علا الحزن محيّا ناظرا إليها نظرة الطفل الذي كُسر لعبته المفضلة.

يربّت الشاب الوسيم على كتف جود مرة أخرى قائلاً:
لا تحزن ارجع إلى قسمك الآن وغدا حتما سيكون أفضل..

* * * * *

يقال أن للإنسان حياة واحدة، إذا كنت تعتقد أنها كذلك
فهم ستدع الآخرين يسبّرونها حسب مزاجهم وطريقة
تفكيرهم أم ستمسك بزمام الأمور وتقرّر بنفسك نمط
عيشك!

عندما تختار طريقاً أحببتها واعتقدت جازماً أنها السبيل
الأنجع لتفوّقك ولوصولك لهدفك الذي تنشّد، ينقسم
محيطك إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول يحاول التأثير عليك بنصحك لاتخاذ طريق
آخر، يرون بخبرتهم أنه الأفضل لك، وهؤلاء كثيراً ما
يكونون الأهل والأساتذة أو المجتمع بصفة عامة الذي
يريدك أن لا تشدّ وتعيش على نسق واحد مع الجميع،
هؤلاء ناصحون مجّون فاستمع لهم، قد تجد الكثير من
الصّواب في كلامهم.

القسم الثاني هم المستهزون الذين لا طمّوح لهم
ولا أهداف، اختاروا السّهل الممتنع وعاشوا على الخطّ



الذي سطره لهم المجتمع واستهزأؤهم ما هو إلا غطاء
لخيبتهم وفشلهم، هؤلاء جبناء لا تكثرث لأقوالهم.
القسم الثالث من يثق في قدراتك ويشجّعك على الثقة
في نفسك ويدفعك بأن تحقّق حلمك هؤلاء الناجحون
فاتّبِع خطاهم.

من الرائع أن يحقّق الإنسان حلمه فهذا يزيدُه اعتزازا
بنفسه وثقة في قدراته، لكن ماذا إن لم يحقّق شيئا
وأخطأ الاختيار، فخطؤه هذا سيعلّمه تحدّي مسؤولية
اختياره، إذ يكفيهِ فخرا أنه إنسان صاحب قرار.



الفصل الرابع



يرنّ جرس العاشرة ليوم غد ليعطي إشارة بدء أهازيج التلاميذ وهم ينسلون من كلّ حذب نحو الساحة ومعهم جود الذي كان يمشي في سكون رهيب وكأنه في عالم مواز أو ثقب أسود ليس سواه يمشي فيه. متاقلا وكأنّه يحمل أحزان الدنيا والآخرة على كتفيه اللّتين تكادان تلامسان كعبي رجله، حتى انتهى به ذلك النفق المظلم إلى مكانه المعتاد فجلس يخاطب نفسه مستهزئاً بها:

هى هى مالي أراني أمشي مشية أبي أذلك الشبل من ذاك الأسد!؟ شبل!! أسد!! يعيدها ضاحكا في سرّه، بل قل ذلك الصاغر من ذاك المغلوب على أمره، ذاك المهان من ذاك الخنوع. وبقي يكرر تلك الكلمات القاسية إلى أن أحس بقبضة يد تضربه علي صدره ضربة انتشتله من ثقبه الأسود وأعادته إلى عالمنا ليستيقظ جود على ضحكات ذلك التلميذ الوسيم وهو يقول: حسبتك كومة يأس تتدحرج من فوق نحو هذا المكان المنعزل، ابتسم يا صديقي ألم أقل لك البارحة غدا سيكون أفضل.

وقف جود دون حراك ودون أن ينبس بكلمة، وهو يردّد في نفسه متعجّبا:



غدا أفضل! وما الذي تغير في حياتي من البارحة إلى اليوم
حتى يكون غدي أفضل؟!

ثم من هذا الذي يخاطبني اليوم ودافع عني بالأمس!! وفوق
هذا وذاك ينعتني بالصديق.

مالي لا أراك ترسم اليوم؟ يضيف التلميذ الوسيم آها ليس
لك أقلام كسرهما لك ذلك الأبله المدعو ماكسيم.

ثم يدخل يده في محفظته ويخرج رزمة أقلام ويعطيها لجود
خذ هذه الأقلام هي لأبي له منها الكثير، ولا أخاله يحتاجها
كلها فأبي مهندس معماري وله الكثير من الأقلام والمساطر
وأدوات رسم يخطّ بها تصميماته.

في تلك اللحظة رنّ جرس المدرسة مبلغا التلاميذ على انتهاء
وقت فسحتهم ليولّوا الأدبار وتشح الساحة منهم رويدا رويدا
وكأن أحدهم شغل شريط فيديو بالعكس، ولم يبق فيها إلا جود
الذي بقي صامتا مسرّرجلين دون حراك فاتحا ثغره ممسكا
برزمة الأقلام في يده اليسرى.

هيا يا صديقي ارجع إلى قسمك قبل أن توصل الأبواب وأنا
كذلك يجب علي الرجوع ثم أردف:

بالمناسبة لم نتعرف بعد، أنا اسمي جوليان،

قالها مادّا يده اليمنى ليصافحه.

وأنا جود،

نطق أخيرا وابتسامة تملأ وجهه مصافحا صديقه. في هذه اللحظة توقف الزمن وكفّت الأرض عن الدوران، وهبّت ريح متوسطة حرّكت معها أغصان الأشجار، وطارت العصافير وشهدت الطبيعة برمتها ميلاد أنبل علاقة على وجه الأرض شهدت ميلاد صداقة أبدية لا تتخللها مطامع، ولا ماديّات في الحسبان، صداقة مبنية على أسس من صراحة وجدران مشيدة بالشّهامة ومرصّعة بأبهى اللحظات وأصدق الضّحكات.

هذا كان شعور جود في تلك اللحظة القصيرة ولم يستفق من نشوة الموقف إلا على صوت المراقب ينادي:

هاي أنتما الاثنان ألم تسمعا صوت الجرس يرن...؟

جود انهض إنها السابعة والنصف لقد تأخّر الوقت على المدرسة، لا تنس أخذ بدلة الرياضة إن اليوم الجمعة...

آخ صحيح إنه يوم الجمعة يوم الحصة الرياضية أنا لا أحب الرياضة، ثم إن ذاك الضخم المدعو ماكسيم سيكون حاضرا مع قسمه وسيسخر مني لكن لا بأس سألتقي مجددا مع صديقي جوليان، هو من سيقف بجانبني ويحميني منهم.

دخل جود إلى غرفة تغيير الملابس، وضع محفظته في الخزانة ثم جلس على الكرسي مرتديا بدلته الرياضية وحذاءه



الرياضي القديم المهترئ ثم جلس يراقب من حوله محاولاً
مداراة الخرم الموجود على حذائه.
هاي انظروا من هناك إنه الفنّان. صاح الضخم ضاحكا ثم
أردف:

لم أنت حزين دائما هكذا؟ اضحك قليلا، حتى حذاؤك مسلّ
عليك، انظروا إلى الفرق بين وجهه البائس وحذائه الضاحك
يقول هذا مستهزئا بحذاء جود الممزق، ثم اتّجه نحوه
ليحمله بين ذراعيه، ثم رفعه فوق مطبقا عليه بكلّ قوته والكل
يضحك والضخم يصيح:
الفنان... الفنان ارسم لي صورة...

كان يصرخ وقطرات عرق تنزل من على جبينه واستقرّت
أخرى على وجنتيه الحمراتين، أما جود فقد حاول جاهدا
التخلّص من قبضة الضخم الذي أطبق على أنفاسه وأحكم
قبضته عليه وثبّت حركة كل جسمه ما عدا رجليه اللتين
تأرجحتا كأرنب يتدلّى في يد ذابحه.

يستدير جوليان واقفا بعد أن كان على ركبته يربط رباط
حذائه ليتجه نحوهما وشرارة شر تتدفق من عينيه:
ألم أقل لك يا ماكسيم أن تدع الطفل وشأنه؟ يقولها
وهوممسك كتف الضخم بقوة كانت كافية لإرهابه.

كان الضَّخْم يرهب الجميع والجميع يخافه إلا جوليان كان
 ندًا له وكان ماكسيم يحترمه كثيرا ويتحاشى الاصطدام به.
 ارتخت يدا ماكسيم واختفت ملامح وجهه الضَّاحكة وتبدلت
 بابتسامة محرجة، فاغتنم جود الموقف ودفع الضخم بكل قوته
 ليسقط أرضا ملتقطا أنفاسه وهو يتمتم لقد كاد يقتلني هذا
 الوغد.

ما المضحك في كونه رسّاما يقول جوليان؟ ثم يضيف
 لأنه موهوب تضحكون! كان بالأحرى أن تسخروا من
 أنفسكم وأنتم تعيشون كالبهائم لا مواهب تملكون ولا كتب
 تقرؤون، لا تجيدون إلا الاستهزاء ممن هم أحسن منكم وألطف
 منكم.

ثم صاح مضيفا:

هذا الطفل الموهوب صديقي إذا أراد الرسم يرسم، وإذا أراد
 الغناء يغني، وإذا أراد الرقص يرقص يفعل ما يحلو له، ومن
 يسخر منه من اليوم فصاعدا فمشكلته معي وأنا أعرف جيّدا
 كيف أحل مشاكلتي مع أمثالكم.

كنا نمازحه فقط يا جوليان، لم كل هذه الدراما وكل هذه
 الحدة؟ يقول الضخم متقهقرا نحو أصدقائه.

هل أنت بخير يا صديقي؟



نعم لا تقلق يا جوليان، شكرا لك.

ثم يضيف

لَمْ يَسْخَرْ مِنِّْي الْكَلْبُ؟ أَلَا أَنَّنِي فَقِيرٌ لَا مَالَ لِأَبِي كَيْ يَشْتَرِي لِي
حذاء رياضيًا جديدًا؟ أَلِهَذَا أَنَا مُحْتَقَرٌ وَسَطُ التَّلَامِيذِ؟
يَرُدُّ جُولِيَانُ وَهُوَ يَنْظُرُ نَحْوَ مَا كَسِيْمٍ وَشَلَّتَهُ بَعِيْنِيْنِ صَغِيْرَتِيْنِ
مَحْمَرَّتِيْنِ تَشْتَعْلَانِ غَضْبًا:

لَا تَكْتَرِثْ لَهُمْ وَلَسْخَرِيَاتِهِمُ اللَّعِيْنَةُ، فَلَا عَيْبَ فِي أَنْ تَكُونَ
فَقِيْرًا وَلَا عَيْبَ فِي أَنْ يَعْجِزَ وَالِدُكَ عَلَيَّ اقْتِنَاءَ حذاءِ رِيَاضِي
جَدِيْدٍ لَكَ، فَأَكِيْدُ لَهُ أَسْبَابَهُ، الْعَيْبُ يَا صَدِيْقِي أَنْ تَقْبَلَ أَنْتَ
بِالْوَضْعِ وَتَتَعَايَشَ مَعَهُ.

كَانَ عَمِّي يَقُولُ لِي دَائِمًا دَوَامَ الْحَالِ مِنَ الْمَحَالِ، حَيَاتِكَ
بِيَدِكَ وَأَنْتَ وَحْدَهُ مِنْ يَمْتَلِكُ سَبِيلَ تَغْيِيْرِ حَالِكَ وَحَالِ مَنْ
حَوْلِكَ.

كَيْفَ سَأَغْيِرُ حَالِي وَحَالِ وَالِدِي؟ يَقُولُ جُودٌ، ثُمَّ يَضِيْفُ
بِنَبْرَةٍ حَزِيْنَةٍ: رَبِّمَا كَتَبَ عَلَيَّ وَعَلَيَّ وَالِدِي الشَّقَاءَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ
اللَّعِيْنَةِ.

لَا تَقُلْ هَذَا يَا صَدِيْقِي أَتَدْرِي مَا هُوَ الْمَكْتُوبُ يَا جُودٌ؟ هُوَ أَنْ
تَسْعَى وَتَعْمَلُ لِتَصِلَ لِمَتَبْعَاكَ، وَحِينَ تَصِلُ لِمَرَامِ نَفْسِكَ فَذَلِكَ
هُوَ قُدْرُكَ وَمَكْتُوبُكَ، وَحِينَمَا تَصِلُ لِهَدْفِكَ وَقَتَهَا فَقَطْ يُمْكِنُكَ

أن تنتقم ممّن سخر منك وتظهر له قوتك وتغيظه بنجاحك.
أنتقم، أنتقم... يردّها جود وهو يرمق الضّخم بنظرة حادة
وكرات ضغينة تتطاير من عينيه كالشّهب.

من يرافقني إلى وسط المدينة؟
قال هذا ماكسيم وهو يتباهى بعدد كبير من أواق نقدية في
يده ثم أردف،

سأشتري آخر إصدار لماركة نايكي.
ألم تشتري الشهر الماضي واحدا يجيبه أصدقاؤه؟
نعم لكني رأيت نسخة جديدة من آر ماكس في فيترينة
نايكي الأسبوع الماضي ولا بد أن أضيفها إلى مجموعتي.
اتّجه الجميع إلى الملعب ليقوموا بعملية الإحماء وتديّلهم
جود الذي كان يتدبّر كلام جوليان مكلّمًا نفسه:
نعم سأنجح وسأنتقم من كل الذين سخرؤا مني.
يردّها وصورة ماكسيم الضّخم ترسم في مخيلته، ثم توقّف
فجأة عن الجري هنيهة مخاطبا نفسه.

ولم أنتظر حتى أنجح كي أنتقم؟ سأنتقم منه اليوم.
بعد محادثة طويلة وشدّ وجذب وفيما الكل منشغل بلعب
الكرة تسلل جود كالسحلية إلى غرف تغيير الملابس بنبضات
قلب متسارعة ويدان ترتجفان وكأنه أصيب بمرض الرعاش،



تسحب خفية في الغرفة إلى أن وصل الى أغراض ماكسيم
وجبينه يتصبب عرقا.
قام بفتح الحقيبة وهو يلتفت يمينا ويسارا ومن خلفه،
في حين كانت يده تتجه دون تردد نحو المال أين أخرج من
الجيب I40 يورو، أخذ منها 100 يورو خبأها في جوريه ثم طوى
الباقى وأرجعه إلى مكانه ثم تراجع متسللا نحو الملعب.
وهو يسمح عرق جبينه بكم بدلته الرياضية وابتسامة
المنتصر بارزة على محياه.

* * * * *

في حياة الإنسان عدّة علاقات تغمره بأحاسيس متنوّعة
مثل الأمان والحنان والاستقرار والفرحة... ومن بين أهمّ
هذه العلاقات: الصّداقة.

الصّداقة هي علاقة من أنبك العلاقات فأنت في مرح
منها إذا سئمت تكاليف الحياة، وفي سعة إذا ضاقت بك
السبيل، وفي أمان إذا جار عليك الدّهر.

يكون الإنسان صداقات كثيرة طوال حياته فيصادق
جيرانه ويصادق زملاء دراسته وعمله وحتى سفره، فيقرّب
كثيرين ويبعد آخرين معتمدا على مشاعره في بعض

الأحيان أو على نسبة خفة ظلهم ومعسول كلامهم، لكن مع مرور السّنين ومع اكتساب خبرة في التمييز بين الغث والسمين وبين الخبيث والطيب، يتعلم الإنسان أن المشاعر والمرح ليسا المعيار الحقيقي للاختيار الصديق، هنا ستكون خيبات أمله الكثيرة المصفاة التي سيغربها بها من حوله.



الفصل الخامس



بعد راحة نهاية الأسبوع واستئناف الدراسة ذاك جود يجلس في كرسي متطرف في ساحة المدرسة حاملا قلمه وكراسة رسمه يحاول إكمال رسم بدأه في المنزل، لكن ضجيجا من جهة المرحاض أفقده تركيزه، صراخ وتصاعد أصوات وشتائم شدته، رفع رأسه بفضول فوجد جوليان متجها نحوه وهو يضحك.

ماذا يجري هناك يا صديقي؟

إنه ماكسيم تركته في حالة غضب لا توصف.

لماذا؟ يقول جود.

أحدهم سرق ماله يوم الخميس وهو يتهم شلته بهذه السرقة.

آه!!! أكان المبلغ كبيرا لدرجة أن يخرج من جلده هكذا ثم

طأ رأسه متظاهرا بالرسم.

لاحظ جوليان نظرة تنم عن خبث ولاحظ لا مبالاة مزيفة

فبادره بسؤاله:

أرى في عينيك شماتة يا صديقي

لم تكن نظرة جود نظرة شماتة بل هو الجزاء والعقاب لمن

احتقر شأنه واستصغر أمره، جود لن يسكت بعد اليوم ولن

يقف مكتوف اليدين أمام حثالة القوم، بل سيثار ويجازي كل

من تحدثه نفسه بأذيته. نظر جود إلى جوليان ثم قال: ما رأيك



لو تسكَّعنا قليلا بعد المدرسة في المدينة؟
 فكرة جيدة انتظرني إذا عند باب المدرسة على الرابعة...
 وقف جود أمام باب المدرسة منتظرا صديقه وسط زحمة
 التلاميذ، وصيحاتهم ممتزجة بأصوات زمارات سيارات الآباء
 تستقطب انتباه أبنائهم. لم يلبث جود كثيرا حتى رأى كومة
 من الفوضى تتحرك عند باب الثانوية وكلام بصوت مسموع
 على بعد عدة أمتار، ومن بين هذه المجموعة برز وجه ماكسيم
 المشتعل ككرة ملتهبة عاصرا قبضتي يديه وهو يتوعد السارق
 بعقاب شديد وضرب عتيد ويتعهد كل من تستر عليه أو أعانه
 بالندامة ومجازاته بكل صرامة وأطل معه جوليان بوجهه الرزين
 وصوته الهادئ وهو يحاول تهدئة الأمور كعادته، فتجده يعاتب
 شلة ماكسيم ويوبَّخهم على خيانة الصداقة، ثم يعود ليواسي
 ماكسيم بكلمات لم تنجح في تهدئته، حيث حاول متأسفا
 إقناعه بفكرة أن السارق لن يعترف إن لم يش به أحد الشهود.
 وبقية الشلة في شد وجذب وملاسنات وعتاب وتوبيخ ووعيد
 إلى أن انصرف كل في طريقه دون الوصول إلى نتيجة مرضية.
 أما جوليان فقد اتجه إلى جود يهزّ كتفيه متأسفا على تأخره
 وانشغاله بغيره.

أما زال ماكسيم يبحث عن ماله؟ ألم يجد السارق بعد؟

لا لم يجده ولن يجده فالسارق لن يعترف بسهولة. أعتقد أنه
قضى نهاية أسبوع جميلة ب 100 يورو.

إنها 100 يورو يا جود!! أقسم أن يديّ لم تمسكا بهكذا مبلغ
يوما، ومؤكّد أنت أيضا لم تعرف يوما مبلغا مماثلا.

ضحك الصديقان ثمّ توجّها نحو المدينة يتحدثان في أيّ
شيء وكل شيء وكأنهما في حصّة تعارف، عرف فيها جود أن
والد جوليان مهندس لامع له مكتب هندسة خاص به وأنه هو
بدوره يتطلّع بأن يكون مهندسا...

بقي جود وجوليان يتجادبان أطراف الحديث إلى أن طرق
الجوع باب معدتهما، فقرّرا أن يدخلتا مطعمًا صغيرًا أمام محطة
ميتر و كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء.

والتي زامنت خروج العمال من مكاتبهم، وكان المطعم مكتظا
بهم، هناك من هو مستعجل فأخذ قطعة بيتزا ليلتهمها ماشيا
وهناك من يجلس ليحتسي قهوة وهناك من يأكل ساندويتش
التاكوس على الطريقة الليونية مع صلصة الجبن اللذيذة
والبطاطس المقلية وهذا ما اختاره الصديقان، أخذ جوليان
ساندويتشا بالكتشاپ وأخذ جود ساندويتشا بالشطة، وفيما كان
جود يتأوّه من شرارة الشطة على لسانه وجوليان يتمتع بحلاوة
الكتشاب في حلقه دخل عجوز يرتدي معظفا ممزقا وسروالا



متّسخا، يلبس قفازات تبرز أطراف أصابعه بلحية رمادية ونظرة تستجدي الشفقة وقد هم بالكلام، إلا أن صاحب المحل بادره بالصراخ طالبا منه الخروج حالا ثم دفعه دفعة صغيرة كانت كافية بأن تجعله يترنّح وهو يقول.

رويدك رويدك سأخرج لم آت هنا كي أجلب المتاعب معي، جوعان والجوع من دفعني للدخول عليّ أجد أحدهم يعطف علي بالقليل من المال اشتري به ما يسد رمقي. اخرج قلت لك فأنت وأمثالك ليس مرحبا بهم هنا أنتم عالة على المجتمع.

خرج العجوز مطأطئ الرأس خائب المسعى دون أن يلتفت له الزبائن أو يحرك أحدهم ساكنا، وكأن الأمر لا يعينهم أو كأنهم لم ينتبهوا أصلا لما حدث، وحتى وإن انتبه أحدهم فقد أوما برأسه ونظر نظرة تدل على استيائه من العجوز لا صاحب المحل!!! وكان حال لسانه يقول لم تزعجني بمشاكلك وأنا من أتى إلى هنا طلبا لبعض من الراحة بعد يوم عمل شاق. التفت جود إلى جوليان فأحسّ بجمر من الغضب يتقد داخله، أما جوليان فقد نظر إلى صاحب المحل نظرة المنقض عليه لينهش رقبتة أو يقطع يده التي امتدّت على الشيخ أو يخلع من الجذور لسانه الذي لم ينطق إلا شرًا.

ثمَّ خرج مسرعاً لافاً ما تبقى من الساندويتش في ورق، واتجه إلى الشيخ وهو يصيح:
سيدي سيدي انتظر خذ هذا نصف أكلي، يمكنك أخذه فأنا قد اكتفيت وشبعت.

مدَّ الشيخ كلتا يديه ضاماً ما تبقى من الساندويتش وهو يحركهما فوقاً وتحتاً تعبيراً على امتنانه وجلس مكانه يأكل وسرور النفس ينبعث من وجهه الذي أضاء فرحاً بعد ما اسودَّ ترحاً من معاملة صاحب المحل.

تحركَّ جود نحوهما متأثر النفس بما رآه من انبساط في وجه الشيخ، ثم تقدم أكثر ومدَّ يده في جوربه وأخرج المال المسروق وأخذ منه 20 يورو وأعطاهما للشيخ خذ يا سيدي هذا المال لك، اقتني به كل ما اشتهيته من أكل.

نظر الشيخ شاخص العينين مندهشاً:

لا يا بني هذا كثير!!! لا يمكنني أخذ هذا المبلغ من طفل في سنِّك فأنت تلميذ لا عمل لك ولا أرى علامات الغنى عليك!
لا تقلق يا سيدي خذ المال لو سمحت فأنت أحوج به مني ثم انظر بقي لي الكثير وأصدقك القول حتى اللحظة لا علم لي في أي شيء سأنفقه.



ارتسمت على وجه الشيخ ابتسامة أفقية عريضة وانشرح
وجهه وأخذ المال دون أن يضيف كلمة.
أما جود فقد توغل بفكره في وجه الشيخ المبتهج مكلّما
نفسه:

ما هذا المال اللعين الذي كان دوما سببا في تعاستي وتعاسة
أبي يصبح الآن سببا في سعادة هذا الشيخ؟! أيمكن أن يكون
للشيء نفسه أثرين متناقضين كل هذا التناقض؟!
تعلّم جود من هذا الموقف أن المال ليس لعنة بل هو مصدر
فرحة وسعادة أناس كثيرين فتمنى أن يقدم يوما لوالده المال
الكافي الذي يجعله جميل الوجه نيّرا من السعادة كوجه هذا
الشيخ.

التفت جود لجوليان فوجده مرخيا عينيه وفكّيه دهشا لما
رأى وراح يتعثّر في الكلام.

أأ أنت

لا تقل لي أنك أنت؟

نعم أنت.

ثم انفجر ضاحكا وهو يضمّه إلى إبطه قائلا:

لم أتوقّع هذا منك أيّها الماكر وأنا من ظننتك ضعيفا

مهيض الجناح.

لم يتمالك جود نفسه وضحك كما لم يضحك منذ زمن.
ما الذي دهاك يا جود وما الذي دفعك لسرقة مال ماكسيم؟
إنه الانتقام يا صديقي، ألم تقل لي ستنتقم يوما منهم وها
أنا قد انتقمتم.

نعم صحيح كلمتك على الانتقام لكنني لم أقصد دفعك
للسرقة وإن لم تخني الذاكرة قلت لك ستنتقم بنجاحك وفي
المستقبل

نعم هذا ما قلته لي لكنني أعتقد أنه لا طاقة لي على الصبر،
أما انتقامي فأفضله على طريقتي.

نظر جوليان لجود معجبا بالثقة التي تكلم بها وكأنه يكلم
شخصا غير الشخص الذي دافع عنه قبل يومين، ثم قال ضاحكا
إذا أنا شريكك في فعلتك هذه.

تنامت علاقة الصداقة بين جود وجوليان وتوطدت أواصر
الصحة وظفرت خيوط الود بينهما وأصبح لجود منفذين ينفذ
عبرهما من سجن الحزن الذي أسر حياته، الرسم الذي شغل
باله، يهيم به في عالم افتراضي جميل كله ألوان زاهية

وصداقة جوليان التي جعلته يضحك ويقضي أوقات مرحة،
حيث خلقت هذه الصداقة تقاسيم جديدة لوجه جود بمحاذاة
تقاسيمه القديمة.



صحيح أن هذه العلاقة الجميلة لم تمح أثر الحزن في أعماقه،
لكنها تربعت وأخذت مكانا موازيا ومساويا لهذا الحزن.
فتجد جود في وحدته كالحا عبوسا مجعد الوجه وكأنه
بالخل مغسول، وفي صحبة جوليان دائم الضحك مبتسم الثغر
بهى المحيّا وكأن وجهه بمرهم الحياة مدهون.

إذ لم تبدل هذه الصداقة حياته بل أنجبت له حياة أخرى
تمشي وتتعايش مع الأولى، فحينما تظهر واحدة تختفي الثانية
وكانه مصاب بمرض انفصام الشخصية.

درج الصديقان على الالتقاء كل أيام الأسبوع عقب الدراسة
يلهوان لهواً لا يخلو من شغب، ويلعبان لعباً مليئاً بالمتاعب
حتى كنيّا بالصعلوكين.

صحيح في بداية الأمر لم يستسيغا هذا الاسم لكنهما مع
الوقت ألفاه بل أحبّاه حتى استخلص منه جود اسما لعصابته
المستقبلية، ومن المفارقات العجيبة والتناقضات الغريبة في
حياة جود أن الصديقين رغم تصعلكهما ومشاكستهما المستمرة
إلا أنه كان لهم في المقابل صيت طيّب وسمعة حسنة لكثرة
أعمالهما الصالحة ومساعدتهما للفقير والمريض وعابر السبيل
ومن طعن في السن.

* * * * *

دائماً ما نقابل في طريقنا متشردين يستجدون بعضاً من الإعانة العالية فنساعدهم أحياناً وتتجاهلهم أحياناً أخرى، نمر عليهم مرور الكرام دون أن نسأل أنفسنا عن سبب وضعيتهم هذه، وهما لنا يد فيهما بطريقة أو بأخرى.

قد يقول أحدهم وما ذنبي أنا إذا اختاروا بهحض إرادتهم هذه الحياة، ثم يتساءل لم أنا نجحت وهم لا مع أن فرصنا متساوية؟

أولاً من قال أن فرصكم متساوية؟ ربما حالفك الحظ بأن ربيت في أحضان عائلة متوازنة وأبوين صالحين وهو لا.

ومع ذلك فأنا أدفق معك! صحيح هم من اختار هذه العيشة الضنكة! لكنك نسيت أن حرية الإرادة تخضع لعوامل كثيرة كي يكون اختيار المرء صحيحاً، من بين هذه العوامل العقل السليم والحالة النفسية المتزنة، فهما من المنطق أن نلوم من ضعفت شكيمته وهشّت شخصيته واهتزّت ثقته في نفسه على رضوخه لواقعه الأليم؟ في انتظار ردك!. وإلى ذلك الحين يبقى المتشرّد تائهاً بين لا مبالاة الدولة وأنانية المجتمع.



الفصل السادس



اعتاد جود وجوليان التردد على متجر صغير - لرجل ثقيل الروح بارد المعاملة قبيح الوجه والطباع خاصة مع الفقراء فهو يحتقرهم ويعاملهم بكل قسوة- وهذا لاقتناء مشروبات أو بعض من الشكولاتة التي يعشقها جود، فقد كان يردد دائما «وهل هناك في هذه الدنيا أحسن من كيس M&mS؟»

وفي يوم وهما يتبضعان في المتجر فإذ بهما يسمعان تلك المرأة وهي تتدلل لصاحب المحل الذي كانت ملامح وجهه أقسى من مادة الجرافين ونظراته أحد من عيني طير الباز، اقتربا لتبين أمر المرأة التي كانت سمات الفقر والعوز واضحة من هندامها الخارجي.

كانت امرأة تتعدى الثلاثين من عمرها بقليل، تمسك شعرها بمسكات كثيرة الألوان مزركشة كثيرا ما نجدها تباع في الأسواق بأسعار بخسة، ورغم تلك المسكات شعرها لا زال منكشا على الأطراف تمسك في يدها محفظة نقود أتصور أنها تحتوي على كل شيء إلا المال.

فسمعاها تقول:

أرجوك سيدي ابني يتضور جوعا ونحن في آخر الشهر، ولم يبق لي الكثير من المال لاقتناء الحليب، خذ ما عندي وفي أول الشهر أعطيك الباقي.



أعتقدين أنّ متجري مكتب مساعدات؟ أم خيّل لك أن صليبا
أحمر معلق على لافتة المحل؟
ردّد التاجر هذه الكلمات الجارحة بنبرة المستهزئ المحتقر
ثم أضاف:

ليس لك مال لن أعطيك شيئا اخرجي ودعيني أعمل فلا
وقت لي أضيّعه مع أمثالك.

تسمّرت المرأة مكانها لا تتكلم ولا تتحرّك و ملامحها تعكس
حزنا ذليلا وقهرا رذيلا، وتكاد روحها أن تتلفّظ بشموخ:
أيها الحقير لولا ابني ما تذللّلت لك، وما تصاغرت أمام زعيم
مثلك .

تقدّم جوليان حازم الإيماءات منقبض الوجه وطلب من
صاحب المحل:

كم ينقصها؟ أنا أدفع ما تبقى.

ثم استدار بلطف ووجه بشوس للمرأة:

أحتاجين شيئا آخر سيّدتني؟

أعتقد أنني وصديقي نملك المال الكافي لتشتري ما ينقصك.

ضحك البائع ساخرا من الموقف ومستهزئا بالمرأة ثم تمتم

بصوت مسموع:

لا ينقصها إلا أن تأخذ المزيد، لا يكفيها أنها تستغلّ ضرائبنا

كي تحصل على إعانات، ها هي الآن تطمع في الأطفال.
 أحفظ جوليان ما سمعه والتفت مقرون الحاجبين صائحا:
 أكنت مجبرا على هذه الإضافة الحقيرة؟ أوصل للقاع شَرَك أم
 مازال لديك المزيد لتغترف منه ثم تنشره في وجوه الخلائق؟
 ألا تستحي أن أقول لك هذا الكلام وأنا في سن ابنك؟ عجيب
 أمر الدنيا مراهق يربي راشدا! أأشرقت الشمس من مغربها كي
 تنعكس الأمور أم تراه عقلك تبادل الوظائف مع مؤخرتك وما
 تلفظت به ما هو إلا نتاج فضلاتك!!

احترم نفسك يا ولد ولا تتعدى حدود الأدب.

أدب أي أدب مع أمثالك لو سبقت الخير للحقك مثله لكنك
 بادرت بالشر فلسعك لساني ولساني لاذع بذيء مع من
 يستحق...

نشبت مبارزة ذمّ وقده بين صاحب المحل وجوليان كادت
 تنتهي بتشابك بالأيدي، لولا أن قطعتهما صرخة المرأة وهي
 تقول:

كفى كفى... هذا يكفي لا داعي للشجار بسببي ثم وضعت
 ما تملك من مال وأخذت علبة الحليب، ثم تأسفت لصاحب
 المحل وتشكرت لطف الصديقين، وهمت بالرحيل لتتوقف
 حانية الرأس أمام جوليان. وقالت له:



يوم 5 في الشهر المقبل تعال أنا أسكن في عمارة كذا،
رنّ على اسم نجولو سأنزل لأعطيك نقودك، ثم خرجت في
استحياء مطأطئة الرأس.

ساد سكون في المحل هنيهة ليضع له حدًا صاحب المحل
بصوت صندوق النقد يفتح ليقول: ألكم أغراض أخرى أم
هي ما تبقى من ثمن علبة الحليب فقط؟

ليردّ عليه جود مبتسما:

قنينة سودا وكيس m&m's.

وأنت لم لا تبسم كصديقك؟ انظر إليه كيف هو لطيف
بشوش الوجه.

قالها صاحب المحلّ مخاطبا جوليان في محاولة بئسة
لتلطيف الجو.

لينطق جود ويقول:

سيدي إذا رأيت أنياب الليث بارزة لا تعتقد أن الليث يبتسم
لك؟

ثم توجه بنظرة ماكرة لجوليان وقال:

أعتقد أن وقته قد حان.

كانت السّاعة في حدود السابعة صباحا، جوّ بارد ضبابي
وسكون يعم المكان إلا من أصوات كعب امرأة يقرع متقدما

مهرولا نحو موقف الحافلة وصوت صفير متقطع مزعج اتضح فيما بعد أنه صوت فرامل الحافلة، وعلى الحائط المحاذي لموقف الحافلات يتكى جوليان متقلصا ومتقرصا على نفسه ساترا رأسه وجزء كبيرا من وجهه بقبعة المعطف لتحميه من البرد.

كان الفتى قابعا هناك يتسلى بالضباب الذي يخرج من فيه ويراقب عن كذب متجر ذلك الخبيث كما اتفق مع جود بعد خروجهما من المتجر، فبعد حادثة المرأة المعسرة اتفقا على مراقبة حركات وتحركات البائع، وحينما نقول تحركات البائع فأكيد نقصد بها تلك التي تقترن بالمحل.

وطلب جود أن يكتب في كراسة صغيرة أوقات فتحه للمحل وأوقات غلقه وكل عادة ألف البائع على فعلها أو فعل درج على تكراره، لتتم دراسة كل فعل على حدة وكل عادة على عدة.

ولبث الصديقان يراقبانه أياما وساعات ويكتبان ويتحاوران في كل ملاحظة أبصراها وعابناها إلى أن توصلا أخيرا إلى نقطة ضعفه والتي من خلالها قد يتمكنان من حياكة خطة تخول لهما معاينة البائع بالسطو على محله.

فقد أبصرا أنّ البائع كثير النسيان وفي مرّات متكررة دون انتظام، كان البائع عقب خروجه ووضع المفتاح في قفل الرّداء



الحديدي للمتجر، وإنزاله إلى النصف يتذكر أنه نسي شيئا
فيدخل هنيهة من الزمن تاركا المفتاح على القفل.

فجعلا من هذه الملاحظة قاعدة ونقطة انطلاق لنسج خطتهم
وتفصيل بعد ذلك أطرافها ورسم معالمها.

اقترح جوليان أن يجلس غير بعيد ليخطف المفتاح فور
دخول صاحب المحل لمتجره.

لكن جود لم يستسغ الفكرة ولم يهضمها عقله حيث قال:
لكنّه حالما يخرج سينتبه لاختفاء المفتاح، وأكد لن يبرح
مكانه حتى يغلق المحلّ ومن المؤكد أيضا أن باله لن يرتاح
إذا أغلق المحل بنسخة المفتاح، إذا كان بحوزته نسخة أخرى.
لهذا فالرّاجح في هذه الحالة أنّه سيستدعي شخصا ليغيّر له
القفل وبهذا لن تفيدنا سرقة المفتاح في شيء.

ماذا تقترح إذا؟ يسأل جوليان.

نظر جود لصديقه في صمت، والحيرة تنهش من وجهه فهذا
الموقف لم يمرّ عليه من قبل، وبرغم رجاحة عقله وفطنته إلا أنّ
صغر سنّه وقلة خبرته في الحياة خانتاه، ثمّ حنى رأسه وتظاهر
أنه يفكّر مع أن عقله كان مشلولاً، مع ذلك كان على يقين
بإيجاد حلّ لأنه يعلم علم اليقين أنه كما لكلّ علّة معلول
ولكلّ داء دواء ولكلّ سدّ منفذ فأیضا لكلّ معضلة حلّ.

ظلّ الصديقان يقبلّان المسألة يمينا وشمالا إلى أن اهتدى جوليان لفكرة ظنّ في بادئ الأمر أنّها مضحكة، فطرحها على استحياء:

لي فكرة يا جود لكن تبدو مضحكة.
أغثني بها يا جوليان أرجوك فرأسي تكاد تنفجر وعقلي سيشل من كثرة البحث والتفكير.

فقال جوليان رأيت في أحد أفلام المخبرات أن عميلا سريا دخل منزلا وأخذ مفتاحا من درج المكتب ووضع في قالب طري أخذ به شكل المفتاح وبصمته ثم أرجعه مكانه دون أن يشك أو ينتبه أصحاب المنزل للأمر، ثم نسخ له نسخة وأضحى يستعمله كلما سنحت له الفرصة.

ضحك جوليان لما رأى ابتسامة ترتسم على وجه جود وقال:
ألم أقل لك أن الفكرة مضحكة، ها أنا أرى ابتسامة ساخرة على وجهك.

أجابه جود ضاحكا، بل هي ابتسامة الغريق الذي فرح لرؤيته يد مخلصه، لا أكتمك الأمر يا صديقي، كنت أتظاهر بالتفكير فقط، لقد كنت مشلول الفكر وكأني فاقد العقل والبصيرة.

ثم يستطرد لا أدري إن كانت فكرة جيّدة وهل بالمستطاع تطبيقها على أرض الواقع أم لا؟ لكن على الأقل عندنا فكرة



ننطلق منها، فإذا وجدنا آلية لتطبيقها فيها ونعمت، وإلا فأكيد
ستصل بنا إلى أفكار أخرى قد نجد في إحداها مبتغانا.
على كل حال ليس لدينا خيار آخر، فهذه هي الفكرة الوحيدة
التي بين أيدينا سنحاول تفكيكها واستخراج كل صعب فيها
ودراسته على حدة.

قل لي في رأيك ما هي أول صعوبة قد نواجهها لو فرضنا
أننا سنطبق هذه الخطة.

فرك جوليان ذقنه، فكر ملياً ثم قال:

أكيد الزمن - الوقت - ليس في صالحنا،

فهل نستطيع أن نخرج المفتاح ونأخذ بصمته في وقت
قصير؟ مع العلم أن مدة تغيّبه لا تتعدى الثواني، أعتقد أنه وجب
علينا أن نجد طريقة نؤخره بها كي يتسنى لنا طبع المفتاح.
محلولة لا إشكال كبير فيها يقول جود ثم يردف:

أدخل أنا فور رجوعه إلى المحلّ وأطلب منه قنينة صودا،
وأحاول إلهاءه وتأخيره القدر الذي يكفيك لرفع بصمة المفتاح
وإرجاعه مرة أخرى، وتقف أنت أمام قفل الرداء لتقوم بالمطلوب
بسرعة ودقة ورباطة جأش.

لا عليك يا جود فالثبات وبرودة الأعصاب ميزتي، والآن بقي
لنا المادة التي تمكنا من أخذ البصمة بدقة ودون أن يتغير



القلب أو يطرأ عليه تحريف.

أعتقد أننا سنجدها في متجر أدوات البناء.

بقي لنا الأهم يا جود من سينسخ لنا المفتاح؟

ولماذا لا ننسخه نحن؟ يرد جود.

لكن كيف؟ يسأل جوليان.

لا أدري كيف لكن أكيد هناك طريقة، دعني أفكر قليلا.

رنا في السقف ثم شدّ الرحال بذاكرته نحو الماضي ينبش

فيه علّه يجد جوابا عن تساؤل صديقه، وبعد طول تنقيب

رست به ذاكرته في موقف سيارات ووالده فاتحا السيارة التي

كان يملكها قبل أن تختفي من حياته باختفاء أمه.

فاتحا إياها من جهة المحرك، يحمل مفتاح البراغي بأطراف

أصابعه التي اكتست بالسواد وكأنها أعواد شجر متفحمة.

ثم أخرج جزءاً من مجموعة قطع المحرك، وسأل ابنه أتدري

يا بني ما هذا؟

أوما جود برأسه إيماءة فهم منها الأب أنه لا يعلم.

هذه بطارية من دونها السيارة لن تتحرك فهي من يعطي

للمحرك الطاقة الكهربائية كي يحترق البنزين، وتعمل أيضا

على تشغيل الإنارة.

وهل تدري ما يوجد داخلها؟



فابتسم جود وسممة الحيرة تدبّ بين حاجبيه تلتها علامة
استفهام تشكّلت على فمه وذقنه، وكأن صعقة كهربائية
اجتاحت وجهه من كثرة الإيماءات ثم ردّ فاحصا العلبة من كلّ
صوب:

وكيف لي أن أعرف ما بداخلها وهي محكمة الغلق لا فتحة
تنفذ إليها عيناى يا أبى!؟

انظر يا بني سنصنع لعبة لعبها والدك لما كان أكبر منك
سنا بقليل، لكن عدني أن لا تخبر والدتك بما سنصنع فهذا
سرّ بيني وبينك.

ردّد له هذا بنظرة طفل مشاغب يسترجع لحظات صباه، ثم
أردف سأكسرهما كي نرى ما بجعبتها.

قام الأب بكسر البطارية واستخرج منها صفائح رصاصية ثمّ
أتى بعلبة مصبّرات، وثلاث حجرات كبيرة نوعا ما، ووضعها
على شكل مثلث وأشعل النار داخلها ثمّ وضع علبة المصبّرات
على النار ووضع فيها الصفائح الرصاصية ثمّ أتى بقصبة
غرسها في الأرض ومسمار، وجلسا ينظران إلى الصفائح وهي
تذوب شيئا فشيئا لتشكّل غشاوة سوداء، ما إن حرّكها الأب
حتّى بدت مادة سائلة جميلة تشبه ماء اللّجين في صفائها.

أخذ الأب المادّة السائلة وراح يسكبها برفق ودقة وهو

يحدّث ولده:

انتبه يا بني هذه العملية جد خطيرة فلا يجب أن يلامس هذا
السائل حواف القصبّة.

لماذا يا أبي ماذا يحدث لو لامستها؟

تعمّد الأب إمالة السائل على حافة القصبّة فتطايرت شظايا
صغيرة ملتهبة حطّت بعنف على ذراع جود فقفز خوفا وصاح
ألما.

فضحك الأب قائلا: أفهمت قصدي الآن حينما قلت لك أن
هذه العملية خطيرة جدا، أتخيل لو سقطت هذه الشظايا على
عين أحدهم!؟

لهذا أنصحك بالأّ تقوم بهذا العمل إلا وأنت ترتدي نظارات
واقية.

لما امتلأت القصبّة سارع الأب بوضع مسمار في الوسط قبل
أن يجف السائل ويتحجّر.

بعد دقائق قليلة تصلّب السائل فسكب الأب قليلا من
الماء على القصبّة ثم انتزع المسمار الذي خلف ثقباً بعمق
2 سنتيمتر وراح يجردّ المادة الصلبة مما اكتست به لتظهر
أنبوبة صغيرة فضّية جميلة القوام مخطّطة بخطوط عمودية
آخذة شكل القصبّة من الداخل.



أعجب كثيرا جود بلعبته الجديدة حينما أمسكها بيده رغم جهله بكيفية عملها، ثم أخذ يقلبها يمينا وشمالا ويتحسس الثقب قائلا: أهذا الثقب للزينة يا أبي؟ ولماذا هو ليس عميقا؟ هذا الثقب يا بني عمله عمل أنبوب المسدس، وهذه اللعبة بالنسبة للفقراء بمثابة المفرقات والألعاب النارية. أو يمكننا القول أنها بمثابة مسدس صوت فهذه اللعبة يمكنها إحداث دوي كبير.

لكن كيف لهذا الشيء الجميل الصغير إحداث دوي كبير؟ لا تعرّئك المظاهر يا بني فهياة جميلة قد تسرّ في طياتها نارا متأججة أو شرًا مبطنًا كما أن نسима خفيفا يعانق الأشجار بلطف قد يخفي وراءه عاصفة قوية تتلف الأغصان بعنف.

وكيف يحدث هذا الشيء الصغير دويا كبيرا؟ أترى أعواد الثّقاب هذه، خذ منها ثلاثة وافرك الواحد تلو الآخر في ثقب الأنبوبة حتى لا يبقى من الكبريت شيء. نعم هكذا أحسنت... هاك هذا المسمار أدخله في الثّقب جيّدا!

نعم أبي وبعد؟

الآن اضرب بقوة البازوكا على الأرض من جهة رأس المسمار.

بازوكا؟ وما البازوكا يا أبي؟

يجيب الأب ضاحكا:

هذه التي في يدك، كنّا نسميها بازوكا على اسم سلاح أمريكي استعمل في الحرب العالمية الثانية.

ضرب جود البازوكا أرضا فجعل صوتها حتى اهتز له قلبه هلعا وتطايرت من حولهم العصفير وتناثرت معها في الهواء رائحة الكبريت الزكية، تاركا بصمة ساحرة على الأرض سوداء وكأنها ماركة عالمية على حذاء رياضي.

جود، لم تبسم يردّد جوليان وهو يهزّ أكتاف صديقه هيا قل لي لم تبسم أو وجدت الحل؟

ارتدّ طرف جود إليه مناديا البازوكا، نعم إنها البازوكا.

بازوكا أي بازوكا أهي طلاسّم تردّدها أم اسم جن يرد جوليان بسخرية؟

وجدت الحل: يوجد مادة سريعة الذوبان والتصلب وتأخذ بسهولة شكل القالب الذي تصب فيه.

وما هذه المادة؟

إنها مادة الرصاص سهلة الاقتناء يكفي أن نجد بطارية سيارة قديمة لكي نستخرجها منها.

جميل، لم يبق لنا إلا التنفيذ إذا يقول جوليان.

لا بل بقي أن نحدّد أهدافنا من السّطوع على المحل، فمن الغباء



الدخول دون أن نعين ماذا سنأخذ وكم من الوقت نبقى، فنحن لا ندري ما الذي قد يباغتنا من مفاجآت أو ما سيداهمنا من مشكلات.

بعد دراسة كل جوانب الخطة وغلق معظم منافذ الخطأ، وبعد أيام من الترقب وليال من الترصد ارتأى الصديقان أنه حان وقت التنفيذ وأن ساعة الحزم قد جاءت ولا حاجة لا لمماطلة ولا تأجيل.

وفعلا في بداية الأسبوع وبعد شراء وتحضير كل ما يلزم لتنفيذ الخطة بإحكام راح الصديقان يراقبان صاحب المحل كل عشية آمليين أن لا يطول انتظارهما كي لا تنطفئ همتهما، وبعد ثلاثة أيام من الترقب والرصد جاء اليوم المنتظر، حيث خرج صاحب المحل كالمعتاد على الساعة السابعة ليلا مولجا المفتاح في القفل، وأخذ ينزل بسرعة رداء المحل الحديدي، لكنه توقّف فجأة وراح صدى كلامه غير المفهوم يتناثر في الشارع الخالي، ثم انحنى قليلا وهمّ بالدخول إلى المحل، فتبادل الصديقان نظرة فهما من خلالها أن ما سيقدمان عليه سيغير مجرى حياتهما إلى الأبد مهما كانت النتيجة ومهما آلت إليه الأحداث، ثم انطلق جود يجري ودخل المحل وراح يتكلم لاهثا وبكلام متقطع.

ثم لحقه جوليان الذي أخرج من جيب معطفه علبة حفظ مجوهرات كان قد أخذها من درج والدته، حيث جرّدها مما في داخلها وملاها بالمادة التي سيستخدمها لأخذ بصمة المفتاح، ورغم تظاهره بالشجاعة ورباطة الجأش إلا أنه ارتبك بسبب ارتعاش يديه ارتعاش أوراق أشجار تحت تأثير الرياح وصوت قلبه يدق كحوافر حصان يجري بسرعة في مضمار فأسقط العلبة أرضاً، فتوقف زمناً يسيراً ثم انحنى وأمسك العلبة وأغمض عينيه بشدة ثم تنفس نفساً عميقاً وألحقه بزفير قوي طرد به كل ما انتابه من خوف وتردد. ولما انجلت من عليه حالة اللأمان التي اعترته قام وأخرج المفتاح وأخذ يغمسه بحذر مع كثير من القوة في القالب، حتى اكتفى ثم أخذ سلكا معوج الرأس كالعصاة وأدخله في خرم المفتاح وانتشله بسرعة مع قليل من المرونة.

أما جود فقد تألق في إنجاز مهمته فبعد ان استسمح بلطف صاحب المحل قائلاً:

أعتذر سيدي على الإزعاج أعلم أنك أغلقت المحل وأنتك منهك الأكتاف والجسد، وكل ما تصبو له روحك هو أن تستلقي على السرير، لهذا سأحاول أن لا أجعل يومك أكثر صعوبة فهلا تلطفت وبعثني قنينة سودا وكيسين من الشكولاتة من نوع



ضحك صاحب المحل ثم قال: لم تكن مجبرا على سرد هذه المقدمة العريضة من أجل قنينة صودا خذ ما أنت بحاجة إليه بسرعة، فأنا مرهق وأريد العودة إلى منزلي في أسرع وقت. اقتنى جود قنينة الصودا وكيسين من الشكولاتة وتقدم إلى صندوق النقد وهو يقول ببلاهة مع وجه أبلد: يا إلهي كم أحب هذا النوع من الشكولاتة وأراد فتحها قليلا كي يقتني بعض الكريات ليلتئمها لكنه بخبث تعمّد فتح الكيس فتحة كبيرة لتتساقط الكريات كالبرد على أرضية المحل متناثرة هنا وهناك فربض على ركبتيه وهو يصيح آسف، آسف سيدي كم أنا غبي أخرق!! لا عليك سأجمعها كلها في طرفة عين.

لما انتهى جوليان من أخذ بصمة المفتاح غادر محدثا صوتا، فهم منه جود أن صديقه قد أتم مهمته بنجاح.

وقبل أن يشتد غضب البائع الذي اقترب صبره من منتهاه، وثب جود بسرعة وأعطاه المال وخرج مهرولا يتأبط قنينة الصودا ويحمل الكريات في يديه اللتين اصطبغتا بخليط ألوان الشكولاتة: أصفر فأحمر فأزرق...

عجل جوليان السير نحو المكان الذي هياؤه لصقل المفتاح حيث كانت الحجرات الثلاث مجتمعة تراقب الواحدة الأخرى

تتوسطهم أغصان شجر جافة ممدودة الأطراف نحو السماء
تنتظر مصيرها وفوقهم إبريق قهوة قديم أكله الصدا على جانبه
الأيسر يخبئ في طياته مادة الرصاص.

ودون تأنّ ألهب جود نارا عجلت في عاقبة الأغصان وجعلتها
تتساقط جمرا فرمادا، واحتدم لها الإبريق الذي أنّ لانصهار
أحشائه، أما الحجرات الثلاث فاكفت بالمشاهدة والتمتع
بدفء المنظر وانضمّ لهذا العرض أعين جوليان وجود التي
بهجت لرؤية الرصاص الصلب يسيل وتتغير طبيعته.

وما هي إلا دقائق حتى انصهر الرصاص كلّه فلبس جود
نظارات واقية وراح يسكب السائل الفضي في القالب باحتراس
مع خفة يد خوف أن يتصلّب بين يديه، وبعد لحظات قليلة
تغير لون المادة ومالت إلى القتمة وتصلبت فأراد جود تناول
المفتاح، لكن ارتفاع حرارته لسعته فكّبه في بركة ماء صغيرة
كانت تحت قدميه. وبعدهما انتشلاه من الماء لاحظا تحديبا في
باطنه وشوائب على جوانبه.

فقال جود:

لا أعتقد أن المفتاح يلج القفل وهو بهذا الشكل.
أخرج جوليان مبرد أظافر صغير اقتناه مع علبة الخواتم وهو

يقول:



لا عليك يا جود سنحاول تقويمه بهذا.

وبعد الانتهاء من صقل المفتاح ونزع كل ما شابته، والتأكد من نجاح العملية افترقا وأخذ كل طريقه نحو منزله.

اتّجه جود نحو سكون وحزن وخلوة غرفته، أين استأنس منذ مدّة بمجالسة أقلامه ورسوماته، فقد اعتاد فيها رسم كل موقف يترك أثرا في نفسه ومن بين تلك الرسومات لوحة رسم فيها نفسه بوجه تعيس وحذاء قديم ضاحك ولوحة رسم فيها وجه ذلك الشيخ وفرحته حينما تصدّق عليه بالمال، ولوحة تلك المرأة الفقيرة بشعرها المنكش وثيابها البالية...

أما جوليان فقد وضع سماعات الأذن مشغلا موسيقى صاحبة كعاداته، واتجه بخطى متناقلة نحو جحيم كل ليلة نحو صرخات والده الثمل وشتائمه وعنفه المتكرّر دون انقطاع تجاه زوجته، فمواظبته على الشرب يوميا جعل هذا الكابوس غير منته كمسلسل نيران الحب الأبدي.

دخل جوليان المنزل وسكون المدافن يخيم عليه فأدرك أن والده لم يرجع بعد، فاتّجه إلى المطبخ فوجد والدته جالسة على الكرسي واضعة خدها على كفّها كثيبة الملامح، ترنو بمقلتيها نحو الثلاجة بنظرة بعيدة بعد سعادتها وعميقة عمق آلامها، كانت جالسة كالجماذ لا حركة ولا روح في جسدها.

جسدها الذي تزيّن ببقع زرقاء وبنفسجية وكأنها لوحة فنية
طرزت على جدار من فسيفساء... علا صوت شهيق وزفير البرمة
المتواصل وصرير أسنانها تحتك جراء تصاعد البخار ليقطعه
صوت جوليان:

أجذك ساهمة شاردة يا أمي، ليستطرد:

وما هذه البقع الزرقاء على ذراعيك هل ضربك مجددا!؟

لا عليك يا بني تعودت روعي على هذا العذاب فلا تكثر
لأمرنا أنا والدك.

كيف لا أكرث يا أماه وأنا أراك تتعذّبين دون انقطاع أتريدين
منه أن يقتلك وأمسي أنا دون أم، وأب في السجن.

وماذا تريدين أن أفعل يا بني هذا ما قدّر علي وما كتب لي!

قدرك في يدك يا أماه أنت من تتحكمين فيه، دعينا نرحل
بعيدا عن هذه الحياة الشقية لنبدلها بأخرى هنية.

نرحل! وإلى أين ومن سيطعم أفواه إخوتك المفتوحة كأفواه
العصافير؟ ومن سيدفع ثمن دراستك وأنت على أبواب شهادة
الباكالوريا ومصاريفك ستزداد حينما تلتحق بكلية الهندسة.

أنا يا أمي سأدرس وأعمل وأتي بالمال ولو نحتّ أنفاقا في
الجبال.

تمسك الأم الرزوم بيد ابنها ثم تقول:



أعلم يا بني أنك على قدر المسؤولية وثقتي فيك وفي سداد فعلك لا حدود لها لكنك لست أنت المخوّل بالتضحية، فمستقبلك أمامك أنا من يجب عليها التضحية بما تبقى لي من عمر، لهذا أطلب منك أن تركز في دراستك وأن تبرع وتتفوق فيها فأمنيتي أن أراك في مكتب كمكتب الوزير في هيبته، عدني يا بني أن لا تذهب تضحيتي سدى عدني أن تكون أحسن مهندس في الدنيا.

دمعت عينا جوليان وشفثاه تتحرك مرّدة:

أعدك أن أكون فخرا لك يا أمي، أعلم أن نجاحي وتفوقي لا يساوي دمعة حزن واحدة تسقط على خدك ولا صرخة ألم واحدة يطلقها جسدك، لكن ثقني أنني سأفعل المستحيل كي أجعل حياتك كالأميرة وخذك ستكونين أميرتي وسأفعل المستحيل كي أجعل حياتك فردوسا فوق الأرض.

ابتسمت الأم ابتسامة حزينة وتضاربت الأحاسيس في ذهنها. فكلّما ابنتها أفرحتها وأعطتها القليل من الطمأنينة، وفي نفس الوقت تأسفت على حال صغيرها إذ تمنّت لو أن له حياة طبيعية بأمنيات مراهق عادي بدل هذا الحمل الثقيل الذي أرهق كاهله. ثم نهضت واتجهت نحو القدر لتكتم أنفاسه فأطفأت النار عليه، ورجعت إلى الطاولة حاملة معها أربعة صحنون جميلة

مزخرفة بزخارف فضية وألحقتها بأربع معالق وأربع شوكلات
ومثلهم سكاكين براقعة من الطراز الفخم، والتفتت بلطف
ومسحت على وجه جوليان وطلبت أن ينادي إخوته الصغار.
فالساعة تشير إلى الثامنة والربع ليلاً، إنه وقت العشاء.

جلست الأم وأولادها الثلاثة يأكلون في صمت وفي عجلة
كي يرجع كل إلى غرفته متفادين نظرات ورائحة شخص غير
مرغوب فيه.

أما الأم فقد وضعت الأواني والأشواك والسكاكين في الغسالة
الأوتوماتيكية، ومسحت غطاء الطاولة المطرّز الذي تفوح منه
رائحة عطرة، ثم وضعت عليه صحنًا وشوكة وسكينة، وأطفأت
الضوء وجلست في عتمة الصالون تتفرج على التلفاز دون أن
تعير اهتماماً لما يبث فيه.

نزع جوليان سمّاعته على وقع صوت كركبة غريبة في درج
المنزل ليرمي بعينه نحو الساعة فيجدها تشير إلى العاشرة
والنصف ليلاً، فعلم أن والده قد رجع إلى المنزل فأرجع سمّاعته
دون أن يأبه لأمره، لكن صراخ والدته شدّه فخرج على أطراف
أصابعه ليستكشف الأمر.

نظر الابن مشرباً إلى الدرج فذهل لهول المشهد، ثم قال

مرتعداً:



ماذا تفعل يا أبي؟

هنا استيقظ الأب من سكر غضبه فوجد في يده سكينه وقد همّ بذبح زوجته لولا أن سمع صوت ابنه ليطلق سراح زوجته في الحال، فخرّت أرضاً دون حراك مشلولة الأرجل من هول الموقف.

ثمّ طلب من جوليان أن ينزل إلى الصالون ويجلس على الأريكة وينظره.

جلس جوليان على الأريكة يرتعش خوفاً لما قد يحصل لأُمّه فوق في الدرج، وما قد يحدث له هو بعدها هنا، وكانت تلك الدقائق التي انتظرها طويلة طول الدهر، ولما سمع خطوات والده تتقدم نحوه تسارعت نبضات قلبه إلى أن دخل الأب حاملاً السكين، فرمقها جوليان بنظرة فوجدها براقه لا دم فيها فاطمأن قلبه، وزاد طمأنينة لما وضع الأب السكين وأجهش بالبكاء وراح يبحث عن أعذار يبرّر بها تصرفاته ويقص عليه عذباته ومعاناته وكأنه هو الضحية لا هم.

والابن ينظر إلى والده نظرة باردة لا مشاعر فيها، فلا دموع الأب أثرت فيه ولا تبريراته أقنعتة، جلس فقط يراقبه دون أن يبدي أية عاطفة أو يحسّ بشفقة.

أما الأب فازدادت حالته سوءاً وانهارت نفسيته أكثر بسبب
اللامبالاة التي أبدتها عينا ابنه، فأمسك بالسكينة مرة أخرى
وهمّ بقطع شرايينه.

ولكن نظرة جوليان لم تتغير ولم يعط أي اهتمام لما قد
يقدم عليه والده، بل المؤسف أن الابن تمنى رؤية والده ممزق
الشرايين غارقاً في دمه.

لكن الأب جبن بعد أن لامست برودة السكينة حرارة شرايينه
فتجمد كالتمثال دون حركة.

وبعد برهة من الزمن وبعدهما تأكد الاثنان أنه لا شرايين
ستقطع ولا دم سيسفك، نهض جوليان واستقام ثم رمى والده
بنظرة فيها احتقار وكان لسان حاله يقول:

أعلم أنك أجبن من أن تقتل نفسك فأنت بطل جبار إلا على
من هم أدنى منك قدرة.

ثم مدّ يده إلى السكينة وانتزعها من يد أبيه ووضعها في
مكانها، ثم اتجه نحو أمه التي ما زالت خائرة القوى منكبة
على وجهها في الدرج فاحتضنها وغمرها بعطفه وحنانه وقادها
بصعوبة نحو فراشها...

وبقي الأب منكس الرأس مستصغراً نفسه ومحتقراً روحه
بعد أن فشل في استعطف ابنه وراح يعذب نفسه بكلام قاس،



فكمية العذاب التي نالت جسد زوجته واستحوذت على نفسية ابنه لم تنتهي بعد، فلا بد أن تنال منه هو أيضا كي يذوق من نفس الكأس، فانها على نفسه بالشتم والذم قائلا:
مالك منكس الرأس كالمجرم الممسوك بجرمه متلبسا، ها أنت وحدك في الغرفة أمن نفسك تراك خجلا؟
لا تخجل وارفع رأسك أمامها فهي أذل وأحقر من أن تستحي منها.

فهي مستصغرة مهانة لا قيمة لها مثلك تماما.
ارفع رأسك وانظر في المرأة لترى مدى دمامة وجهك وبشاعة مظهرك وكراهة رائحتك.
وانظر من حولك لترى قبح صنيعك في أقرب الناس لك!
ما ذنبهم كي تعاملهم وحدهم بهذه القسوة؟
أذنبهم أنهم أهلك؟ أم خستك ووضاعتك خوَّلت لك أن تستضعف أقرب الناس لك وأسترهم وأبعدهم نظرا عن المنتقدين والمتكلمين والشاكرين والحاكمين على الناس بمظاهرهم لا بأعمالهم.

فالمفارقة هنا أن الأب كان حسن الخلق خفيف الظل طيب المعاشرة، صاحب نكتة مع من حوله خارج المنزل طبعاً فقد كان مع الغرباء هادئاً رقيقاً كخير ماء ينزل بلطف من سفق

جبل، وكان مع أهله قاسيا جبارا كئارا تتلظى تقذف بعنف
حممها.

* * * * *

يعتبر الاحتقار والتكبر على الضعيف من أقبح المثالب
وخليقة ذميمة تحط من شأن صاحبها وتنفر الناس منه.
فيحتقر الغني الفقير وينظر له بنظرة دونية وكأنه خلق
من سائل الذهب لا من ماء الرجال ككلا خلق الله، أو ظنا
منه أن ماله سيخلده أو سيدوم له قطعا، فليس أغنى من
غني آمن الفقر ولا فقير آيسر الغنى.

قد تكون وفقت في تحصيل المال لكن لا تنس أن غيرك
قد حصل ما دونه من خير، فمن الحمق أن تحصر الخير
كله في المال، فأنت مثلا في هذه الحالة فاتك الكثير من
الخير وعجزت عن الاستكثار من الأخلاق.

ويحتقر السيد المسود فيتعالى على الناس بمنصبه
ورئاسته ظنا منه أنه بهذا سيحافظ على هيئته ومكانته،
مع أنه لو عامل رعيته باحترام وودّ لدام ملكه ولقويت
شوكته بأهله وعشيرته، فرعاع القوم تشتري ذممهم
بأبخس الأثمان لكن وقت الشدة ينفضوا من حولك



ويخونوك، وكرام القوم تشتري أنفسهم بعدلك واحترامك
لهم ووقت البلاء بأرواحهم يقدوك.

ويحتقر العالم الجاهل فيستهزئ به ويحط من قدره
ويتعالم عليه ليشبع نقصا في نفسيته، فيعاملك من أدنى
منه معرفة دون أي لباقة.

العلم خير لكنه دون أدب شرّ لا فائدة منه.

ويحتقر المهتدي الضال، هنا تتساوى الخلائق قاطبة
فكلنا ضال ومهتد في نفس الوقت فأنا مهتد في نظري
وضال في نظرك.

تراشق الناس فيما بينهم نظرات الاحتقار، فاحتقر
المؤمن الكافر واحتقر الكافر المؤمن واحتقر اليميني
اليساري واحتقر اليساري اليميني واحتقر المدني الريفى
واحتقر الريفى المدني... وغاب عن أذهاننا أنه لو احترم
كل منا طبيعة وفكر الآخر، أو حتى احترمنا إنسانيتنا التي
اشتركنا فيها لاختلفت كثير من المشاكل بين الشعوب.



الفصل السابع



بعد أسبوع من صقل المفتاح وبعد معاينة وحراسة وقليل من التردد والخوف قرّر الصديقان أن يتمّ المهمة الليلة. فها هي الساعة تشير إلى السابعة ليلا وصاحب المحل يسدل الستار الحديدي ويهم بالرحيل، وها هما الصديقان يتواريان وراء موقف الحافلات ويشيعانه بأعين خاشعة إلى سيارته، وبعد أن اختفى خلف المباني انطلق اللصان في ثبات ووقار نحو المحل وفتحاه بأريحية وكأنه ملكية خاصة لهما ونفذا إلى الداخل بسرعة البرق ودون أية ملاحظة، أخرج جوليان كيسا كبيرا وانقضّ كالقط الغرثان على علب الحليب وكل ما يتعلق بالأطفال الرضع من حفاضات ومواد تنظيف.

أما جود فانطلق بخفة رجال النينجا نحو صندوق النقد ليسطو على ما فيه من مال، ولما فتحه لم يجد فيه إلا بعض الوريقات بقيمة 5 يورو وورقتان فقط من قيمة 10 يورو فأخذهما وخيبة الأمل بادية على وجهه، ثم همّ بالانصراف ولكن صوتا مزعجا شدّ انتباهه انبعث من الأرضية لما خطى خطوتين فتذكر أن لصاحب المحل عادة غريبة.

كان كلما وصل إلى هذا المكان بالذات يطيل خطوته بعض الشيء، وكأنه يريد تفادي شيء، فربط جود بين الملحوظتين وعلى إثر هذا الربط جثى على ركبتيه يتفحص الأرضية ويتلمس



منطقة الصوت كطبيب يعاين مريضه فانتبه إلى أن جزءاً من الأرضية الخشبية يتحرك فاستعان بآلة حادة وجدها على الرف، فانتزع به ذاك الجزء فإذ به يعثر على صندوق حديدي صغير فتحه فوجد فيه رزمة من الأوراق النقدية كلها بقيمة 50 يورو فاستولى على كل ما فيها وتركها خاوية كجوف رضيع يأن جوعاً.

ثم توجه نحو صديقه يتفقده فوجده ملاً الكيس بأجود أنواع الحليب والحفاضات وما هي إلا دقائق معدودة حتى غادر الصديقان المحل محملان بأكثر مما توقعوا.
قل لي يا جود كم وجدت في صندوق النقد؟
أربعون يورو تقريباً.

فقط!! يا لا الخيبة أكل هذه المخاطرة وكل هذا التعب وكل هذا الخوف من أجل مبلغ زهيد كهذا؟

فرمقه جود بنظرة ساخرة أو قل ابتسامة متهكمة، ثم قال
لكني وجدت مخبأً سرّياً في الأرض عند صندوق النقد.
وماذا وجدت فيه؟

وجدت علبة حديدية صغيرة.
وأين هي وما وجدت بداخلها؟
لم أجد إلا هذا.

ثم أخرج رزمة الأوراق النقدية وعلامة الفخر ترسم على وجهه.

يا إلهي إن كل الأوراق بقيمة 50 يورو! كم المبلغ يا ترى؟
لا أدري لم أعدهم بعد، حينما نبتعد قليلا ونتوارى عن الأنظار
سنعدهم عدًا ونرى على أي أساس سيتم تقسيمهم.
دخل الصديقان إلى مبنى تم اختياره من قبل ووضعوا الكيس
أرضًا.

وبدأ في عد النقود ورقة ورقة فوجدوا خمسين ورقة بقيمة
خمسين يورو وخمس ورقات بقيمة خمسة يورو وورقتين
نقديتين بقيمة عشرة يورو، فالمجموع إذا هو ألفان وخمسمائة
وخمس وأربعون يورو.

فاتفقا على أن تقسم الغنيمة على ثلاث، قسم يذهب للفقراء
وقسم لهما وقسم يوضع جانبا يستعمل في تجهيز عمليات
أخر.

وأخذ كل واحد منهما نصيبه واحتفظ جود بالمال الذي
سينفق على العمليات القادمة.

وأما المال الذي سيوزع على المحتاجين فقد لفّ نصفه في
ورقة ووضعها في الكيس مع الحليب وكتبا عليها التالي:



وصلنا خبر أنك في حاجة وعوز فتقبلي منا هذه المساعدة
البسيطة ووقع في آخر الورقة:

VAGA

ثم وضعنا الكيس أمام باب السيدة الفقيرة، طرقاه واختبأ في
مكان يستطيعون منه رصدها من حيث لا تراهم.
فتحت المرأة باب شقتها فلم تجد أحدا فاشترأت برقبتها
باحثة عن الطارق فلم تعثر ولو في طيف له، فرنت برهة
للكيس وعلامات الحيرة بادية على وجهها ثم بركت وثنت
رجليها لتلتصقا بصدرها ورمت بصرها داخل الكيس وراحت
تقلّب ما بداخله كي تعقل ما يحدث وتعرف لمن هذا الكيس،
وما قصته؟ فوقعت عيناها على الورقة فالتقطتها وقرأت ما فيها
ثم تحسّستها ثم بعد ذلك بسطتها كي ترى ما بداخلها فسرّ
بصرها لما رأت زخرف تلك الأوراق فتدفقت دموع الفرح من
عينها وتطايرت أمارات البهجة من حولها حتى طالت وجها
الصديقين اللذين امتلأت مهجتهما غبطة وفخرا واعتزازا
بصنيعهما دون أن يحسّا ولو لوهلة بندم أو أسف تجاه صاحب
المحل.

أما المرأة فلم تفهم في بادئ الأمر توقيع جود واعتقدت أن
VAGA اسم جمعية خيرية تعمل على مساعدة المحتاجين،

إلى أن وصل إلى أن نما إلى ذهنها تكرار حوادث من نفس النوع وبنفس التوقيع. ذاع صيت هذه العصابة في المدينة وتناقلت أخبارهم الألسن وتسامرت العائلات بحكاياتهم وبطولاتهم وتسابقت الصحف على نشر سرقاتهم، وحشدت شرطة ليون كل إمكانياتها لضبطهم متلبسين، أما المستفيدين من مساعداتهم وصدقاتهم من الفقراء والمعوزين ودور الأيتام والجمعيات الخيرية فكانوا يدعون لهم بالبركة ولا يذكرونهم إلا بالخير.

أما العصابة فقد عظم شأنها وامتدت أطرافها بزيادة عدد أفرادها وكمال هرم مؤسستها، نعم هي مؤسسة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

مؤسسة بقوانينها الداخلية وبحسابتها البنكية وبرئيسها وعمالها حيث كان هرم العصابة كالتالي:

جود رئيس دائم والعقل المدبر.

جوليان نائبه الذي ينوب عنه وشريكه في القرار.

وتحتهما مجموعة الأربعة المقرّبين، ريان الملاكم البطل الذي توقفت مسيرته بسبب كسر في معصمه وأصبح مدرب أطفال في حي فقير من أحياء مدينة ليون، كان رجل يهابه الجميع ويحترمون فيه وقوفه مع المظلومين.



فلاذيمير خبير الأنفورماتيك والانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، كان هاكرا مشهورا على الشبكة العنكبوتية يسرق بطاقات البنوك ويوزع أرقامها مجانا على الفقراء.

ليا الأنيقة الرشيقة التي تسحرك بجمال عينيها الآسيويتين لتنسيك خفة يديها، سرقت ذات يوم محفظة جود فتبعها ليرى ما تفعل فوجدها في آخر اليوم تشتري أكلا وشربا وتصدقه على المتشردين.

رافاشول هذه كنيته ولا أحد يناديه باسمه الحقيقي شاب أنارشيست ضد كل القوانين الوضعية أو الدينية، التقى به جود في إحدى المظاهرات، فوجد فيه شجاعة وإسارارا وقوة شخصية ومبادئ قل ما نجدها تجتمع في شخص واحد.

وفي المرتبة الهرمية التي تليهم الأيادي الخارجية: لكل واحد من هؤلاء خمسة مساعدين، تحت إمرته أطلقت عليهم العصابة اسم الأيادي الخارجية.

لماذا الأيادي الخارجية؟

لأنه لا علاقة مباشرة لهم برأس العصابة فهم على علاقة برئيسهم المباشر فقط لا غير، ولا أحد من مجموعة الخمسة له علم بوجود مجموعة أخرى ولا طبيعة عملهم، ولا ما وكل لهم من عمل.

وأخيرا في القاعدة التحتية للهرم نجد بعضا ممن ساعدتهم العصابة، فهذا كان مريضا فداوته والآخر كان بلا منزل فأوته... فأصبحوا جنودا لها تستعين بهم بطريقة أو بأخرى.

وقد تمّ اختيار كل شخصية بعناية وبمواصفات ومميزات محددة خصيصا لأكبر عملية سطو في القرن.

بينما كان رأس جوليان منغمسا تحت الوسادة يغط في نوم عميق، تعالت رنات هاتفه الجوال حتى اخترقت وصادته وتغلغلت حتى لامست طبلة أذنه، فأفاق ساخطا فاتحا عينا ومغلقا أخرى يتمتم بكلام لا يفهم أوله من آخره واحتدم غيظه أكثر لما رأى الساعة تشير إلى الثالثة والرابع صباحا، فعلق على المتصل دون أن يأبه لمن هو، وغطس برأسه مرة أخرى تحت وصادته. بعد هنيهة أضاء هاتفه مرة أخرى ورنّ رنة خفيفة مع ارتعاشة عنيقة معلنا وصول رسالة صوتية، ثم خفت ضوءه مرة أخرى ليتركه بسلام، حاول جوليان يائسا النوم مرة أخرى دون جدوى فقد أزاح الفضول عنه غطاء الوسن وأغار على عينيه ففتحهما فتحا مبينا، فتدحرج على سريره وأمسك هاتفه ليطلع على اسم المتصل به فانتفض جالسا وأصابعه ترتجف فزعا محاولا بصعوبة التحكم بهاتفه حينما رأى اسم والدته مدونا على شاشة هاتفه.



ابني الحبيب أنا في المستشفى.
مستشفى! أي مستشفى يا أمي؟ هل أصابك مكروه؟
لا يا بني أنا بخير لا تقلق علي.
وماذا تفعلين في المستشفى إذا؟ هل إخوتي بخير؟
نعم كلهم بخير يا ولدي.
أبوك يا بني من في المستشفى منذ أيام.
ردّ جوليان على أمه بسكوت وبكلام دون كلام وأجابته بنفس
الصمت في بادئ الأمر، سكون يخبئ في طياته هيجانا وعصيانا
من جهة، وحزنا وألما في الطرف الآخر.
فقد تمرّد الابن على والده بعد تلك الليلة المشؤومة وهجر
المنزل العائلي أشهر قليلة بعد حصوله على شهادة البكالوريا
وقطع كل علاقة تربطه بوالده، ووفاء لوعده أمه أصبح مهندسا
بارعا ذا سمعة ومكانة رغم صغر سنه، وشيّد منزلا جميلا
وكبيرا يتسع لكل عائلته فقد خصّص غرفة لكل واحد من
إخوته وجناحا كبيرا جميلا مطّلا على حديقة تكتسي بالخضرة
مليئة بالأزهار والورود، لكن هذا الجمال والزّونق كان بلا روح إذ
ينقصه إطلالة الأم البائسة فقد قابلت طلب ابنها بالرفض حين
ترجّأها أن تنهج نهجه وتهجر بدورها زوجها، فتأجّج غضبه
بسبب هذا القرار وفترت العلاقة بينهما، حيث لم يستوعب

دواعي رفضها وتمسّكها بالبقاء مع ذلك الكلب اللعين!
 نعم للأسف كان هذا هو نعت الابن لوالده فقد كان لا يفوت
 فرصة لشتمه ونعته بأقذر الألفاظ، ويبين لكل مدى كرهه له
 بل كان يخلق فرصة للكلام عليه، كي يخرج ما بداخله من
 غلّ وكره.

وبعد ذلك الصمت والسكون أردفت الزوجة الوفية قائلة:
 أبوك في حالة حرجة جدا والطبيب لمّح لي في آخر لقاء بأنه
 في المرحلة الأخيرة من المرض، وأنه لم يبق له الكثير ليعيشه،
 فالوقت إذا ليس وقت أحقاد وضغائن، فمهما كان هو والدك.
 أعلم أنك قضيت مراهقة صعبة وذكريات سيئة لكنني متأكدة
 أنّك ما زلت محتفظا بأوقات جميلة في ذاكرتك جمعتك به
 قبل أن تنقلب حاله وحالنا معه.

أنهت الأمّ موعظتها بكلمات رقيقة ملؤها الحب والحنان
 والتقدير، مبدية احتراماً لأي موقف يتّخذه.

أما جوليان فقد رمى بهاتفه على سريره وأشعل سيجارة يطفئ
 بها أجيح وغليان مشاعره المتضاربة والمتناحرة، وحبوبات دمع
 تنزل كرها على خده وبرغم المقاومة الكبيرة ورغم علو سد
 كبريائه إلا أنه فشل فشلا ذريعا في صد دموعه وإيقافها فانهار
 ثم انهمر سيل من عينيه جرف كبريائه وكرهه وغضبه من



أبيه، فلم يبق إلا وهو يجري لاهثا في ممرات المستشفى باحثا على غرفة والده.

لما دخل جوليان إلى الغرفة التي يرقد فيها والده ذهل لهول ما رأى:

مستحيل أهذا أبي؟ أبي الجبار العاتي الذي كان كالجبل في سموحه وكالزّعد في صيحة غضبه، أراه اليوم هزيلا ضعيفا لا يقوى على الحركة ولا الكلام.

لَمَّا جلس جوليان أمام والده أمسك بيده فاستدار الأب بصعوبة ونظر إليه نظرة عابرة غير مبال معتقدا بأنه ممرض. أبي هذا أنا جوليان.

آه جوليان ولدي العزيز كيف حالك أجات بك أمك؟ كم الساعة؟

إنها الرابعة والنصف صباحا يا أبي.

ولم لست في سريرك يجب أن تخلص إلى النوم، عندك مدرسة غدا صباحا.

مدرسة! أي مدرسة يا أبي؟

آسف بني لم أستطع أن أشتري لك الخبز بالشكولاتة ككل صباح، فأنا عليل كما ترى هيا يا بني اذهب إلى فراشك وأعدك أول ما أستعيد صحّتي وعافيتي سأحكي لك القصص

التي تحب.

قال الأب هذا ممسكا يد ابنه ثم أرخى عينيه وطأطأ رأسه ونام، أما جوليان فبقي دون حراك في حيرة مما سمع حتى أحسَّ بيد تمسح بلطف على كتفه فاستدار فوجد أمه تحمل فنجان قهوة بلاستيكي كانت قد اقتنته من ماكنة المشروبات الموجودة في الطابق السفلي من المستشفى.

إنه يهذي يا بني، استفاق اليوم صباحا على هذه الحال وكأنه يعيش في الماضي البعيد، فقد شطب عشرين عاما من حياته وكأنه يتنصّل منها، ثم أردفت: أحسنت الفعل بقدمك، خفت أن يذهب دون ان تلتقيا مجددا.

كانت هذه آخر كلمات الأب فقد وقع في غيبوبة لمدة يومين ثم أسلم روحه، وها هم اليوم يحضرون مراسم الدفن، فقد وصلت للتو سيارة حمل الموتى ونزل منها أربعة رجال ضخام الجثة يرتدون بدلة رمادية غامقة ومعهم فتاة قصيرة ترتدي السواد أما النعش فكان مغلقا يحوطه باقات ورد، طلب من الجميع الوقوف وراء السيارة وكان الصف الأول للأقربين، زوجته وأولادها وإخوته وتبعهم الأصدقاء والمعارف ومشى الكل خلف السيارة التي توجهت ببطء نحو القبر في صمت



مهيب لا تسمع فيه إلا حفيف الأشجار وزقزقة العصافير وشهيق
الباكين.

لما وضع النعش على حافة القبر تقدّم القسيس وألقى
موعظته وبارك الميّت، ثم طلب إن كان لأحد الأقارب كلمة
يلقيها، فتقدم جوليان خالي الوفاض لا يحمل شيئاً بين يديه
وقال بصوت ضخم جهوري:

أبي العزيز كما ترى يداي فارغتان، لم يتسنّ لي تحضير
خطبة تأبين لأن الموت اختطفك من بيننا دون سابق إنذار.
أبي العزيز ماذا عساي أقول! كنت أظنّك أقوى بكثير من
هذا فلطالما رأيت فيك ذلك الرجل الجبار ضخم الجثة الذي
كان يفرض على الناس احترامهم له بشخصيته القوية وإن لزم
الأمر بعضلاته.

يقول هذا مبتسماً لاستحضاره صورة لوالده وهو يلطم رجلاً
أرداه أرضاً لقلّة احترامه.

أبي العزيز في الأعوام الماضية كلّما ذكر اسمك أمامي كنت
أنعتك بأبشع الأوصاف، لكنني كنت أجهل أن قلبي كان ينبض
بأسمى أحاسيس الحبّ تجاهك، وحينما كان ظاهر كلامي
يوحي بأنني لا أريد رؤيتك، كانت مهجتي تصرخ بأعلى صوت
اشتقت إليك أبي.

أحبك أبي، كلمة لطالما تمنيت أن أقولها لك.
أحبك أبي، كيف لا وأنت من غرس في حب الآخرين والسعي
في مساعدتهم.

أحبك أبي، كيف لا وأنت من علمني نصرمة المظلوم ومساندة
الفقير.

أحبك أبي، لأنك غرست فينا كل هذه الخصال والمناقب
الحميدة.

أحبك أبي، كيف لا وقد جعلت أمني تضحّي بكل شيء من أجل
البقاء إلى جانبك، فعظم تضحيتها خير دليل على عظم شأن...
بعد أن عدّ مناقب والده وقصّ بعضاً من مواقفه وطرائفه
أنهى جوليان كلمته وأوماً لعمال المقبرة بأن ينزلوا النعش،
فُلّفَ بحبل متين أدخل في حلقات تحيط به وأنزلوه بلطف في
قعر القبر.

ثم تقدم جوليان وألقى وردة بيضاء كانت أخته قد وزّعها
على الحضور من قبل، ثم نحى الجمع نحوه فتساقطت الورود
تساقط الدمع ليكون مرقده الأخير جنة بيضاء تستريح فيها
روحه بسلام، وسقطت مع تلك الورود نظرات رهبة وخوف من
هذا القبو الموحش الذي هو مصير كل واحد منهم ومع آخر
وردة وآخر نظرة زحزح الأربعة رجال الحجرة على القبر لينفضّ



الكل من حوله تاركين الميت وحيدا.
الميت الذي كان جاحظ العينين يصرخ خوفا فلا مجيب،
يحاول النهوض فلا يستطيع وكأنه بالمسامير مثبت، يرى ابنه
فيفرح مناديا:

ابني الحبيب ماذا يحدث لي؟ لماذا أنا هنا؟
والابن يحدق فيه دون أن ينبس ببنت شفة.
ابني الحبيب أجبني كلمني ردّ علي أرجوك أمازلت غاضبا
مني؟

ينظر الابن لوالده نظرة حنونة ثم يلقي شعلة ضوئية
وينصرف

فيصرخ الأب مجددا: جوليان أين أنت ذاهب عد إلى هنا آه
زوجتي الحبيبة أحمد الله أنك هنا، قل لي ماذا يحدث لي
أخبريني بالله عليك أين أنا؟...

لماذا لا تجيبيني؟

حتى أنت يا من وقفت معي وساندتني حينما تخلى عني
الجميع، ترفضين اليوم مخاطبتي.

ترمي الزوجة بدورها الشعلة المضيئة، وتختفي كي تتوالى
الوجوه الحزينة والنظرات الدافئة والشعلات المضيئة على الأب
دون أن ينال إجابة تشفي غليله وتطفئ نار الحيرة في نفسه.

لتنقطع نظراتهم وتبتعد خطاهم ويخفت صوتهم شيئا فشيئا،
فيطل عليه بعد ذلك أربعة ضخام لا يعرفهم ولم ير وجهوهم
من قبل فرمقوه بنظرة باردة لا روح فيها ولا عاطفة فصرخ فزعا:
من أنتم؟ ماذا تريدون مني؟

فتجاهلوا بدورهم عويله ونحيبه وتوسلاته ولم يكتفوا
بالتجاهل بل دون رحمة ولا شفقة أوصدوا الحفرة وزحزحوا
عليها حجرا كبيرا رتقوا به كل فتق ولحموا به كل شرخ، فلا
هواء يدخل ولا نفس يخرج.

كفاك صراخا يا رجل.

من معي من يكلمني أنت محجوز مثلي؟ أين نحن قل لي
بالله عليك.

إنه قبرك ولا بد أن تتعودّ عليه فمقامك هنا سيطول.

قبري عن أي قبر تتحدث؟

نعم قبرك فأنت ميت وأنا محجوز هنا معك.

إذا كان قبري فمن أنت إذا ومعلوم أن الإنسان يدفن وحده؟

فأمسك شعلة ضوئية وأكبّ عليه فإذا به شاب في مقتبل
العمر وسيم الملامح حسن الصوت رائحته تفوح عطرا ثم قال
مجيبا:



أنا صنيعك وأنت من أوجدني ومن العدم خلقتني وبأول
صرخة وابتسامة سويتني ومع أول برٍّ وخطيئة أنشأتني وكبرت
واشتد عودي بلقَم أعمالك خيرها وشرّها وذكرياتك حلوها
ومرّها لهذا سأكون رفيقك وقرينك الأبدي، نعم أنا عملك
المتجسّد صالحه وطالحه!. ثم اختفى.

فأيقن الأب أنّه ميّت وما كان يراه ما هي إلا مراسم جنازته
فبكى وراح يسترجع شريط حياته وما قدّم فيها فتوقف به
الشريط وهو سكران ثمل يضرب زوجته ضربا مبرحا ويعنفها
بأبشع الألفاظ.

يا إلهي لم فعلتُ هذا أتراها سامحتني؟

فأطل عليه مطبقا على أنفاسه، شيخ قبيح دميم الوجه كريبه
القم ماسكا في يده شعلة.

فصرخ والخوف يتملكه من أنت؟

فأجابه بصوت جهير يسمع الصم واللعب يتسائل من فمه
قلت لك أنا عملك صالحه وطالحه!

أما جوليان فقد لوى رقبتة قبل أن ينصرف ملتفتا في كل جهة
ثم استدار وقال لوجود أين هم أصدقائه الذين كان يتركنا من
أجلهم ليقضي معهم كل ليالي نهاية الأسبوع؟ ليلعب معهم
لعبة البوكر اللعينة؟ فأنا لم أرهم لا في المستشفى ولا هنا اليوم

في المقبرة ثم سكت وأردف:

قل لي يا جود هل هناك جديد على العملية المقبلة؟
فكّر في أمك وإخوتك الآن ولا تشغل بالك بغيرهم، على أيّ
حال لقد أجلت موعدها لأجل غير مسمى.

أجلتها! ولم؟

أنا بصدد تجهيز عملية أخرى.

أيّ عملية وما نوعها؟

قلت لك لا تشغل بالك سأطلعك عليها في الوقت المناسب،
فهي الآن قيد التنفيذ فعلا، فقد بدأت نسج خيوطها وتهيّأت
الأرضية بإرسال خلية تفسح لنا المجال، وستكون هذه العملية
هدية وداع للمرحوم والدك سأتصل بك بعد أيام، ابق أنت مع
عائلتك فهم بحاجة لك، وحاول أن ترفه عنهم وتخرجهم من
جو الحزن.

نعم سأطلب منهم جمع أمتعتهم لينتقلوا كلهم للعيش معي،
فلا حاجة لبقائهم هناك أنتظر بفارغ الصبر اتصالك لمعرفة
المزيد عن العملية المقبلة فقد شوقتني لسماع تفاصيلها
خاصة وأنها العملية الأولى التي تحضّرها من دوني.

* * * * *



قيل أن الإنسان حين يموت لا يأخذ معه شيئاً من هذه الدنيا إلا عمله صالحه وطالحه، وهذا شأن يهمل الميت وحده لأنه سيُقبر وعمله دوننا، فأول ما يوارى الفقيد تحت التراب تنسى وجوده ولا نهتم بما قد يحدث له في برزخه. فماذا يهمل المجتمع في الميت بعد دفنه إذا كان لا يهملنا ما أخذ؟

أکید يهملنا ما ترك.

ماله؟

لا، هذا يهمل أفراد أسرته ومصحة الضائب الذين سيتقاسمون أملاكه بكل فرح وسرور. أما المجتمع فيهمله ما ترك من أثر قبيحه أو حسنه، فولده الصالح الذي يصلح من حوله أثر حسنه وعلم نافع أو كتاب مفيد أثر حسنه، حكمة تتوارثها الأجيال وتعمل بها أثر حسنه، صدقة جارية يستفيد منها المحتاجون أثر حسنه ...



الفصل الثامن



بعد أشهر قليلة وبعد أن وضع جود خطة محكمة للعملية المقبلة جمع كل عناصر VAGA بما فيهم جوليان وخطب فيهم: أصدقائي الأعزاء كما تعلمون نحن لا نجتمع إلا لوجود عملية وقبل أن أبدأ في شرح تفاصيلها، أحب أن أعزي للمرة الثانية صديق عمري جوليان في مصابه الجلل وأبشّره بأن هذه العملية ستكون هدية لروح الفقيد.

هدفنا المقبل أبر كازينو في أوروبا كازينو موناكو الذي ستجري فيه بعد أيام أكبر مسابقة للعبة البوكر في العالم. والمبلغ الإجمالي الذي سيفوز به الأوائل هو خمسة عشر مليون يورو، يوضع هذا المبلغ على طاولة يراها كل الحضور كي يتم إثارة الأدرنلين في نفوس المتسابقين وإلهاب حماسهم، يحرسه أربعة زبانية غلاظ شداد متدرّبين على الفتك والبطش بكل واحد تسوّل له نفسه الاقتراب من رزمات المال التي تشدّ الأنظار وتشهّي الأنفس وتسلب العقل كما تشاهدون.

وأشار إلى الشاشة وراه ثم أردف:

أترون كل هذه الطاولات الخضراء سنغرس تحت بعضها عدة مسدسات.

فقاطعتها ليا قائلة: كيف سنغرسهم ومتى؟



نعم هذا ما كنت سأشرحه، اعتاد الكازينو على الاستعانة بشركات خارجية لتنظيم المسابقة وتركيب طاولات القمار ووضعها في أماكنها يوماً قبل بداية الدورة، وقد دخلت في مناقصة وبطريقتي الخاصة فزت بها، وبهذا نحن من سيركب الطاوات وسندخل من الباب الخلفي المخصّص للعمال الذي لا يحتوي على جهاز مراقبة ورصد السلاح.

فقاطعه هذه المرة فلادمير: وكيف سنسترجع السلاح من تحت الطاوات يوم المسابقة؟ وبأي صفة سندخل المرة الثانية؟ ليس نحن الستة من سيركب الطاوات يا فلادمير بل الأيدي الخارجية، سأعطي لكل واحد فيكم مخطّط تركيب الطاوات ليراجعه مع مجموعته ومع كل مخطّط طاولة من نفس النوع ليتدربوا عليها، فيتقن كل واحد فيهم كيفية تركيبها.

أما نحن فسندخل كمتسابقين وهذا الظرف فيه بطاقة المشاركة وجواز السفر باسم مستعار وجنسية مختلفة وقبل أن أعطي لكل دوره وجب علينا تعلّم شيء، إتبعوني إذا إلى آخر الغرفة.

حيث كانت هناك طاولة عليها ورق كوتشينة وقريصات القمار الخاصة بالپوكر.

امتعض جوليان لما رآها وتغيرت ملامح وجهه وقلبت عليه
المواجه، فلوى وجهه إلى الجهة الأخرى وسعرت نار الغيظ في
مهجته، فشدّ جود على يده وقال له:
اجلس يا صديقي فهذا وقت الانتقام.

جلس جوليان مكرها يتأتى لا يدري ما يقول وكأن الكلمات
تاهت في حلقه، وبعد أيام من التمرّس على الخطة والتدرب
على اللعبة والاتفاق على كيفية اللعب والاتفاق على الوقت
المحدد لأخذ السلاح، شدوا الرحال كل على حدا إلى مدينة
موناكو الساحرة ليلتقوا جميعا يوم المسابقة.

وكان أول الواصلين رافاشول، دخل مرتبكا بعض الشيء فهذه
أول مرة في حياته يمسك جواز سفر، وزد على ذلك انزعاجه من
ملابسه الأنيقة الضيقة، وفور دخوله لمح من بعيد ليا بمشيتها
الأنيقة ولباسها المثير مع نظارات شمس تآكل نصف وجهها
وقبعة تغطي الآخر، أما ريان فقد كان يرتدي تيشرتا رياضيا
دون أذرع بقبعته التي وضعها على رأسه حيث لا نرى منه إلا
عضلات ساعديه التي رسم عليها وشم ورقتي كوتشينة برقم
اثنين وخمسة، تخاله وشما حقيقيا حتى ولو أمعنت فيه النظر،
أما جوليان فلبس بزة رياضية لفريق إيطاليا مع قبعة على طريقة
أريجوساكي المدرب الإيطالي الشهير، وكان جود آخر من دخل



بنظارات قصر نظارات سميكة وشعر مجعد ممشوط على الجانب بقميص مغلقة كل أزراره، وكي يتقن الشخصية أضاف طقم أسنان تشبه أسنان قندس.

كان الكل مقنعا متخفيا وراء زيه، لكن الجميل في الأمر أن معظم المتسابقين كانوا كذلك فمن حسن الطالع وقوة ملاحظة جود الذي اعتاد الاعتماد على كل صغيرة وكبيرة لصالح خطته - أنه جرت العادة في مثل هذه الدورات أن يخفي المتسابقون ملامح وجوههم أثناء اللعب كي لا يستطيع المنافس قراءة لعبة الآخر، فنظرة بسيطة من عيني الخصم أو إحياء صغيرة قد تخونه وتوحي للغريم بما تخفي أوراقه وتكون سببا مباشرا في إقصائه.

بعد أن تخطى جود الأمن وباب الإنذار وبعد أن أخذ أحد المنظمين بياناته، وتحقق من هويته اتجه مباشرة نحو المراض لا ليقضي حاجته فقط، بل ليسترجع مسدسا صغيرا أخفاه أحد الأيادي الخارجية في خزان ماء أحد المراحيض. ثم اتجه ليجلس مكانه الذي خصص له.

هل كل شيء على ما يرام؟ هل يمكنني إعطاء إشارة البداية؟
يسأل مدير الكازينو.

نعم سيدي كل شيء جاهز هناك مشكلة صغيرة فقط وسيتم حلها في الحال.

ما هي؟

البث المباشر فيه خلل سواء على شبكة الأنترنت أو على التلفزيون وسيتم إيجاد حل له في الحال.

سأطلقشارة البداية وأبلغ المخرج بأن يعاود بثها بعد دقائق في بث غير مباشر.

بدأت المنافسة وتصاعدت أصوات القريصات وارتقت مع الوقت كقمم الجبال أمام البعض وتهاتت خاوية على عروشها أمام الآخرين. وتراشقت نظرات التحدي بين الأعداء، فهذا يبحث عن إمءاءة خائنة وذاك يطلق نظرات ثاقبة تليها كلمات مستهزئة تحط من قيمة ومعنويات المبارز ثم تعلق حماسة المتنافسين في الطاولة الأخرى فتصل نسبة الأدرينالين إلى أقصاها عند ذلك الذي رمى بكل ما يملك من قريصات في وسط الطاولة، فيقف عاضا على أنامله تارة ومغمض العينين تارة أخرى ممسكا رأسه ينتظر الكرت الأخير، ودقات قلبه تتسارع كي يصاب في الأخير بخيبة أمل كبيرة وإحباط مرفق بحزن شديد فيبتعد تاركا الطاولة بعد أن يصفح خصومه ليلقي نظرة أخيرة، نظرة وداع على كومة الملايين التي تبادلها



النظرات بسخرية وكأنها نظرات فتاة فائقة الجمال فاحشة الشراء لمتسكع أيقن أنه لا فرصة له معها.

أما جود فقد كان يلعب باحترافية لا مثيل لها وكأنه ولد على طاولة بوكر، يراقب تصرفات كل من في الطاولة فلا تحدث حادثة صغيرة أو كبيرة إلا لاحظها، راقب كل من هم حوله وخاصة تحرك المنظمين بمن فيهم مدير الكازينو ورصد عن كثب تغير أماكن المتسابقين إلى أن جاء دوره فطلب منه أن يجمع قريصاته ويتبع المنظم فمشى به بين الطاومات إلى أن أوصله إلى طاولة، موزعة الأوراق فتاة سمراء حسناء جميلة المنظر يجلس على يمينها جوليان الذي جعل القريصات على هيئة سلسلة جبال الألب، فهو أيضا قد كان مهيمنا على تلك الطاولة بشكل مبهر وملفت للانتباه ولشدة تركيزه في اللعبة لم ينتبه لوصول جود، فقد كانت نظراته مليئة بالتحدي ليس لخصومه فقط بل أكثرها للعبة البوكر نفسها، وكأن لسان حاله يقول سأهزمك أيتها اللعبة اللعينة.

ولم يلبث جود كثيرا حتى أوما لجوليان إماعة أعلمه بها أن الوقت قد حان، وأنهم في الوضعية المناسبة التي تمكنهم من إتمام مهمتهم على أكمل وجه.

يبدو أنّ الستة أفراد في أماكنهم الخاصة التي وضعها فيهم

الحاسوب، فقد تم قرصنته من طرف فلادمير من خارج الكازينو والذي عمل على إظهار أن عملية تغيير الأماكن عشوائية. فنظر جوليان إلى ورقتيه وقامر بربع ما يملك فرمى المتسابقون أوراقهم الواحد تلو الآخر لغلاء المقامرة حتى وصل الدور على جود الذي نظر نظرة تحدي ثم فكر ثواني عديدة وقامر بعدها بضعف ما قامر به جوليان فشددت العيون واشرأبت الأعناق وتصاعدت آهات الدهشة وعلم الكل أن الصراع سيحتمد بين قمتي الطاولة وانتظر الكل ردة فعل الشاب المطأطي الرأس المتخفي وراء قبعته الذي سكن برهة فازداد فيها شوق المتتبعين ثم دفع بكل ما يملك من قريصات في وسط الطاولة وتمتم قائلًا tapis التي معناها بساط، أي أنه يقامر بكل ما يملك فصاحت الحسنة ذات البشرة السوداء بصوت عالٍ tapis، فاقرب مدير الكازينو ومنظم هذه الدورة ليراقب صراع الجابرة اقرب حاملا مايكرفونا وهو يقول:

بساط بين اثنين من أقوى المتسابقين، لنرى ماذا سيكون رد الشاب الخجول ذي النظارات السمكية؟
 حذق جود مبتسما بمدير الكازينو ثم بجوليان وصاح:
 سأتبع نعم سأتبع



كما توقعنا إنه بساط ليرينا المتسابقان أوراقهما
فأدار جوليان ورقتان للملك ليرمي جود أوراقه في السماء
والكل يتابع بلهفة سقوط الورقتين وفور سقوطهما سكت
الكل وعلامة الحيرة مخيمة عليهم فاقترب المدير ليتأكد مما
رأت عيناه.

ورقتان مكتوب عليهما كلمة VAGA!!!

أهي مزحة ثم دنى مكشرا عن أنيابه غاضبا يصيح قائلا
لسنا في شرك يا ولد كي... ولم يكمل جملته حتى انقض
عليه جود واضعا فوهة المسدس بين عينيه ممسكا برقبة
بدلته من الخلف ثم همس في أذنه لا تتحرك وإلا فجرت رأسك،
فسقط المايكروفون من يديه المرتعشتين ثم قال:
لا تهوريا بني وضع سلاحك جانبا فالمكان يعج بالأمن فلا
حيلة لك وحدك معهم!

فرد عليه بلثغة في السين بسبب الطقم المستعار: لثت
وحدي يا ثيدي، وفي اللحظة نفسها وثب جوليان من مقعده
بعد أن استخرج مسدده من تحت الطاولة وأمسك بالفتاة
السمراء موزعة الأوراق من شعرها ثم وضعه على الطاولة وصاح
قائلا:

ولا حركة وإلا رأيتم أشلاء رأسها متناثرة بدل أوراق الكوتشينة، أما الزبانية الأربعة فقد حوَّطوا المال متأهبين بارزة أسنانهم ككلاب الحراسة شاهرين أسلحتهم نحو العصابة وفي غفلة ودون أن يحسَّ بهم أحد تقدمت ليا وريان ورافاشول خلف رجال الأمن حاملين أسلحتهم وصيحات التهديد والوعيد بالقتل تتعالى.

هنا أيقن مدير الكازينو أن الأمر مدبّر وأنه أمام عصابة منظمة وليس تهور شاب مجنون، فنظر إلى رجال أمنه بنظرات سيد ينتظر من عبّده أن يهبوا لنجدته، وفي الحال تقدمت ليا تحمل كيسا صغيرا بغية تجريد كلاب الحراسة من أنيابها فجردت الأول ثم الثاني فالثالث ولما همت بالرباع باغتها بسرعة محترف، ولوى يدها ووضع فوهة سلاحه على رأسها وصاح ألقوا أسلحتكم وإلا قتلت صديقتكم فشخصت أعين العصابة وصاح مدير الكازينو:

اقتلها اقتلها إن لم يطعك هؤلاء الأوغاد.

فزمجر جود بصوت مخيف: اتركها وإلا فجرت رأسك ثم وجّه سلاحه نحو الفتاة السمراء الجميلة وأطلق رصاصة أصاب بها ساقها ثم صاح: الرصاصة المقبلة في رأس هذا الوغد ففرع المدير وفرع رجل الأمن وألقى بسلاحه أرضا ثم تراجع رافعا



يديه، فانقضّ عليه ريان ولكمه لكمة أردته أرضا ثم قال له ألم يعلمك أبواك كيفية التعامل مع الحسنات، ثم أمسك بيدها وقبلها وقال لها سيدتي هل أنت بخير؟ فانحنت بأناقة أميرة فرنسية وأجابته بابتسامة نعم أيها الشهم.

ثم انكب ريان على المال يجمعه واضعا إياه في كيسين، أما ريان فقد اهتم بجمع كامرات الصحفيين، ثم شرعوا في التفهقر نحو باب الخروج ومعهم المدير كرهينة أولى والفتاة السمراء التي كانت تعرج وتأوه ألما كرهينة ثانية.

وقبل الخروج اتجه جود بالكلام إلى المتسابقين قائلا:

أتدرون شيئا؟ كلكم *des fish* حيتان تؤكل كلّ ودوره وكل ومستواه، فكلكم حوت لغيره وهل تعرفون من هو الحوت الكبير الذي لا يؤكل، هو هذا الذي في قبضتي قالها وهو يضرب بالمسدس على رأس المدير، نعم هو وأمثاله من لا يخسر أبدا إنهم مصاصي دماء يمتصّون دون رحمة مالكم وصحتكم وحياتكم ويأخذونكم من أقرب الناس لكم، أما أنتم فاعلموا أنه مهما ربحتم من مال ستخسروه وتخسرون معه أشياء كثيرة.

كلمة *fish*: هي مصطلح في لعبة البوكر يصف بها اللاعبين

الخصم الذي يسهل أخذ كل ماله فهو حوت يسهل أكله.

لما خرجت عصابة

VAGA

وجدوا سيارة تيسلا عائلية مادة جناحها كطائر يهم
بالتحليق وفلامير ينتظر لابسا لبس سائقي سيارات الأجرة
واضعا سماعة في أذنه وطابلات في حجره استعملها في تعطيل
كل الهواتف النقالة والأرضية لتعطيل وصول الشرطة، ثم ألقى
أخيرا بفايروس أتلّف به نظام تسجيل فديوهات المراقبة والنظام
المعلوماتي بصفة كلية كي يمحو أي أثر لهم، رموا بالمدير في
صندوق السيارة الخلفي وانطلقوا بسرعة الضوء نحو ميناء
المدينة أين كان ينتظرهم زورق سريع استقلّوه على عجلة
وانطلقوا في عرض البحر تاركين السيارة وبدخلها المدير.
تولى ريان القيادة وبعد بضعة كيلومترات استدار فانتبه
لوجود الفتاة الحسناء ذات البشرة السمراء فصاح متعجبا:
ماذا تفعل هذه معنا؟

لماذا لم تتركوها مقيّدة في السيارة كمديرها؟
ثم إنها مصابة قد تموت بين أيدينا وقد تتعقد الأمور!
فابتسمت الفتاة وابتسم فلامير وابتسم معهم جوليان.
أما جود فقد قال ساخرا:
أجدها جميلة وفاتنة لهذا جلبتها معي.



ماذا!!! وأنا من كنت أراك قدوة لنا بالتزامك واحترامك
وصرامتك في تطبيق قوانين ال VAGA!!!
تأتي في أهم عملية و....
كفاك ثرثرة يا ريان ستفهم كل شيء في أوانه.
لدي شعور أن الليلة ستكون ممتعة.
لدي شعور أن الليلة ستكون ممتعة.
الليلة ستكون ممتعة...
إنها الليلة دعونا نعيشها
حصلت على نقودي دعونا ننفقها
اخرج واستمتع لأقصى حد
أفجز من الكنبه وهيا اخرج
املاً كوبي لنستمتع بوقتنا

كانت هذه كلمات لأغنية فرقة «بلاك ايد بيس» دوّت
المكان من حولهم منبعثة من يخت ومعها أصوات شباب
وشابات يلهون ويرقصون على أنغامها.
هيا لقد وصلنا الكل ينزع ثيابه ويبقى بثوب السباحة فقط،
بسرعة ضعوا ثيابكم في هذه الحقيقية، قال جود.

فامتثل الكل حتى الفتاة الحسناء ذات البشرة السمراء، فلمى انتهوا ألقى جود بالحقيبة التي كانت مثقلة بالحديد في البحر. ثم وضع المال في حقيبة مزودة بمادة عازلة للماء وأخرى حديدية لتقاوم التيار وبجهاز ترصد جي بي أس لترمى بدورها في البحر ثم اقتربوا بعد هذا ببطء نحو اليخت، وصعد الجميع. أما الزورق السريع فقد شغلوه وبحيلة ما جعلوه يتقدم، ليبتعد ويغرق بعيدا. بعد أن فجر فيه فلادمير قبلة صغيرة أحدثت ثغرا في قعره ثم ألقى بالتابلات والسماعة في البحر لمحور كل دليل قد يدينهم وانضموا إلى الشباب للدخول في جو اللهو والرقص والشرب، لكن ريان أوقفهم بتساؤلاته.

جود من هذه الفتاة الحسناء ذات البشرة السمراء؟

ولم لا نرى عليها آثار الإصابة؟

ألم تطلق عليها النار؟!

فاستفرد جود بهم بعيدا عن مرأى ومسامع الأيادي الخارجية الذين كانوا على سطح اليخت يتظاهرون بالاحتفال.

أمسك بالفتاة الحسناء ذات البشرة السوداء من يدها وقال:

هذه إنايا بنت السيدة نجولو التي كانت سببا غير مباشر لتشكيل هذا الفريق بهذه المبادئ، فأول عملية سطو كانت لصالح والدة هذه الفتاة الحسناء. وقد تكفلنا برعايتها بعد أن



توفت والدتها هي وأخوها أما فيما يخص إصابتها فهي إصابة مفتعلة غير حقيقية والدم دم مستعار فجره فلادمير عن بعد. أما كيف وجدت هنا فقد تمكنت من زرعها داخل الكازينو منذ أشهر، وهي من سهّلت لنا التسجيلات واخترقت النظام المعلوماتي الذي سمح لفلادمير بالتحكم فيه. وكما رأيتم سهّلت لنا الخروج آمين غانمين بتظاهرها الإصابة وإتقانها لدور المختطفة.

آه فعلا أتقنت دورها بشكل مبهر، فقد صدّقنا تمثيلها.

قالت ليا ثم أضافت آملة:

جميل ستلتحق بنا إنايا إذا؟ فقد سئمت الجلوس إلى هؤلاء الرجال، فقد اشتاقت نفسي لحديث نسوي تافه. هذا ما يتمناه جود لكن إنايا ترفض ومازلنا نلحّ عليها علّها تغيّر رأيها. قال جوليان:

هيا الكل ينضم إلى الحفل وتعاملوا على أنكم شباب في عطلة وتظاهروا باللهو والاحتفال مثلهم فانفض الكل من حول جود وهم يرقصون ويضحكون أما هو فقد صعد إلى أعلى مكان في اليخت وراح يراقب المكان كنمس البرية ولم يلبث إلا بضعة دقائق حتى رأى تقدم زورقين سريعين نحوهما، فتنبأ جود أنهما شرطة الشواطئ فأطلق إنذارا انسجم الكل بعده

أكثر في الحفل وتصاعدت أصوات صيحاتهم وصخب أغانيهم
وتمايلوا كسكارى وما هم بسكارى، وارتضى بعضهم في البحر
ورقص آخرون ولم يبدوا أيّ اكتراث للشرطة حتى بعد صعودهم
على متن اليخت، فقد أكملوا لهوهم ومتعتهم واستهزاءهم
واستفزازهم للشرطة إلى أن قطع أحد أتباع ريان الموسيقى
وطلب من الجميع السكوت كي يفهموا سبب تواجد الشرطة
ثم قدم لهم رخصة السياقة، وعقد كراء اليخت ثم تساءل
متعجبا:

ما المشكلة يا سيدي نحن هنا لنمرح ونتسلى ولم نؤذ
أحدا، فقد أتينا هنا كي نكون في عزلة ونبتعد عن أعين الناس.

فقاطعته الشرطي بوجه كالح:

من أنتم ومن أين أتيتم؟

هؤلاء كلهم أصدقاء بعضهم من مدينة ليون، البعض من
باريس وهم هنا للاحتفال بعيد ميلاد صديقهم.

وأنت من تكون؟

أنا من معارفهم لكني لست صديقا.

وماذا تفعل هنا؟

أنا هنا للعمل فأنا الوحيد من له رخصة سياقة يخت.

أنت هو القبطان إذا؟



ضحك وقال إذا أردت نعم!

وبعد أن طلب من زملائه تفتيش اليخت تفتيشا دقيقا تابع الشرطي وابل الأسئلة على جود ومن معه.

هل رأيتم زورقا سريعا يقل 7 أشخاص تقريبا؟

رأينا الكثير منذ كنا هنا ردّ البعض عليه.

لا، أقصد منذ دقائق.

نعم مرّ غير واحد أيضا، فكما تعلم أنت في الكوتدزير

والسياح والقوارب كثر.

أعلم أعلم ألم يثر انتباهكم أحدهم؟

فرد الجميع بلا إلا ريان قال:

بلى منذ دقائق رأيت زورقا سريعا متجها نحونا وكاد أن

يصطدم بنا لولا أنه قلل السرعة في آخر لحظة وغير مساره

وقد لاحظت شيئا غريبا!

وما هو؟

لاحظت وكأنهم يختطفون شخصا مصابا لكن لا أدري ربما

هو تأثير الكحول.

رائع ومن أين ذهبوا؟

أعتقد أنهم اتجهوا نحو الشواطئ هناك.

لم نجد شيئاً سيدي لقد فتشنا اليخت جيدا ولم نعثر على شيء إلا قارورات الخمر وواقيات ذكورية وأكل، أشياء جد عادية على متن هكذا قوارب.

أحسنتم انزلوا بسرعة سنتجه نحو الشواطئ هناك، وهم الشرطي بالنزول أيضا لكن دما على فخذ إنايا جلب انتباهه فترجع قائلاً:

ما هذا الدم الذي على فخذيك؟

فشخصت أبصار العصابة وذعروا وتسمّرت أرجلهم، ثم تقدم أكثر كي يرى الدم عن قرب فصاحت ليا قائلة:
ألم أقل لك أن تستعملي فوطا من نوع التومبون؟ ها قد أخرجت نفسك بعادتك الشهرية، ورمت لها فوطة لتمسح الدم من على فخذيتها.

أما الشرطي فقد تقززت نفسه وتقهقر إلى الخلف متجها نحو زورقه مبتعدا مع زملائه بسرعة نحو الشاطئ، أما العصابة فقد أسرع للرجوع إلى الميناء أين استقل الكل وسائل نقل عامة ليختفوا في المدينة وسط جموع المواطنين.

بعد هذا الحادث الخطير اجتمع مفتشو شرطة موناكو وبعد بحث وتحريات وجدوا دليلا على الانترنت يربط بين عملية سطو الكازينو بعمليات سطو صغيرة تمت بنفس الاسم



الذي وجدوه على أوراق الكوتشينة لكن في مدينة ليون، لهذا استنجدوا بالمفتش «ميشال مايرام» المفتش العام لمدينة ليون، كي يستعينوا به لعله يفيدهم ببعض المعلومات عن هذه العصابة.

في بادئ الأمر ضحك وسخر من أمر استدعائه لمدينة موناكو من أجل عصابة مغمورة مثل هذه، لكنه سرعان ما غير رأيه حينما اطلع على تفاصيل السطو المسلح، حينها علم وتيقن أن العصابة تطورت أعمالها خاصة لما طلب تسجيلات الفيديو فقبل له أن فيروسا أتلف كل النظام المعلوماتي ونظام المراقبة. ورغم خطورة الأمر وكبر عملية السطو وعظمتها، ورغم اهتمام وزير الداخلية بالأمر شخصيا بما أنها حادثة تعتبر الأولى من نوعها في فرنسا، إلا أن الموضوع لم يكن ذا أولوية بل أتى في المرتبة الثانية بعد المشاكل التي عرقتها فرنسا مع احتجاجات ذوي البزات الصفر، فهذه الحركة أخذت وقت وطاقة رجال الشرطة بجميع رتبهم واختصاصاتهم، فقد شلت هذه الحركة الاحتجاجية البلد لمدة أسابيع.

وبما أن المفتش «مايرام» من مدينة ليون مهد هذه العصابة اهتم بالأمر أكثر ووعد وزير الداخلية بعدما اتصل به شخصيا بأن يصل إلى رأس هذه العصابة في أقرب وقت.

بعد أن اطلع المفتش على كل أوراق القضية وقرأ أقوال الشهود ربط مباشرة بين شهادة شرطة الشواطئ وبين ركاب اليخت لورود اسم مدينة ليون في التقرير، فعلم أن العصابة أفلتت من بين يدي الشرطة كما يتسرب الماء من بين الأصابع وهذا لعدم احترافية رجال الشرطة ولدهاء العصابة. لهذا طلب رقم هاتف الشرطي الذي حاور من كان على اليخت كي يكونوا على اتصال دائم، فأكيد سيحتاجون إليه للتعرف على الأشخاص المشتبه بهم.

بعد أيام قليلة اتجه جود وجوليان إلى موناكو مصطحبين معهم عدة الغطس بغرض استرجاع المال قبل أن يعطل جهاز المتابعة «جي بي اس» فيضيع المال ويضيع معه الجهد المبذول سدى، وهم في طريقهم الطويل راحوا يتجادبون أطراف الحديث فسأل جوليان:

هل رأيت من وُكِّلَ بأمر ملاحقتنا؟ وهل تذكرته؟

نعم شاهدته يدلي بتصريحاته إنه الرقيب «مايرام» أو المفتش العام لمدينة ليون فقد تسلق سلم الرتب سريعا هذا الوغد، نعم أتذكره وأتذكر نظراته التي لا تعبر إلا على الشر واللؤم، أتذكر كلماته العنصرية وتهديداته لي بالقتل وهو يلف رباط حذائي على عنقي مؤكدا لي أن موتي لن يكون أكثر من خبر



انتحار مغربي في سجن الشرطة.

احمرّت عينا جود وهو يسترجع تلك اللحظات، وتوقف عن القيادة فجأة وانقبض صدره وشلت يده عن الحركة وكأنها بالأغلال كبلت حين تذكر ليلة السجن، ولم يفق من هذه الحالة إلا على أصوات زمارات السيارات والشاحنات وصوت جوليان يصيح ستقتلنا يا جود اركن إلى جنب نحن في طريق سريع.

كانت تلك الليلة وتلك التجربة من أصعب اللحظات التي مرت على جود ومن أحلك الليالي، أما جوليان فقد أخلي سبيله بعد تدخل والده بواسطة من أحد معارفه حيث مسح اسمه من القضية وكأنه لم يكن، أما جود فلحسن حظه أنه كان صغيرا لم يبلغ سن الرشد بعد، فأطلق سراحه بعد مدة قصيرة.

تذكر الصديقان تصرفات الرقيب «مايرام» اللئيمة، فقد كان شديد الجشع خائنا لأمانة العمل، ففي ذلك اليوم المشؤوم دخل إلى الغرفة التي استعملها جود وجوليان لإخفاء مسروقاتهم وأموالهم بعد أن تبعهم من مكان السطو الأخير وهجم عليهم ومن معه من الشرطة ليمسك بهم متلبسين محملين بالمسروقات، حينما دخل برقت عيناه فرحا، وكأنه دخل إلى مغارة علي بابا فقد سرّ لكمّ الهائل للتلفزيونات والهواتف النقالّة والأبيادات...

وسرّ أكثر حين فتح درجا ووجد فيه مبلغا ماليا محترما،
استدار مبتسما لجود وجوليان ثم قال أعتقد أن هذا المال لن
يكتب في التقرير، ثمّ وضعه في جيبه.

ولحسن حظهم أنه لم يكن هناك ولا أي دليل يدلّ على أنهم
عصابة Vaga، صرخ جود صرخة ألم وغيظ حين تذكر كل هذه
التفاصيل:

أمثل هذا يصبح المفتش العام لشرطة ليون؟! أعمي عن
تصرفاته؟ من عينه في منصب حساس كهذا؟ أم هو على شاكلته
فالطيور على أشكالها تقع؟ لكن لا إشكال في الأمر فالأحداث
تتسارع منذ مدة وأعتقد أن انفجارا سيحدث قريبا. فالشعب
ضاق ذرعا ولن يسكت بعد اليوم فقد بدأت ثورته تشور ولن
يدوم الأمر لهم وأيامهم في الحكم معدودة، وستتغير الأمور
لا محالة وسيكون أخيرا الحكم للشعب لا في يد مخادعين
ولصوص انتهازيين كهؤلاء.

* * * * *

امتلت حياتنا بأفات اجتماعية خطيرة، كثيرا ما تتسبّب
في تدمير العقول وتفكيك الأسر، ومن بين هذه الآفات
آفة القمار الذي يعتبر مرضا جسيما وإدمانا يضاهي إدمان



المخدرات في خطره، فقد تسبب في خراب بيوت وإفلاس
شركات وموت الآلاف عن طريق الاتجار.
وبدلاً من أن تكون الدول سبباً رئيسياً في القضاء عليها
نجدها هي الراعية الرسمية لها!



الفصل التاسع



بدأ غليان وحركات احتجاجية تطفوا على السطح خاصة بعد الأزمة الاقتصادية لعام 2008 وازدادت تلك الاحتجاجات، وكان نسق تزايدها تصاعديا فقد تضاعف تدمر الشعب بعد الكم الهائل من الضرائب التي أوهنت كاهل المواطنين البسطاء بل حتى بعض الأغنياء الذين حوّلوا كل أعمالهم وحساباتهم البنكية لبلدان الملاذ الضريبي.

واختار أكثرهم ثراء وسطوة المواجهة وتحدي الحكومة بل وإركاها تحت الضغوطات والتهديدات، فقد كسّرت عن أنيابها شركة «رونومثلا» التي تدفع 5.5% من أرباحها (في حين تدفع شركات أقل منها قوة وتأثيرا، على الأقل 33% من الأرباح) حينما أرادت الحكومة أن تزيد في ضريبتها بقيمة 2% فبدلا من أن تدفع 5.5% طلب منها أن تدفع 7.5%، فأبت وثارث ثورة ملاك الشركة وهدّدوا بأن يغلقوا كل شركاتهم في فرنسا ويتجهوا بها إلى تركيا ودول شمال إفريقيا. فتراجعت الدولة عن طلبها منكسة الرأس منصاعة تحت التهديد خوفا من تزايد أعداد العاطلين عن العمل، وعندك مثال آخر على استغوال الطبقة الغنية التي ظنت أنها فوق القانون، فقد خرج علينا في إحدى الحصص محاسب الشركة الضخمة «أوشون» متنطعا فخورا لأن الشركة تدفع 0% ضرائب وهذا من حقها حسب رأيه، لأنها توفر



مناصب شغل لمئات الآلاف من الفرنسيين عبر قطر الوطن،
ويظن أن هذه الخدمة كافية فلا داعي لدفع الضرائب.
فباتت الدولة عاجزة أمام هاته الشركات الضخمة أو بالأحرى
متواطئة، فبدلاً من أن تجبر الغني على دفع ضرائب وتجد حلولاً
اقتصادية ذكية للحصول على السيولة، ها هي تثقل كاهل
الفقير وتزيد من متاعبه وغممه هموماً أخرى، فلا يكاد يمرّ
شهر إلا وسمعنا بضريبة جديدة فلم يبق لهم إلا الأوكسجين.
ليفعلوا له عدادات كي يجعلوا له هو بدوره ضريبة تنفس!
فالملاحظ يرى أن سحق الشعب كان تصاعدياً، فبالإضافة
إلى ارتفاع الأسعار كالبنزين وتزايد معدلات البطالة، زادت من
الطين بلة تصرفات الطبقة السياسية التي خيّبت الآمال وكانت
القطرة التي أفاضت الكأس، مثل ذلك الوزير الذي يحارب
التهرّب الضريبي، مسك متلبساً بتهرب ضريبي وبحساب في
دولة مجاورة، وفضيحة ممثل الشعب الذي كان يصرف لزوجته
وابنه من أموال الشعب مرتبّات خيالية دون جهد أو عمل يقابل
مهيتّهما.

فمع هذا السخط والتذمر كان من الطبيعي أن تخرج الحشود
كالنمل محتجّة على الوضع الاقتصادي والسياسي المتعفن،
مرتدين بزات صفراء عنوان وحدة واصطفاف كيدٍ واحدة يد

تضرب من حديد لاقتلاع هذا النظام الفاسد من جذوره.
ومن بين المجموعات المعروفة التي انضمت إلى الحراك الشعبي الكبير مجموعة «البلاك بلوك» التي خرجت كالثيران المتوحشة الهائجة تدمر كل ما يعترض طريقها، وأيضا مجموعة «الخضر محبي الطبيعة» الذين شلوا حركة السير باحتلالهم للممرات الدائرية وأقاموا فيها معسكرات وكانهم جيش احتلال تمكن من الأماكن الاستراتيجية للبلد العدو ومجموعة أخرى مهمة ولها تأثير قوي براديكاليتها وتطرفها في التعامل مع الأمور، مجموعة «الفيمينيست» لتحرير المرأة من جميع قيودها سواء قيود دينية أو اجتماعية وخاصة تحريرها من هيمنة الرجل، وكان تطرفهم وجرأتهم عنصرين مهمين كي يكون لهذه المجموعة وزن في الحراك الشعبي حتى وإن اختلف معها الكثير، أو لم يكن لهم شعبية جارفة فقوتهم تكمن في جراتهم.
بعد أن تمكّن جود وجوليان من استرجاع حقيبة المال قاما بتسوية العديد من الأمور العالقة في مدينة ليون وأكملت التحضيرات اللازمة التي تخص العملية الجديدة، اتجها مباشرة نحو مدينة باريس أين كان ينتظرهما الآخرون الذين اتجهوا مباشرة من موناكو نحو باريس حيث وكلت لكل واحد منهم مهام جديدة للبدء في تحضير عملياتهم المستقبلية.



فلادمير ما حال الذباب الإلكتروني معك؟
يسأل جود وهو يضع حقيبة ضخمة سوداء فوق الطاولة يليه
جوليان بحقيبة مماثلة.

الأمر على ما يرام يجيب فلادمير، ثم يردف:
الخطة تمشي كما صممت لها والذباب نشاطه كبير، فقد
انضم لنا الكثير من الشباب والكهول وحتى المسنين الذين
يسهل توجيه أفكارهم لما يصب في مصلحتنا، فكما تعلم
هناك فئة كبيرة من الشعب يسهل تسيير أفكارهم عن طريق
شاشة التلفاز بإشباع عقولهم بكم من الشائعات، وهذه الزمرة
من الشعب تنقسم إلى قسمين:

الأولى المتمثلة في ضعيف الشخصية الذي تتوق نفسه
لقائد مثالي يكون قدوته وبطله الذي يعشقه ويحب أفكاره
ويتعصب لها، ويرى فيه المسيح المخلص الذي سيخلصه من
جميع مشاكله.

وأما القسم الثاني فهو المريض بمرض «البارنويا» الخوف
من الآخر أو من الغريب عنه شكلا ودينا وتقاليدا، فيخاف على
حياته وعلى عمله بأن يخطفا من المغترب أو على بلده من
التغيير في ملامحها ومبادئها.

هذه هي مواصفات من سأركّز عملي معهم هذه الأيام، فأستولي على عقولهم وأسلب منهم إرادتهم وأسيرهم بما يخدم خطتنا فيكونون ركيّزة وأساسا ننطلق منه.

بالإضافة إلى هؤلاء هناك الآلاف من الحسابات الوهميّة في فايسبوك وانستغرام، أتحكّم بها عن طريق التطبيق لإعطاء فكرة ما تخدمنا أهميّة ومصداقية بالضغط على زر أعجبنى أو زر أحب أو إضافة تعليقات مؤيدة كي تكون الأفكار التي ننشرها دائما في المقدّمة فتنحفر في ذهن الناس ويتم تأييدها بسهولة. جميل جدا يقول جود ثم يضيف:

بمناسبة ذكرك للتطبيق أين وصلت في عملك على التطبيقات التي طلبتها منك؟

لم أنهيها بعد لكننا تقدّمنا كثيرا في تجهيزها، ولم يبق لنا إلا بعض التفاصيل المهمة ثم أطلب من الأيدي الخارجية تجربتها كي نتأكد من جاهزيتها قبل وضعها تحت تصرفك. أو ما جود برأسه معبرا على علامة رضا، وجلس في مكانه واتجه بنظره نحو ريان وقال له:

وأنت ما أخبار مهمتك يا ريان؟

تغلّغت أنا والأيدي الخارجية بأسماء مستعارة في وسط جماعة «البلاك بلوك» وأصبح لنا صوت مسموع على أرض



الواقع وأيضا على المواقع الالكترونية.

جميل وأنت يا رافاشول ما أخبار مهمتك؟

الأمر أسهل بالنسبة لي فأنا أنتمي إلى جماعة «الأناشيسست»
ومحبي الطبيعة من قبل، وكلمتي مسموعة ورأيي يحترم ويؤخذ
به أحيانا.

عظيم ركز أكثر على مهمة ما بعد العملية فهي الأهم
والهدف الأسمى والمنشود.

نظر رافاشول بنظرة أمل تجاه جود وقال:

هل تعتقد أننا سننجح وسنصل لهذا الهدف النبيل؟

لا أدري إن كنا سننجح أم لا، لكنني أعتقد أن الشعب وصل
إلى نضج فكري وسياسي كاف ليتحكّم بنفسه في زمام الأمور،
ويكون هو الدستور وهو السّلطة الفعلية ولا يكتفي بأن يكون
المصدر لها فقط.

وحراك البزّات الصّفر خير دليل على تفضن الشعب لما
يحاك له في كواليس السياسة والمأدبات السرية بين السياسيين
ورجال المال والنفوذ، وكلّ مستفيد من هذا النظام من رجال
دين وإعلام.

نظر جود إلى ليا مبتسما ثم قال:

لا داعي لأن أسألك على آخر المستجدات، فكلنا رأى

فضيحتك على الشاشة وعلى صفحات التواصل الاجتماعي،
فمكانتك حتما ستكون كبيرة بعد هذه الخرجة الجريئة!
ضحكت ليا وضحك الكل معها ثم قالت:

مثل هؤلاء لن تدخل في وسطهم ولن تجعل لك مكانة
بينهم إلا بجرأة كهذه، وأعتقد أنني نجحت في مهمّتي ومكانتي
ستنموا يوما بعد يوم إلى أن أصل إلى حدّ التأثير في مخططاتهم
ومظاهراتهم.

بعد أن اطمأن جود على حسن سير المخطط وتدابيره، فتح
إحدى الحقيقيتين وعلى غير العادة لم يستخرج إلا 10% من
مجموع المبلغ ووزّعه بالتساوي على الكل وقال لهم:

في هذه المرة المبلغ لن يقسم كالعادة بل وزعت عليكم
10% فقط ومثلها للمحتاجين من الحالات التي لا تقبل الانتظار
ومثلها مصاريف العملية الجديدة، أمّا باقي المبلغ والمبالغ
المتبقية من العمليات الماضية فسنشترى بهم ذهباً سواء
سبائك أو ذهباً مستعملاً من حلي وما شابه، لهذا سنستعين
بفلاذمير كي ينشر إشاعة عبر الشبكة العنكبوتية، وسنساعد
في هذا ونشيع بأن سعر الذهب سينهار وقد قمت بكراء
محلات لشراء الذهب وسنقدم دائماً أحسن سعر في السوق
كي نستحوذ على أكبر كمية ممكنة تطرح، يجب أن نقتنع كل



من يمتلك ذهباً أنّ اختفاظه به ليوم واحد يتسبب له في خسارة جسيمة.

وبالفعل فقد ألهم فلادمير بطريقة ذكية، حيث أشاع بأنه عثر على واد جفّ قبل سنوات في إفريقيا الوسطى مليء بالذهب، ذهبٌ يكفي العالم كله وعشر أضعافه، وعن طريق الفتوشوب سرّب صوراً لهذا الواد الذهبي وكمية الشاحنات غير المحدودة التي تنقل أطنانا من الذهب مع بعض الصور لقطع من صخور ذهبية تتساقط من الشاحنات كي يصور للمشاهد رخس قيمته. وانتشرت هذه الصور انتشار النار في الهشيم وأفزعت كل من خزّن ذهباً، ودفعتهم للتزاحم على محلات شراء الذهب التي أغلقت أياماً بعد انتشار الشائعة، وأياماً قبل اكتشاف كذبتها فتبخّر الذهب مع تبخّر هذه المحلات.

ومرت الأيام والأسابيع والمخطط يسير كما خطط له جود الذي لم ينفك عن شد عزم «VAGA» وشحذ همّتهم وبالغ في تنبيههم بأن الوقت ليس في صالحهم، وأن الشرطة تتعقب أثرهم ولا مجال للتماطل خاصة بعد العملية الأخيرة التي وضعتهم على رأس قائمة المطلوبين في فرنسا، فهذه القضية بالذات متابعة من طرف أعلى هرم في السلطة، لأن الكازينوهات وألعاب القمار بصفة عامة من أهم مداخيل الدولة وأرباحها

فهي مصدر ثابت واستثمار نسبة ربحه عالية بأقل المصاريف، أين تستثمر الدولة في سداجة ملايين من الناس الذين يبحثون على الربح السريع دون أن تأبه للأخطار التي قد ينتجها لعب القمار كالطلاق والتفكك الأسري والانتحار، لكن هذه النتائج الوخيمة لا تدخل في مجال اهتمامات السلطة الحاكمة بل همها الوحيد هو كيفية سلب الشعب ماله ومدخراته بأي طريقة، أكيد قانونية لكن لا يهم إن كانت هذه القوانين وحشية خالية من المشاعر الإنسانية، فملاً خزينة الدولة عند هؤلاء أهم من الإنسان نفسه.

ومن أجل هذه الخزينة وهذا النظام تحرّكت أجهزة الدولة بكل ما أوتيت من قوة للقبض على عصابة VAGA. وبالفعل بعد جهود مضيئة وتحريات مجدبة لمدة أسابيع وبعد أن سلكوا عدة طرق عقيمة توصل المفتش «مايرام» ومن معه أخيراً إلى أثر ودليل قد يقودهم على الأقل لأحد أفراد العصابة.

فبعد أن درسوا كل حيثيات السطو ودققوا في كل كبيرة وصغيرة واستمعوا لكل الحضور عمالاً ومتسابقين، تفتّظن المفتش «مايرام» إلى نقطة قد تبدو غير مهمة لأول وهلة، لكن مع غياب صور وفيديوهات لعناصر العصابة فأى ملحوظة مهما



صغر شأنها واحتقر أمرها هي مهمة.

قرأ المفتش في إحدى الشهادات لرجال الأمن حين قال:

«أن من لكمني وجعلني أسقط أرضا رغم ضخامة وقوة جسمي لن يكون إلا ملاكما محترفاً أو احترف الملاكمة من قبل»

هرش «مايرام» رأسه حين قرأ هذه المعلومة التي سقطت من عينيه في أول التحقيقات، ثم رنى بخبث ومكر إلى السقف ليربط بين هذه المعلومة ومهد ولادة هذه العصابة مدينة ليون، فأصبح يملك معلومتين مهمتين على أحد أفراد العصابة بل ثلاثة معلومات، فقد كان أسمر اللون من أصل إفريقي بالإضافة إلى هذه المعلومات هناك عنصر مهم جداً وهو الشرطي الوحيد الذي رأى عن قرب كل أفراد العصابة وتكلم معهم.

وفعلاً انطلقاً من هذه المعطيات أصدر المفتش «مايرام» تعليمات بأن يكتفوا البحث ويراقبوا في مدينة ليون وما جاورها كل ملاكم محترف أو احترف الملامكة منذ مدة غير بعيدة.

ولم تمر أيام حتى تهطلت على مكتب المفتش ملفات كل ملاكمي المنطقة، وكان كل ما وصل له ملفاً أرسل صورة المشتبه فيه إلى ذلك الشرطي الذي صعد إلى اليخت، وكانت

كل مرة إجابة الشرطي سلبية وكاد المفتش أن يفقد الأمل في مخططه وظن أن استنتاج رجل الأمن لم يكن إلا محض خيال، لما ظن أن من ضربه ملاكم محترف إلى أن وصلوا إلى ملاكم سابق اسمه ريان براهيمي فرنسي من أصول التوارف الجزائرية، وهو مدرب حالي في إحدى صالات رياضة الملاكمة في محافظة تابعة لمدينة ليون تسمى بريولا پاپ، أرسل «مايرام» كالعادة صورة الملاكم إلى الشرطي في مدينة موناكو وكان ينتظر ردا سلبيا لكنه فوجئ في اليوم الموالي برد غير تلك الردود رد إجابي، جعل المفتش ينط كالقرد فرحا لكن سرعان ما خفت تأجج سروره وسكن في مكانه حينما علم أن الملاكم السابق ريان مختف عن الأنظار منذ أسابيع، ولا يعرف له مكان فأصدر أمرا فوريا بأن يكون هذا الملاكم أولوية كل شرطة فرنسا فهو الفرنسي المطلوب رقم واحد وانتشرت صورته في مراكز الشرطة وعلقت بوستراته كمثلين ومغنيين في غرف مراهمات.

في الوقت ذاته وفيما الشرطة تكثف البحث عن ريان وبشئى الطرق كمراقبة الأقارب والأصدقاء وهواتفهم، كان قد تبوأ مكانة خاصة في قلوب «البلاك بلوك» وتسلق قمم الإعجاب والثناء في وقت قصير واشتهر في مواقع التواصل الاجتماعي بكنية

اليد الملهبة بالفرنسية *la main en feu*.



فبالإضافة إلى صولاته وجولاته وبطولاته في المظاهرات كان كل ليلة سبت يخرج على الفايسبوك في بث مباشر يلهب فيه حماسة متابعيه ويحثهم على رفض سياسة الدولة والخروج عن طاعتها، حتى لو كان ذلك عن طريق العنف اللفظي والمادي: كي نسمع صوتنا وجب علينا أن نصيح بقوة ونلفت انتباه العالم كله لنا، وهذا لن يكون بمسيرات سلمية بل يجب أن نخطف الأبصار كما يخطف النسر بمخالب كالحديد طريدته، فالشجرة التي تسقط تحدث صوتا أكثر من مئات الأشجار التي تنمو بلطف، والسيارة التي تحترق تجلب انتباه المارة أكثر من مئات السيارات المركونة في سكون.

وفي حقيقة الأمر بث اليد الملتهبة لم يكن الوحيد، فقد كان هناك مئات الأشخاص من مختلف الاتجاهات الذين اعتادوا الظهور على المباشر كل ليلة وكانت نسبة متابعيهم متفاوتة من العشرات إلى المئات إلى الآلاف، وكان الأكثر شعبية فيهم هو ذاك الذي اشتهر بكنية الفنان، كان متابعوه كل ليلة يصلون إلى مئات الآلاف ويزيدون وتصل نسبة مشاهدة فيديواته على اليوتيوب بالملايين لكل فيديو.

فهو يطل على مداوميه بصوت هادئ رصين يدفع سامعيه إلى الطمأنينة، أمامه على الطاولة كأس قهوة بالحليب في يده

قلم رصاص وورقة بيضاء وسكون مريح يخيم، لا تسمع فيه إلا صوت القلم يدون به للتاريخ معاناة الشعب الفرنسي. يصور تارة معاناة المواطن مع الضرائب والبنوك وأرباب العمل، وتارة أخرى يصور حياة البذخ والترف التي ينعم بها السياسيون وأصحاب الحل والعقد في البلاد.

ولم يبرع هذا الرسّام في تجسيد مشاكل الشعب على شكل لوحات فنية فقط، بل أبدع في خطابه التي تثير العزائم وتنهض الهمم وتشد المشاعر بقوة حجته وعظيم برهانه. فقد كان يستنكر حيناً ممارسات الدولة الدكتاتورية التي تلبس لباس الديمقراطية، ويتعجب حيناً آخر من قبول الشعب مثل هذه الممارسات والخضوع لها، ثم يتهكم من تصرفات الوزراء والنواب اللامسؤولة وجهلهم بأحوال الشعب ومشاكلهم ليتساءل قائلاً:

هل جاع أحدهم؟ أو جزع؟ أو بات بلا مأوى أو دون عمل؟ أو وقف في طوابير مصلحة التشغيل أو مصلحة الإعانات؟
طبعاً لا فمعظمهم ولد في أسرة ميسورة الحال حياتهم مسطرة ومخطط لها منذ أن رأت أعينهم النور، فأكبر همهم الذي قد يؤرق نومهم هو مكان عطلة الصيف، أفي جزر المالديف؟ أو على سطح يخت في الكوت دازير؟



فمشاكلهم غير مشاكلنا واهتماماتهم غير اهتماماتنا
ولباسهم وأكلهم غير ما نلبس ونأكل، لهم حياة ولنا حياة
وعالمهم غير عالمنا.

فإذا كان عالمهم موازيا لعالمنا، وإذا كانوا لا يفقهون مشاكلنا
فكيف سيجدون لها حلا!؟

ثم يقول صائحا:

نحن أعلم بمشاكلنا ونحن أعرف منهم وأحسن موقعا لحلها.
أجدادنا قاموا بثورة يتغنى بها الغريب قبل القريب، ونحن
من سيقوم مجراها ويرجع مسارها إلى جادة الطريق.
أسلافنا ثاروا من أجل عيش بكرامة وعدالة اجتماعية،
لكن الذئاب ركبوا موجة الثورة ولبسوا جلود الخرفان وراحوا
يكيّدون لنا بآلية جديدة بدل المملكة التي أسقطتها ثورتنا
المجيدة.

آلية ظاهرها حرية الرأي والاحتكام للشعب وباطنها
الدكتاتورية والتفرّد بالقرار، أسلافنا أطاحوا بملوك فخلفهم
طبقة برجوازية لا تقلّ جشعا ولا تكبرا ولا غطرسة عن سابقها،
حان الوقت كي نكمل ما بدأه الأُولون ونعطي السلطة الحقيقية
للشعب.

الشعب وحده من سينفرد بالرأي فلا وصاية بعد اليوم عليه،
فقد وصل مجتمعنا إلى مرحلة الرّشد وتعدّاتها وهو في طريقه
نحو مرحلة الحكمة الجماعية ورجاحة العقل العامة التي تشمل
كل الشعب أو على الأقل معظمه.

لينهي كلامه مع انتهاء لوحته الثورية ويسود ظلام وسكون.
سكون يسمح لك بسماع حركة القلم وهو يوقّع تحت
اللوحه دون رؤيتها لتبقى شخصيته مجهولة ككل مرة ويترك
معجبيه في حيرة من أمرهم، ولا يترك المعجبين فقط حيارى
بل الشرطة أيضا التي وضعت في قائمة أهم أهداف تحرياتها،
بعد أن سطع نجمه وعلت مكانته وكثر معجبه على وسائل
التواصل الاجتماعي.

* * * * *

يقول الشاعر زهير بن أبي سلمى
مهما تكن عند امرئ من خليقة *** وإن خالها تخفى
على الناس تعلم

سلوك الوزير الذي كان عمله محاربة التهريب الضريبي
والذي ضبط هو بدوره بحساب في سويسرا يهرب فيه



أمواله، سلوك متفشٍ في كل طبقات المجتمع لكنه يظهر أكثر عند الطبقة السياسية، لأن لهم مسؤوليات ضخمة فيساط عليهم الضوء أكثر، وتبرز هذه النقيصة أيضا لأن الساسة صدروا لنا أنهم حماة الفضيلة وحاملو لواء الأخلاق فأبي سقطت منهم تعظم ولو صغرت.

من الطبيعي أن يُظهر الإنسان أفضل شكل له أمام الناس، لكن من العيب أن يظهر ما لا يبطن كأن ينهس المرء الناس عن خلق ذميم ويأتي مثله في سره أو يأمر الناس ببر ولا يعمل به، وكثيرا ما نلاحظ هذه الظاهرة في الفضاء الإلكتروني، فالناس هناك أكثر مثالية مما هم عليه في الواقع!!



الفصل العاشر



أصبح من أولويات الشرطة معرفة كل شيء عن شخصية الفنان، اسمه واسم عائلته وتاريخه وتاريخ كل من على علاقة به، فخطره يكمن في فكره فهو لا يدعو إلى مظاهرات عادية ولا لقلب نظام الحكم، بل يدعو لتحطيم ما سمّاه صنم الديمقراطية والقضاء على حضارتنا.

هذه الحضارة التي بينها لبنة بلبنة لعدة أعوام وسنين وخصنا بسببها حروباً، وضحى من أجلها الملايين، لهذا لن نسمح بتفشي مثل هذه الأفكار وسنحاربها ونضيق الخناق عليها حتى تندثر وتزول، فلا مجال للسماحة والتساهل مع مثل هذه الأفكار الفاشية الغريبة عن حضارتنا ونمط عيشنا، فنحن لسنا مستعدين للتضحية بكل مكاسبنا التي أحرزناها على مرّ السنين كي نعاود الكرة ونبدأ من جديد، لن نسمح لأي فكر شاذ بأن يرجعنا إلى العصور الوسطى، إلى أقبح وأساء حقبة شهدتها أوروبا.

فقد حاربنا ومازلنا نحارب الفاشية الدينية وحاربنا الفاشية الشيوعية وانتصرنا، فلن نسمح بفاشية جديدة ولا فكر منحرف ينغص علينا حياتنا، لهذا وجب على السلطات التحرك للقضاء على كل هذه الشخصيات الفايسبوكية التي تحاول استمالة شبابنا والتحكم في عقولهم، ويؤسفني سيداتي سادتي أن أقول



لكم أنهم نجحوا ودليل نجاحهم الكم الهائل لمتابعيهم، فقد وصلوا لعقول شبابنا وهم الآن بصدد تحضيرهم ليكونوا أداة تحطيم حضارتنا، لهذا أناشد من منبري هذا السلطات المعنية كي تتحرك حالا وقبل فوات الأوان للقبض على هؤلاء الإرهابيين الخارجين عن القانون.

يقول هذا النائب اليميني 'هنري جيانو' في مداخلة على القناة الإخبارية 'بي أف أم'

ليسأل الصحفي: أليس من حرية الرأي أن يدلوا بأفكارهم أمام الشعب؟ أليس ما تطالب به السلطات قمعا للحريات؟ أولا من يدلي برأيه لا يخفي وجهه، فاللص هو من يتنكر ليلا كي لا يعرفه أحد، وهؤلاء خارجون عن القانون وهم يعلمون، لهذا يوارون وجوههم ويختفون وراء كنيات وأسماء وهمية. ثانيا هذه ليست آراء بل أفكار شيطانية يجب محاربتها والقضاء عليها قبل أن تنتشر كالوباء وسط الشعب.

ولماذا لا تتركون الشعب يقرر ما يسمع وما لا يسمع؟ أنصبتم أنفسكم أوصياء عليه؟

نحن نعرف ما يريد الشعب سماعه، لهذا نطالب السلطات المعنية بالتدخل السريع.

إذا لهم الحق حينما اتهموكم بمصادرة رأي الشعب بحجة
أنكم منتخبون؟

إذا تريد فاشية نازية مثل التي أتى بها هتلر الذي استفاد من
حرية الرأي هذه؟ أم تريد فاشية الإخوان المسلمين كما حدث
في مصر وتونس؟

أنا لا أريد ولا أدعو لشيء بل أنقل على لسانهم ما يروّجون
له وناقل الكفر ليس بكافر، وبهذا يتسنى لك الرد عليهم...

نعم هكذا كان الوضع العام في البلاد، جو مشحون في
الفضاء العام بسبب المظاهرات الأسبوعية، ما بين مظاهر سئم
عيش العوز والمعاناة وآخر طفح كيله من كم الطرق المغلقة
والمصالح المتعطلة، وجو مكهرب في بلاطوهات التلفزيون
بين مؤيد للمتظاهرين وآخر مخون لهم.

مع أن المؤيد والمعارض في هذه الحصص والقنوات يتمنيان
يا إما جهرا أو في قرارة النفس فشل هذه المظاهرات، لأنهما
يتفقان على ضرورة الحفاظ على النظام الحاكم لأنه الوحيد
الذي يحمي مصالحهم، بالرغم من مسرحيات المعارضة
والمشادات والمماحكات العقيمة سواء في التلفزيون أو الراديو
أو تحت قبة البرلمان.



فرغم جدالاتهم الشرسة وعداوتهم الشديدة إلا أن نواب البرلمان من يسارهم المتطرف إلى أقصى يمينهم اتفقوا فأصدروا قانونا يجرم الفيديوهات التي تحث على الإطاحة بالديمقراطية والقانون الذي وضعه وزير الداخلية قيد التنفيذ، حيث أمر بالإطاحة برؤوس الفتنة ومن بين الأسماء التي ترددت كثيرا سواء على التلفاز أو قبة البرلمان أو محاضر الشرطة اليد الملتهبة، والفنان حيث كانا على رأس قائمة المطلوبين.

وفي الوقت نفسه كان اسم ريان الملاكم لا يزال تحت المراقبة الشديدة، وحسب آخر التحريات اتضح أنه يقيم في ضواحي باريس وجار البحث عنه بكثافة وستمشط باريس شبرا شبرا وركنا ركنا حتى يجذوه.

وكان المفتش 'مايرام' يتابع بنفسه هذا الموضوع، فقد كان يجلس في مكتبه كمدمن الكوكايين يفرك شعر رأسه ويحك جلد جسمه كالمجنون، يقفز على التلفون حين يرن وكأنها حقنة مخدر لكن سرعان ما تتطاير نشوته حال علمه بأن التلفون لأمر آخر ومرت أيام وأسابيع وهو على هذا الحال حتى كاد يفقد عقله، فقد رمى في تلك الصبيحة بالتلفون أرضا أراده هالكا، وهذا لأن المكالمة لم تستهوه واعتبرها مضيعة لوقته. وذات صباح والساعة تشير إلى العاشرة والنصف دخل عليه

زميل له فوجده متوترا منكش الشعر يتصبب عرقا يحمل في يده اليمنى سيجارة ملتهبة وفي يده اليسرى ولاعة يدق بها بقوة على مكتبه، وتقابله طفاية مليئة بجثث السجائر وكأنها صورة لجيف في محرقة نازية.

فهمت: سيدي سيدي مكالمة هامة من باريس.

جحظ المفتش 'مايرام' عينيه وأسقط السيجارة من يده ووقف صائحا:

وماذا قالوا لك؟ هل هناك أخبار عن الملاكم ريان؟

لا أدري سيدي لكنهم يطلبون الحديث إليك.

ثم مرّر له الهاتف وبقي في مكانه ينتظر الأخبار.

ألو صباح الخير، معكم السيد 'مايرام' المفتش العام لمدينة ليون.

صباح الخير سيدي معك المفتش 'بيجاغد' من باريس المنطقة عشرين، نعم هناك أخبار ستفرحك، لقد رصدنا تحرّكات المدعو ريان براهيمي وهو مقيم في المنطقة عشرين لباريس وهو الآن تحت المراقبة.

جميل رائع يصيح 'مايرام' وهو يشد على كتف زميله فرحا

أتريدنا أن نقبض عليه ونباشر في استجوابه؟

لا لا يجب أن ندعه حرّا طليقا ونراقبه عن بعد كي نصل



لرأس الهرم، فسنجعله الأثر الذي نقتفيه لنصل للمدبر الأول،
فما هذا إلا تابع أو جندي لجنرال محنك.

على العموم سأنتقل حالا للمنزل آخذ حقيبة ملابسي وأتجه
مباشرة إلى محطة القطار، بعد بضعة ساعات سأكون عندك
لأتابع التطورات عن قرب.

حاضر سيدي سنكون في انتظارك مع كل التقارير.

وهو في طريقه إلى المنزل اتصل بوزير الداخلية على هاتفه
الخاص، وأنبأه بالتطورات التي استجدت على قضية سرقة
كازينو موناكو، وأخبره أيضا بأنه في طريقه إلى باريس، ومن
المؤكد أنهما سيلتقيان حول مأدبة عشاء أو غداء كي يتناقشا
الموضوع بتفاصيله.

وفي الوقت نفسه كانت فرقة VAGA تعمل على قدم وساق
كي تصل خطتهم لمرتبة الكمال، فلن يتركوا مجالا للمفاجآت
ولن يتركوا منفذا ولا ثغرات، فهم في عمل دؤوب منذ أشهر
والكل يعلم أنه لا وقت للاسترخاء أو إحساس بلغوب، والكل
موقن أنه بعد كل هذا التعب سينالون المجد الأبدي، فرغم
سمو أهدافهم في العمليات الماضية إلا أن هذه العملية أهدافها
أرقى ونتائجها أعظم، فلو مرت الأمور كما خطط له ستكون
المحصلة تغييرا شاملا في مجرى تاريخ البشرية.

أما جود فكان يقف على كل صغيرة وكبيرة ويدقق في المحتقر من الأمور قبل العظيم، يراقب عدد ونشاط الذباب الإلكتروني ومدى ولائهم، فيجدهم يهيجون كالذباب الحقيقي على أي موضوع ينشر، فينهجون النهج والفكر الذي يخدم VAGA ويشجعونه بمشاركات تحفيزية وإعجابات، فيعتقد المواطن البسيط أن هذا الفكر هو الرائج الذي يلقي استحسانا عند عموم الشعب، فيميل له طواعية دون أن يحس بأنه مدفوع لا إراديا لتبنيّه، ولو نشر أحدهم فكرة ضدّ النسيج الذي نسجه جود وفرقته يحاربونه وينفرون الناس منه بالتشنيع والتخوين وكيل الاتهامات بالوقوف ضد الشعب وبيع الذمم، ثم يتابع تطور التطبيقات التي طلبها من فلاديمير ومدى جاهزيتها ويطلب تجريبيها بنفسه ثم يختلي من حين إلى آخر بكل من ريان ثم ليا ثم رافاشول كل على حدى، كي يعلم مدى توغلهم في الجماعات التي زرعوها فيها، وبعد أن يطمئن على سيرورة الأمور كما خطط له ويتجه كل نحو منزله يدخل جود إلى غرفته ويمسك هاتفه ليتصل بإينايا ككل ليلة، يتقصى أخبارها ويمتدح سمعه بنبرات صوتها وأنغام ضحكاتها، ويهيم حبا في زفرات أنفاسها دون أن يفصح عن نار الجوى التي تحرق فؤاده، فأنى له مصارحتها وهو الذي كان لها بمثابة الأخ الأكبر الذي يرعاه



مذ أن توفيت والدتها، وحتى هو منذ وقت ليس ببعيد كان يرى فيها الأخت الصغرى التي حرم منها بعد رحيل أمه، لكن نظرته لها تغيرت بتعاقب السنين، وتبدلت بتبدل ملامح الفتاة التي كبرت وكبر معها حسننها وجمالها وأنوئتها، وأضحت مرام كل شاب تعترض طريقه ولو صدفة، فكل من رآها ماشية في الشارع لوى عنقه متمتعاً بجمالها وقوامها الرشيق وتمناها شريكة لحياته ولو للحظات.

أما جوليان فقد تابع مهمته في تحويل كل تلك الملايين من اليوروهات إلى ذهب، ووضعها في مكان آمن فقد اشترى كل ما طرح من ذهب للبيع في كل البلاد، بل انتقل إلى البلدان المجاورة فأينما بيع كان جوليان مقتنيه حتى أصبحت الغرفة التي خزن فيها تشبه مغارة علي بابا أو غرفة قرصان من أفلام القراصنة المشهورين.

فقد وكلت له هذه المهمة لأهمية الذهب في مرحلة ما بعد السطو، فهذه المهمة تحتاج لشخص ذكي شجاع أمين لا يفتن ببريق ذهب ولا كثرة مال.

وتكمن أهمية الذهب في أنه سيكون القوة التي سيخضع لها كل القوى بما فيها جبروت السلاح، فبريقه يخطف العقول ويلين كل صلب ويهون كل وعر، فهو وحده القيمة الثابتة على

مر العصور.

فالمرحلة القادمة ستكون للأغنى وللأذكى خاصة فليس كل غني في حقيقة الأمر غنيا فما يمتلكه ما هي إلا أرقام في بنوك وأوراق في خزائن.

أوراق وأرقام ليس لها قيمة ثابتة يتهاوى ثمنها كتساقط أوراق الشجر أرضا في فصل الخريف، فالناظر للشجرة يعجبه اخضرار أوراقها ولكن مع أول نسمة خريف تصفر وتتساقط أرضا لتداس تحت الأقدام كأي شيء بلا قيمة.

هكذا الأوراق النقدية تفقد قيمتها عند أول أزمة اقتصادية كبيرة تضرب البلد، فتصيبها علة التضخم وتتساوى قيمتها مع قيمة أوراق المراحيض وأحيانا أقل، فقد رأينا مناظر مذهلة لبلدان إفريقية أين تباع الأموال المكدسة على حافة الطريق كالبصل وتنقل كالإسمنت في عربات يدوية، أما الأرقام فقد تندثر باختفاء البنوك إذا حلت عليها مصيبة الإفلاس أو تزول مع أول طلقة ناربية لحرب عالمية.

وحتى الذهب سيفقد يوما ما قيمته ويصبح مساويا للتراب، لكن إلى ذلك اليوم سيبقى هو القيمة التي لا يختلف عليها اثنان، ومن يمتلكه يمتلك العالم لهذا تقاس القوة الاقتصادية للدول بمقدار الذهب المدّخر عندها.



بعد مراقبة لصيقة وحراسة شديدة عرفت تقريبا كل تفاصيل حياة ريان في باريس، وكل ديب دبتة رجلاه وكل مكان وطأته قدماه، وبعد أن حضر المفتش 'مايرام' تقريرا مفصلا أسرع بأخذ موعد فوري لا يحتمل التأخير مع وزير الداخلية، وكان له ذلك لغداء الغد في تمام الثانية عشر ظهرا.

صباح الخير سيادة الوزير:

وقف 'مايرام' متحيا ثم جلس بعد أن جلس الوزير مغلقا ملف التقرير.

صباح الخير آسف على التأخير.

قال الوزير وهو ينظر إلى الساعة التي أشارت إلى الثانية عشر وسبع دقائق 12:07.

لا عليك فقد كنت أراجع التقرير للمرة المئة.

هيا هل عندك خبر مفرح تزفه لي؟

لا أدري إن كان مفرحا أم مقلقا! أما المفرح في كلامي هو رصدنا كل تحركات الملاكم ريان، وهو تحت سيطرتنا وأعيننا لا تغيب عنه.

ولماذا لم تقبضوا عليه حتى الآن فنستعمل معه طرقنا كي يشي بمن معه؟ فلك كرت أبيض استعمل معه كل الطرق غير القانونية قبل القانونية.

المسألة ليست بهذه السهولة سيدي فما استنتجته خطير،
وهذا الأمر المقلق الذي دفعني بأن أتركه حرا وأطلب مقابلتك
فوراً. فالأمر أعظم من سطوع على كازينو!
وكيف ذلك؟

بعد مراقبة شديدة اكتشفنا أن الملاكم ريان انضم حديثاً
إلى جماعة 'البلاك بلوك' وبسرعة فائقة أصبح له مكانة ورأي،
وكلامه مسموع وإضافة إلى هذا فهو يقوم بنشر فيديوهات
مباشرة على موقع فايسبوك تحت اسم مستعار وهو اليد
الملتعبة *la main en feu*.

وأيّن الغرابة في هذا؟ كل من هبّ ودبّ الآن ينشر فيديوهات
على الفايسبوك طمعا في الشهرة.

حدسي يقول لي غير هذا، فهناك عوامل لم تجتمع صدفة،
انتماؤه إلى الجماعة الخطيرة 'بلاك بلوك'، وتغيير اسمه وصعود
أسهمه في هذه الجماعة الخطيرة بسرعة.

أشبه رائحة تخطيط، فهو ليس له ذكاء كاف كي يصل إلى
هذه المرحلة لوحده.

ثم إن ركنا في حياته ما يزال غامضاً لدينا، فهو يختفي مرة
في الأسبوع، ونفقد أثره في نفس اليوم ونفس المكان، أكيد
هذا هو الوقت الذي يلتقي فيه بعصابته ومن المؤكد أن جماعة



VAGA تحضّر لأمر خطير لهذا يجب أخذ الأمر على محمل الجد.

حاضر أنا أثق في فراستك، لهذا سأطلب من المفتش العام لمدينة باريس أن يتصل بك فهو المكلف بأحداث البنات الصفر وكل ما يدور حولها من مجموعات وأفكار انتشرت حديثا. جميل جدا أعتقد أنني سأصل مع المفتش العام لمدينة باريس إلى نتائج مرضية سأتجه مباشرة بتقريرى هذا إلى مكتبه بعد أن نهي وجبة الغداء.

لكن اسمحلي بطلب صغير قبل أن أنصرف.
ضحك الوزير ثم قال:

كنت أنتظر هذه الكلمات فأنا أعرف مكرك وجشعك.
ابتسم المفتش 'مايرام' بخبت قائلا:

لا تظلمني يا سيادة الوزير فالطلب ليس لي! لي صديق رجل أعمال وعنده مشروع كبير في باريس ويطلب بعض التسهيلات وقليلًا من الامتيازات، وغض الطرف على كثير مما سيقوم به من تجاوزات.

لا إشكال خذ له موعدا مع سكرتيرتي، وستجري الأمور كما يشتهي أو أكثر، المهم عمولتي %10 كالعادة ورقم حسابي في سويسرا تعرفه أحسن مني، حال ما أرى المال في حسابي كل

معاملاته ستوقع ومشروعه سينطلق.

بالمناسبة صديقك هذا عنده يخت وفيلا في الكوت دازير؟

نعم له يخت من أفخم اليخوت في المنطقة.

رائع قل له أن يحجزه لي في الصيف المقبل مع الفيلا فليس

لي وقت لأذهب بعيدا هذه السنة، لهذا أفضل أن أقضي عطلتي

في جنوب فرنسا هذا إذا أراد طبعاً.

بالعكس سيفرح كثيرا بل يشرفه استضافتك على يخته،

سأعلمه بالأمر وسأطلب منه أن ينظم هذه العطلة مع سكرتيرتك

حين يقدم لها معاملات مشروعه.

غداء العمل هذا كان عينة صغيرة للفساد الكبير المتفشي

في وسط رجال السياسة والنفوذ، وعلاقاتهم المشبوهة مع

رجال المال والأعمال.

فكثير منهم لصوص سراق وانتهازيون، يبيعون شرفهم من

أجل حفنة من المال، هذا إن كان لهم شرف أصلاً.

فقد أجادوا فن الخطابة وراحوا يلقون دروساً في الأخلاق

والقيم وحب الوطن، لكن مواعظهم هذه لم تجاوز يوماً

حناجرهم.

شعارات برّاقة وكلمات رنانة يرددونها بمناسبة أو دونها،

محتقرين بها الشعب، ليصنفوه على هواهم، هذا وطني وذاك



أقل مواطنة ليس إلا لأنه مختلف مظهرا أو لونا أو عقيدة مع أن هذه الفئة من الشعب هي الأكثر شقاء ووفاء وحباً لهذا الوطن وأكيد أكثرهم صدقا.

عجبي وكأنهم عقدوا عقدا حصريا مع الوطنية فهم ملاكها، وهم من يوزعها على من يرضون عليه أو يعتقدونه الأجدر بها، وتلاعبهم بهذه الكلمات كتلاعبهم بمشاعر الشعب المطحون الذي جعلوه جسرا للوصول لمآربهم.

مع أن الحقيقة التي غفلوا عنها أن تلاعبهم بالوطنية كتلاعبهم بشرفهم، فقيمة انتمائهم لبلدهم كقيمة كرامتهم، فقد عرضوا الاثنين في مزاد دفن تحت طاولة يباعان بثمن بخس لمن يدفع أكثر.

وفعلا اتجه 'مايرام' مباشرة إلى المديرية العامة للشرطة في باريس أين حدّد موعدا مستعجلا مع المفتش العام لها الذي استقبله في الليلة نفسها حين علم أن الموضوع يتعلق بالحراك الذي تعرفه مدن فرنسا منذ أسابيع.

وبعد محادثات مطوّلة وتبادل أفكار توصل المفتشان إلى نفس الاستنتاجات تقريبا، فقد أعلم 'مايرام' مفتش باريس بأن اليد الملتهبة ملاكم اسمه ريان وهو ينتمي إلى جماعة VAGA التي سطت على كازينو موناكو قبل أسابيع، وهم عبارة عن

عصابة لهم فكر روبن وودي.

هم جماعة ضد النظام الحاكم، إذا وما علاقة هذا الملاكم
بالفنان؟

يسأل مفتش باريس:

الفنان؟! ومن هو؟ يتعجب 'مايرام'

هو شخصية غامضة تنشر فيديوهات على الفايسبوك
واليوتيوب، له متابعون يعدّون بمئات الآلاف شخصية لها
كاريزما وقبول وأسلوب خطابي يحرك حماسة الحجر فيجعلها
تتهاوى من علٍ وكأن سيلا جرفها، بالإضافة إلى لوحاته الثورية
التي تعزّز كلامه الحماسي وتسهّل قبوله فهو معتاد كل ما طلع
على المباشر أطلّ بقلم في يده، يرسم به لوحات معبرة عن واقع
من نسج خياله يصدره لمستمعيه على أنه حقيقة مطلقة، فتتردّد
كلماته كالصدى في أعماق متابعيه وتنحفر لوحاته كالنحت في
ذاكرتهم، فهو شخصية جد خطيرة ومؤثرة والغريب أن المدعو
باليد الملتهبة ينهج على نهجه وكأنهما ينهلان من نفس النبع
والملاحظ أيضا أن الحراك اتخذ منحى تصاعديا منذ ظهرها على
الصورة، لهذا نظن أنهما تابعان لنفس المنظمة، لكننا نجهل
كنه هذه المنظمة ومن يدعمها أو يقف وراءها وما هدفها!

وهل تملكون معلومات أكثر عن الفنان؟



لا فهو شخصية غامضة جدا حتى أثره في الأنترنت صعب جدا تتبعه، فهو يستعمل برامج تضليلية متقدمة وكأنه هاكر من أوروبا الشرقية.

بعد كل ما سمعته وشاهدته من فيديوهات أرى العلاقة وطيدة بين الشخصيتين، وأكاد أجزم أن الفنان الذي له هذه الكاريزما والحضور الذهني في خطابته هو الرأس المدبر لعصابة VAGA، وما يشغل بالي الآن هو باقي العصابة فإذا كانت افتراضاتنا صحيحة وكان هذا هو دور رأس العصابة ودور أحد أفرادها، فما هي مهمة باقي العصابة إذا؟ وما هو هدفهم هذه المرة؟
أعتقد أنهم سيستعملون الحراك لصالح خطة رسموها لسطو جديد!

نعم هذه هي النتيجة التي توصلت إليها.
كلامك منطقي جدا لكن أعتقد أنه هناك أمر ما لم تدركه عقولنا بعد، فخطابات الفنان وكلماته أقوى وأعمق من أن يكون هدفها سطو على بنك أو شيء من هذا القبيل!

اعتكف المفتش 'مايرام' على دراسة ومعاينة الحراك الشعبي معاينة دقيقة محاولا ربط أحداثه وتطوراته مع عصابة «جود»
باحثا عن إجابة للتساؤلات التي احتلت فكره وأرسلت إلى المنفى كل خاطرة قد تخطر على باله، حتى أنه نسي زوجته

وأولاده ونسى معهم كل واجباته، بل نسى أبسط حقوقه كالنوم والأكل... وبعد أن فرش على طاولة قضيّته راح يفكك خيوطها المتشابكة ثم يعيد حياكتها من جديد ليتبع دروبها وتفاصيل طرزها من الأول فتوصل إلى الملاحظات التالية:

البعد الآخر الذي أخذه الحراك منذ أن ظهر الفنان على الصورة ومنذ أن صعد ريان على الحلبة.

ظهور نشاط غريب في وسط حركة البزّات الصفراء على الواقع، وخاصة على المواقع الافتراضية التي عبّجت بحسابات تنشط في نفس الاتجاه وتنهج على نفس النهج، وبعد تمحيص تبين أن كثيرا من هذه الحسابات وهمية وجنود إلكترونية لا عقل لها، مسيرة ببرنامج معلوماتي على الأرجح يدار من نفس الجهاز.

وأخر استنتاج توصل إليه وأهم نتيجة هي قوله:

لو افترضنا صحة استنتاجاتنا بأن الفنان هو العقل المدبّر وأنه هو من زرع ريان في مجموعة «البلاك بلوك».

ومع أن الحراك جماهيري شعبي إلا أن هذا الشعب منقسم إلى تكتلات كل كتلة لها فكرها الخاص ومبادئها التي تميزها، إذا من الراجح أنه زرع في كل طائفة عضوا من أعضاء عصابته.



بهذا المنطق يلزمه جيش لأن الطوائف كثيرة وكلّ أسبوع يظهر فصيل جديد مثل هذا الذي ظهر الأسبوع الماضي الذي سمّي نفسه المناديل الحمر.

يقول أحد معاونيه ساخرا،

هو ليس بهذا الغباء كي يهتم بفرقة مغمورة ليس لها وزن كهذه، أكيد سيختار الكتل التي لها تأثير فيخترقها ويصبح له في كل كتلة عضوا فعّالا هكذا يصبح الحراك بين أصابعه يقلبه كيفما شاء ويوجهه حيثما أراد.

لهذا سنركّز جهودنا على المجموعات التي لها وزن وتأثير في مجرى الحراك.

أريد تقريرا مفصّلا على كلّ فرقة وكلّ التطورات التي طرأت عليها في الأسابيع والأشهر القليلة الماضية، ويجب أن يكون عملنا دقيقا وسريعا، فعلينا أن نصل إلى رأس العصابة في أقرب وقت ممكن، قبل أن يتسع الفتق على الرتق ويكون الأوان قد فات.

* * * * *

**الأمانة! ... لو وضعت على قمة جبل لسوته أرضا
ولنسفته نسفا لثقل وزنها وعظم شأنها.**

فالمحافظ عليها الحارس لها كالجندي الذي يحمي
الحمى، وعند الحدود يذود وكالجني الذي يحرس الكنز من
كلا نفس مشتهية وقلب له مودود.
أما مضيّ عها الخائن لها كالديوث الذي فرط في عرضه
وكالهين الذي فقد شرفه.
وما أكثر خونة الأمانة في مجتمعاتنا، فالعامل الذي
يتحذلق في عمله خائن للأمانة، والحاظنة التي تعامل
الأولاد بقسوة خائنة للأمانة... أما المسؤول الذي يستعمل
منصبه لتبديد ونهب أموال الدولة فهو خائن خيانة عظمى
مثلثه مثل مفشي أسرار الدولة العميك للعدو، فباستغلال
منصبه لهأربه الشخصية يكون قد خان شعباً بأكمله.



الفصل الحادي عشر



بعد نهاية كل أسبوع وتحديدًا يوم الأحد على الساعة التاسعة والنصف، الوقت الذي يكون فيه السوق مكتظًا يجتمع أعضاء VAGA لمراجعة خططهم ومدارسة مهام كل عضو منهم على حدة لينهي جود اجتماعه بأسئلة روتينية اعتاد ختمه بها، وبعد أن دوّن كل المعلومات التي أرادها عن أعضاء جماعته والأيدي الخارجية معهم، وبعد أن ضبط الخطة على القدرات الجسمانية والعقلية لكل عضو أنهى الاجتماع وطلب منهم الانصراف الواحد تلو الآخر على فترات متباعدة محملين بأكياس خضر وفواكه بغرض التمويه، فتح جود باب الشاحنة التي اجتمعوا فيها ليكون ريان أول الخارجين عند الساعة الثانية عشرة وثلث .I2:I5

سيدي لقد اختفى ريان وسط زحمة السوق كالمعتاد، ونحن نبحث عنه منذ ساعتين، نبشنا السوق نبش كلاب الجمارك في السيارات دون جدوى!

ضع شرطيا على كل مدخل بناية من البنايات المحيطة بالسوق حتما سيخرج من إحداها يأمر المفتش 'مايرام' بعد برهة من الزمن وبعد تفتيش دقيق صاح أحد الشرطة بحذر في المايكرفون المزروع في رقبة سترته:

وجدته سيدي وجدته إنى أراه.



أين هو بالضبط؟

إنه عند بائع الحوت في مدخل السوق، إنه يحمل كيسين من الخضر والفواكه، وهو واقف يفاوض البائع عن ثمن القليل من السردين المتبقي لديه.

لا أريدك أن تضيع أثره هذه المرة، راقبه عن قرب.

نعم سيدي أنا على بعد أمتار قليلة منه.

ثم خرجت بعده ليا حاملة أكياس ملابس وأحذية نسائية لتشق طريقها كآية زبونة وسط الزحام وصراخ الباعة مراوغة علب الأحذية الملقاة أرضا ومتفادية الأكياس المتطايرة في الهواء، متحملة ضربات الأكتاف يمينا ويسارا، أما جوليان ورافاشول وفلامير فقد جلسوا على مقاعد الشاحنة كأنهم في دكة احتياط ينتظرون أمر مدربهم بالنزول إلى أرضية الملعب، قبعوا في الشاحنة التي قادها جود متنكرا في زيّ بائع ملابس خارج المدينة، ليكملوا وضع أسس جديدة وآفاق سامية ل VAGA ما بعد العملية الأخيرة.

وفي نفس الوقت تحرّكت السيارة التي تقلّ المفتش 'مايرام' ومساعديه تجرّ أذيال الخيبة، تتقدّم في رعشة وتهتزّ خوفا من صراخ المفتش الذي يضرّب بقوة كالمجنون على لوحة عدادات السيارة:

اللجنة، اللعنة على هذا الملاكم وعصابته لم نستفد شيئا من مراقبته، وها نحن مضطرون لتركه طليقا كي نعاود مراقبته مجددا ولا ندري هل سنصل إلى نتيجة أم لا!.

دخل 'مايرام' إلى المكتب الذي أعاره له المفتش العام لباريس، وعكف يائسا يشاهد ويعاود أشرطة الفيديوهات التي سجّلها معاونوه من على شرفة شقة في البناية المقابلة للسوق، دون أن يصل لجديد، فالتسجيلات لم تكن من الزاوية الجيدة وبينما هو خاشع في الشاشة كشاب مصاب بمرض التوحد دخل عليه أحد مساعديه حاملا فلاشة في يده:

سيدي خذ هذه الفلاشة التي تحتوي على فيديوهات كامرات المراقبة للبنوك والمحلات المحاذية للسوق كما طلبت.

شكرا لك، ضعها على المكتب سأشاهدها فيما بعد، ثم استدار إلى النافذة وأخرج لهيب غيض أبيض من رثيته.

لما هدأ قليلا أخذ المفتش 'مايرام' الفلاشة ووصلها بالتلفاز وجلس يشاهد تدافع الصور، وتوالي اللقطات إلى أن لمح لقطة يتقاطع فيها ريان مع فتاة جميلة فترك لها مجالا كي تمر ثم وشوش لها بكلمات في أذنها فاستدارت وتحتة بتحية أميرات، ثم ابتسمت ومضت في طريقها.



أخذ المفتش جهاز التحكم وأرجع المقطع محدثا نفسه
قائلا:

غريب وكأني رأيت هذا المشهد من قبل.
وراح يعيده مرات ومرات إلى أن قفز فجأة من مكانه وحطّ
على مكتبه أين وضع ملف القضية وراح يقلب في الأوراق
بسرعة إلى أن وصل إلى فقرة شهادات عمال الكازينو فيها
وجد مشهدا مماثلا بين ريان وواحدة من أعضاء العصابة:
حينما أمسكت بالفتاة مهددا إياها... لكمني أحدهم لكمة
أردتني... وأنا على الأرض حنى لها رأسه كجنتلمان وانحت هي
كأميرة وشكرت شهامته...

وجد المفتش أن هذه الشهادة تطابق ما رآه في المقطع،
وأيقن أنه من الاستحالة أن يكون هذا التطابق صدفة، لهذا أمر
مساعديه بتكبير صورة الفتاة ووضعها على الحائط والتحري
عنها، وشدّد على أن يكون ملفها حاضرا غدا مساء على أكثر
تقدير فالوقت ليس في صالحنا.

وبالفعل يوم غد وجد 'مايرام' ملفها على مكتبه فالأمر
لم يكن بالشاق فوجهها مألوف ومعروف عند العديد من
المساعدين فهي تنتمي إلى جماعة الفيمينيست جماعة حقوق
المرأة المتطرّفة، ولها فيديوهات جريئة جدا جعلتها تصدر

المشهد على عديد من الصفحات الفايسبوكية والنشرات التلفزيونية، على غرار ذلك الفيديو الذي تسلّلت فيه إلى قاعة البرلمان بصدر عار تنتقد فيه دور المرأة المهمش في الحياة السياسية.

فرح المفتش لمّا وجد الملف وعلم أنه في الطريق الصحيح وأن منطقته سليم في تفسير الأمور وتحليلها، فأمر بمراقبة الاثنين مراقبة يومية.

فقد اقتربت نهاية اللعبة واشتدّ الخناق على العصابة وبدؤوا في التساقت كسلسلة دومينو تجر الأولى التي تليها إلى أن تسقط آخر قطعة.

وقد سهلت عليهم مأمورية مراقبتهم إذ وكل جود لريان وليا مهمة رصد البنك المركزي الفرنسي الذي فيه تطبع عملة اليورو ومنه توزع لكل بنوك البلد.

وكانت الشرطة ترصد كلّ تحركات المجرمين خاصة حين تواجدهما في البنك أو حوله، وكان ليا وريان يراقبان كل تحركات البنك مسؤوليه وعماله وشاحناته.

في الاجتماع الأخير دخل ريان وليا حاملين تقريراً مفصلاً عن آخر تحركات البنك المركزي لباريس، وسلّماه لوجود الذي أمسكه ورمى به على الطاولة. ثمّ سكت طويلاً ورنّا في الحائط



بعيدا وكأن عينيه اخترقتاه ثم حدّق في كل واحد فيهم وقال:
اقترب يوم الحسم، اليوم الذي تكلّل فيه مجهوداتنا بالنصر
أو بالموت أو ننتهي في قبو مظلم لما تبقى لنا من حياة! فالأمر
هذه المرة عظيم والهدف منه أسمى وبالتالي الخطر فيه أكبر
وردة فعل السلطة ستكون أعنف، لكن نظرة الإصرار والثبات
التي أراها في أعينكم تعطيني جرعة كبيرة من الشجاعة والله
وحده يعلم كم أنا محتاج لهذه الشجاعة يقول هذا ويدها
ترتعثان إثارة وخوفاً، خوف من المجهول وخوف على أصدقائه
وخوف على الثورة وخوف على الشعب من بطش الدولة...
وبعد خطبة حماسية وتحسيسية بخطورة المهمة وعواقبها
لو فشلت أو نجحت أرسل لكل من ليا وريان ورافاشول تطبيقا
على هواتفهم ثم قال شارحا:

هذا تطبيق إنذاري يتحكم به فلاديمير التطبيق نفسه لكل
واحد فيكم، الاختلاف الوحيد في الشكل واللون والشعارات،
وهذا ليتماشى مع فكر كل مجموعة تنتمون إليها، ومهمتكم
الآن هي أن ينزل هذا التطبيق على هاتف كل منتم أو متعاطف
مع المجموعة يسكن مدينة باريس وضواحيها في مدة لا تزيد
عن أسبوع. أما التطبيق الرابع فسيرسله فلاديمير بمعرفته
إلى كل من ينتمي إلى حركة البزة الصفراء وطلبة الثانويات

والجامعات.

ثم أعلمهم أنه لا اجتماع بعد اليوم وأن تجمّعهم بعد هذا سيكون ساعات قبل الشّروع في تنفيذ الخطة، ثم أنهى الاجتماع وانفرد بنفسه.

ولمّا مالت الشمس إلى مغربها حمل هاتفه كعادته واتّصل:

ألو إنايا كيف حالك؟

أنا بخير وأنت؟

بصحة جيّدة.

وجوليان كيف حاله لم يكلمني منذ أيام أخاله مشغولا جدا.

هو بخير ويبلّغك سلامه، صحيح هو مشغول كثيرا هذه

الأيام، وفي حقيقة الأمر المجموعة كلّها مشغولة.

إذا أنتم بصدد تحضير سطور جديد! أتمنى لكم كلّ التوفيق.

شكرا لك، والمجموعة بحاجة لك مرّة أخرى.

سكتت إنايا قليلا، ثم قالت:

قبلت المرّة الماضية بالانضمام لكم عرفانا لصنيعكم معي

ومع عائلتي طوال السنين السالفة، ولحبي الكبير لك.

أنا أيضا أحبّك.

سكتت إنايا قليلا ثم قالت هنا يكمن المشكل يا جود،

فأنا أحبّك كأخي الأكبر وأنت لا.



لم تقولين هذا!!

لقد كبرت يا جود وأصبحت أفرّق بين نظرة الأخ ونظرة العاشق ونظراتك لي وطريقة كلامك معي تعذبني، فأنا لا أريد خسارة أخي لهذا أفضل أن أبتعد وأهجر قارة أوروبا بأكملها. تبتعدين! وأين وجهتك؟

سأنتقل للعيش في مدينة أمي في جزر القمر حيث سأساعد في تطور هذا البلد الجميل الذي يستحق وضعاً أحسن مما هو عليه.

ومتى موعد سفرك؟

الأسبوع المقبل...

بعد أن أغلق جود الهاتف فتح الحاسوب، أمسك بالقلم وأطلق العنان لحنجرته:

أيها الشعب العظيم بتاريخه والمجيد بانتفاضاته، يشرفني أن أكون معكم في حراككم عوناً لكم على من عاداكم، ويسعدني أن أقاسمكم أحزانكم وأشاركم أفراحكم، أيها الأحرار لقد طفح الكيل وكثر الميل وانحرف من في يده الأمر، فعمّ الفساد وكثر الغي، فقد ثبت لنا بما لا يدعو للشك أن أكثر أهل السياسة دخلاء أدعياء وأقلهم مخلصون أصفياء، وهذا ما دفعكم للتجمهر عنوة والاحتشاد قوة، فثباتكم شاهد على

رباطة جأشكم وقوة شكيمتكم، لهذا اسمحوالي أن أستغل اليوم منبري لأرفع لكم القبة احتراماً وأنحني لكم إجلالاً وإعجاباً لما قدّمتموه طوال أسابيع الحراك... لست في الموضوع الذي يخوّل لي إعطاءكم دروساً، فمنكم تعلّمنا معنى الشّجاعة والإقدام فأنتم قدوتنا وقادتنا ونحن الجنود والخدم فأنتم السادة نخدم آراءكم واتجاهات أفكاركم.

أما خطابي الليلة فأتوجّه به للمتقاعسين من حزب الأريكة الذين يكتفون بمشاهدة ومتابعة الأحداث من متّكئهم في الصالون عبر شاشات التلفاز:

أصدقائي وأبناء بلدي أعلم أنهم أرهبكم بعصيتهم وغازاتهم المسيلة للدموع وقمعوكم بأسلحتهم ومعتقلاتهم وقوانينهم الجائرة محاولين قتل النخوة فيكم وحب الحرية وزارعين فيكم الذل والعبودية، صحيح سلبوا منكم المال والخيرات واستفردوا بالرأي وألقوا لكم بالفتات لكن اليوم يوم الفصل يوم استرداد الحقوق قاطبة وأخذ الحرية كاملة.

حرية لا يشوبها نقص، فلن نكتفي بعد اليوم بالمسرحية البائسة التي تعاد كل خمس سنوات. فإذا انتفضتم في وجه الشر وتحلّيتم بقليل من الشجاعة نلتم كلّ الخير ونهلتم من السعادة كثيراً.



قد يكون كلامي هذا مبهما لأسماعكم لكنه دون شك ظاهر للعقول، فاسمعوه بعقولكم.

وحينما أذكر العقول فإنني أخصّ بالذكر العقول النيرة ذات المنطق السليم والتركيب السوي، وأنا أعلم علم اليقين أن هذه الخصال تنطبق على عقولكم. يكفي فقط أن تمسحوا الغبار من على بصيرتكم لتتكشف لكم الحقائق وتنزعوا من على نُهاكم غطاء الخوف من المجهول كي تعوا ما أقول، فقد حان الوقت لتكونوا أسيادا لا عبيدا وأن يكون لكم أفقا واسعا سعة مخيلتكم وآمالكم وأن لا تكتفوا بفتات مهيتكم أو معاشاتكم أو بورقة دون قيمة ترمى في القمامة كل خمس سنوات يوهموكم بها بحرية زائفة.

وكي تكونوا سادة أمركم وجب عليكم أولا أن تتحدوا على كلمة رجل واحد وأن تضربوا بقوة بقبضة واحدة...

وأما من أبى الحرية واختار العبودية وآثر الذلّ على الكرامة، فلا مكان له بيننا، ولا حقّ له في مقاسمتنا ما سنجنه من خير ورفاهية وتطورٍ وعظيم حضارة.

سيدي وصلتنا أخبار مهمّة جدا.

المفتش 'مايرام': أي أخبار؟

لقد شاع في وسط بعض المجموعات تطبيق هاتف غريب.

أي تطبيق هذا وما نوعه؟

و كأنه تطبيق إنذاري يهدف للمّ شمل المتظاهرين في وقت مفاجئ غير ما اعتادوا عليه وغير الأيام التي درجوا على التظاهر فيها، والغريب الملفت للانتباه أن هناك ثلاث مجموعات لها نفس التطبيق وزعت عليها في نفس الوقت وحتى حركة البزات الصفر التي ليس لها تنظيم موحد انتشر في وسطهم تطبيق مشابه، مع أن الكثير منهم رفض الفكرة واعتبرها خطيرة على مستقبل الحراك.

فهذه الفئة التي كانت غالبية كان رأيها أنّ تغيير يوم التظاهر وجعله في أيام العمل بدلا من أيام عطلة نهاية الأسبوع سيؤلّب عليهم الشّعب وينفّر منهم الجموع، لكن مع مرور الأيام رجحت كفة المطالبين بتنزيل هذا التطبيق بعد أن انهال جيش عرمرم على هذه الفئة بسيل من التعليقات التي تصفهم بالجبن والتخاذل وأحيانا بالتخوين من طرف بعض المتعضّيين مع كمية لا بأس بها من الإيموجي أغضبني وكمية قلوب حمراء تتساقط برفق كأنه عيد الحب على الرأي الآخر، فاتبعت الأغلبية الحقيقية الأغلبية المصطنعة ونجح جيش الأنترنات الموجه من جهة ما على التأثير على رأي الأغليّة الذين انصاعوا مكرهين لضغط الإيموجي درءًا للفتنة واجتنابا لصدع مدمر للحراك.



هذا الخبر وهذه التفاصيل تثبت نظريتي وتحليلاتي يقول
المفتش 'مايرام' ثم يضيف:
أريد هذه التطبيقات حالا على هواتف متفرقة سأتابعها
بشكل خاص، ومتابعتي لها لا تعفيكم من تنزيلها ومراقبتها،
يجب أن نكون أكثر حرصا ويقظة من ذي قبل، فوقت تنفيذ
خطتهم ليس ببعيد، وعلينا أن نكون يقظين وجاهزين أربعا
وعشرين ساعة فخصمنا ذكي ويستطيع خداعنا ومباغتتنا في
أي لحظة.

ومنذ الليلة سأبيت أنا ومجموعة معي هذه الأيام في شقة
مقابلة للبنك الفرنسي نرصد من خلالها كل حركة طارئة وكل
شخص غريب وأي حدث يستجدّ توافوني به هناك.

* * * * *

فئة كبيرة من الشعب تغيّر أفكارها وقناعاتها لا
باستعمال العقل أو نتيجة لقراءة الأحداث قراءة معمقة أو
حتى مبسطة، بل العاطفة هي المحرك الرئيسي لدفة
معتقداتهم، فإشاعة مقنعة أو شيطنة ممنهجة تجعل
من قطيع كبير يغيّرون نظرتهم نحو فئة ما دون سبب
فيحقدون عليهم ويتمنون اختفاءهم من حياتهم مع



أنهم تعايشوا لسنين مع بعض في تناغم.
مثلا ذلك الفرنسي الذي تعود أكل طبق الكسكسي
اللاذخ وحلويات المقرود الشهية من يدي جارتة المحببة،
لكن بعد الهجمة الشرسة على مرتدي الحجاب تفطن فجأة
أن تلك المرأة الطيبة الكريمة خطر على حضارته، وأن نصف
متر قماش على رأسها أخطر من جيش عرمرم أو قبيلة
نووية... !



الفصل الثاني عشر



وبعد كَرّ وفر الليل والنهارها هو صباح يوم الثلاثاء يطل بنوره زاحفا كالجيش مخلصا المدينة من قبضة الظلام الذي ما انفكّ بالتقهقر مستجيرا بكهوف الجبال وثغور السهول وها هم فرقة VAGA يصلون تباعا إلى الشقة التي حضرها لهم جود كي يعتكفوا فيها ساعات قبل الانطلاق نحو الهدف، وهذا بعد مراوغات محكمة ومناورات منهكة لأعين الشرطة بغية التخلص من حراستهم اللصيقة.

كان كلّ من في الشقة منطويا على نفسه وكانوا قليلي الكلام، كثيري التركيز، منشغلين بتجهيز أنفسهم وتحضير معداتهم، ومراجعة المهام المنوطة لكل فرد منهم. أما جود فكان يجول في الشقة كالممرض يتفقد مرضاه، فوجد فلادمير جالسا على كرسيه خاشعا مع حاسوبه، فربّت برفق على الجهة العلوية من ظهره وحدّق في عينيه بسماحة، ثم قال: كيف حال الصديق الروسي الحبيب الذي سعدت بالعمل والتعامل معه؟ الوقت يمرّ بسرعة الضوء يا رفيقي أتذكّر أول يوم كلمتك فيه في منتدى عالمي للهاكرز (قراصنة الأنترنت)، فقد راقبتك لأسابيع وتابعت مواضيعك التي عبّرت بشكل واضح عن طيبة قلبك ورقّي فكرك فكلّها كانت تصب في مصلحة المحتاجين.



مثل مساعداتك للطلبة في البلدان الفقيرة بتوفير برامج باهضة الثمن لهم بالمجان، مهمّة لدراستهم أو قرصنة تذاكر طائرات وتوزيعها على المرضى المضطّرين للسفر من أجل العلاج...

يبتسم فلاديمير قائلاً:

فعلا الوقت يمرُّ بسرعة عجيبة، أتذكر جيّداً ذلك اليوم فقد ظننت في بادئ الأمر أنّك شرطي يريد الإيقاع بي بسبب ما ارتكبته من مخالفات قانونية، فلمّا قرصنت حاسوبك ضحكت حين لاحظت أن طلبك غير منطقي! فكيف لشخص ليس له أيّ اهتمامات بالأنفورماتيك يطلب مني تعلّم القرصنة، لكنّ لمّا تبادلنا بعض الكلمات ارتحت لك واطمأنت نفسي أكثر يوم التقينا في أوكرانيا وعرضت علي مشروعك المتعلق بـ Vaga فقد راققت لي الفكرة وأحببتها وأحببت بعدها العمل في فريقك فشرفت لي فعلا أن أكون ضمن هذا المشروع الإنساني فلولاك لانتهى بي الأمر في عصابة إلكترونية روسية أو منظمة إرهابية، فبعد خيبة أملي الكبيرة في دراستي كنت مهيباً نفسياً لعمل أي شيء حتى ولو كان الانضمام إلى حركة إرهابية، لكن لحسن حظّي عيناك وقعت عليّ واخترتني ثم أعطيت لحياتي التعيّسة هدفاً ومعنى أعيش من أجله.

اتجه جود ماشيا نحو الركن المقابل للغرفة أين كانت تقف ليا، واتجه فلادمير بفكره نحو ركن بعيد في ذاكرته أين خيم هناك رئيس قسم جامعته بنظرته المتعجرفة أحيانا والساخرة أحيانا أخرى، وبنظاراته التي تنزل على أنفه الطويل وبدلته التي اشتراها يوم خطوبته قبل ثلاثين عاما.

صوت قرع باب... توك توك توك...

أدخل فالباب مفتوح... آ هذا أنت يا سيّد إيفانوف، تفضّل أدخل فأنا في انتظارك... تفضّل، اجلس... اجلس، أسمح لي بمناداتك بفلادمير كي نرفع الكلفة؟ فأنت في سن ابني 'يوري' إنه معك في نفس الدفعة.

أجل.. أجل سيدي يشرفني ذلك.

بل جامعتنا من يشرفها تواجد طالب بقيمتك العلمية وتفوّك الملحوظ وعلوّ كعبك على باقي التلاميذ، أكيد أبواك فخوران بك.

أخجلتم تواضعنا سيدي شكرا على هذه الشهادة التي أعتز بها، أما تفوّقي فهو راجع لسياستكم العلمية المتّبعة والمستوى العالي للأساتذة الكرام...

بعد هذا الكم من الإطراء والزخم الهائل من النفاق والرياء قرّر رئيس القسم الدخول في الموضوع.



أنت تعلم يا فلادمير أن المتخرج الأول على دفعته، جامعتنا تجازيه بمنحة مالية زائد حق في تقديم رسالة دكتوراه دون الخضوع لمسابقة أو امتحان، وأهمّ من هذا كلّه منحة تدريبية في أكبر شركة معلومات وأجهزة حاسوب في العاصمة موسكو. ثلج صدر فلادمير لما سمع وأصاب نفسه السرور والغبطة وغمر جسمه بعض من الاسترخاء الذي جعله في انسجام تام مع الكرسي الجالس عليه، يحسبهما الناظر جسما واحدا، لكن هذا الشعور الجميل لم يعمر كثيرا وتلاشى أول ما سمع كلمة «لكن» فكلمة لكن دائما ما يأتي بعدها خبر سيئ لكن سيّد فلادمير الجامعة ارتأت أن حالتك العائلية لا تسمح لك بأن تستفيد من هذه المنحة بالذات.

ماذا! عن أيّ منحة تتحدث لم أفهم؟!

كما قلت لك حالتك العائلية لا تسمح لك بأن تسافر لموسكو،

أي حالة عائلية؟ وما دخل عائلتي بالموضوع؟!

يا فلادمير يا بني الحياة في موسكو مكلفة جدا والمنحة المالية لا تكفي حتى مصاريف النقل والسكن، ونحن نعلم أنك تعول عائلتك بعملك كنادل في مطعم بعد الدراسة...

تشنّج وجه فلاديمير واحتدّت نظراته واحتدم وجهه غضبا وراح يقتلع جسده من الكرسي وكأنه يخرج من جلده حتى انتصب واقفا... ثم قال:

ماذا تريد أن تقول أعطني لب الكلام دون اللعب على وتر المشاعر.

حاضر يا سيد إيفانوف وأنا أيضا لا أحب هذا الأسلوب، اتّبعتك معك لطفًا لا غير، نعم قرّرت إدارة الجامعة أن تعطي المنحة التدريبية والمالية لتلميذ آخر له القدرة على العيش في موسكو أما أنت فستكتفي بتقديم رسالة الدكتوراه دون امتحان، وهذا الأخير كان بطلب خاص مني.

لا برافو... أحسنت فعلا أنا ممنون لك، وأشكرك على هذه المروءة والسّخاء... أتسخر مني؟ تسلبني حقي كاملا وتعب أعوام وحلم طالما راودني ثم تعطيني القليل منه لتصور لي أنه كرم منك!! أتخالني أبلها ألم تنتبه بأنك تخاطب الأول على دفعته، هذا حقي وأريده كاملا لا نقص فيه.

هدى من روعك يا سيد إيفانوف، الأمور تؤخذ بروية ثم إن الأمر قطع فيه وأرسلت الأوراق إلى مرسكو.

الآن تدعوني بالسيد إيفانوف ألم أكن بمثابة ابنك منذ قليل، وأي روية وأنت تقضي على أحلامي وتقتل طموحاتي...؟



الحياة لا تقف عند حلم ضائع فهي مليئة بالأحلام يقول
رئيس القسم ثم يردف:
خذ عندك أنا كمثال لطالما حلمت مثلك بهذه المنحة،
ولم يسعفني الحظ لنيلها، وها أنا رئيس قسم ودكتور وأستاذ
محاضر...

ليا الجميلة كيف حالك؟

التفتت إليه وهي تلبس حمالات غريبة كانت قد صممتها
خصيصا من أجل هذه العملية بالذات، التفتت ورمقته بنظرتها
الساخرة التي تجعلك تبسم دون أن تعرف سبب ابتسامتك،
نظرة تجعلك تنسى هموم الدنيا وتهيك نفسيا لتمضية وقت
لطيف ومبهج، تلك النظرة المستهزئة بالدنيا وما عليها من
هموم، نظرة تشعرك بالمرح حتى في أصعب الظروف وأحلك
الأيام، فقد أصبح المرح والضحك والتنكيت دستور حياتها
فقد أدركت بعد وفاة والديها أن الحياة بما فيها من مغريات لا
تساوي جناح بعوضة وأن الحزن والغضب والتوتر لن يرجعوا ما
ضاع أو يصلحوا ما كسر، فاختارت عوضا عن هذا الحزن الفرح
وعوضا عن الغضب الطرب وعن التوتر الهدوء، فتشكّلت من
حولها هالة من السعادة والانتشاء تغمر كل روح اقتربت منها
وتحدثت معها.

على ما يرام سعيدة كعادتي تجيب ليا.

وكيف حال التجهيزات؟

على أكمل وجه، لقد صمّمت هذه الحَمّالات خصيصا لهذه العملية، فهي جدّ متينة ولها قدرة تحمّل كبيرة ويتوزّع من خلال هذه الجيوب الوزن بطريقة متوازنة، حيث لا يشكّل عائقا كبيرا لمن يلبسها.

ثمّ اقتربت من أذنه وكأنها تريد إخباره سرّا خطيرا، ثمّ قالت له بصوت خافت فيه كثير من الجدّية:

أتدري لم تصلح هذه الحَمّالات لغير الحاجة التي صنعت من أجلها؟

لمّ تصلح؟ يسأل جود باستغراب.

لاختطاف الرجال.

اختطاف! أي رجال تريد أن نختطف؟ لم أفهم قصدك!...

يزداد تعجبا.

ليس أنتم من سيختطف بل أنا من سيتولّى الأمر فقد مللت احتضان الوسادة، فكل ليلة أخلد فيها إلى مضجعي أجده باردا مهجورا لا روح فيه، لهذا قرّرت أن أختطف رجلا بعد الانتهاء من عملية السطو على البنك...، أنصحك أن تنتبه لنفسك فقد تكون أنت الضحية، وأنت تعلم ماذا يمكنني فعله بك إذا اختطفتك.



سلك الخجل جميع الطرق السريعة في جسد جود إلى
أن ازدحم فجأة في وجهه الذي احمرّ واقترب من لون فانوس
السيارة الخلفي، ثم تقهقر مبتعدا عنها وهو يضحك مكتفيا
بجرعة المرح التي نالها من ليا... التي صاحت ضاحكة:
إلى أين أنت ذاهب يا فنان؟ خائف أنت مني! لا تخف فلن
أختطفك اليوم ف VAGA بحاجة لك...

حرك جود رأسه يمينا ويسارا دون أن يلتفت لها ممتنعا
عن الرد مكتفيا بابتسامة عريضة، واتجه نحو ريان الذي كان
مستلقيا على ظهره واضعا كلتا ذراعيه على عينيه فاتحا رجليه
ويهزهما هزات صغيرة متوالية وبنفس النسق، جلس جود إلى
جانبه واضعا ركبته اليمنى على الأرض واتكأ بيده على ركبته
اليسرى وأمسك برجل ريان وقال:

كيف حالك كوتش (مدرب)؟

رفع ريان يديه قليلا وتوقفت رجلاه عن الحركة.

جود هذا أنت... أنا بخير وأنت؟

خائف قليلا لكنني بخير

من الطبيعي أن تخاف فلو لم تقل لي أنك خائف لقلقت
على مصيرنا يوم العملية، فالشعور بالخوف هو ما سيجعلك
أكثر حيطة وأكثر تركيزا، ثم إن الخوف سيتلاشى مع أول ثانية

نبدأ فيها تنفيذ خطتنا تماما مثل الملاك الذي يقف على حلبة المصارعة وركبه ترتعد خوفا من خصمه ومن صيحات الجمهور الهستيرية، لكن خوفه يزول أول ما تلامس قفازاته قفازات خصمه، هنا سيدرك أنه لا مجال للتراجع وأنه لا خيار له سوى المصارعة فإما يسقط خصمه وينال منه أو يسقط هو أرضا وينال شرف القتال بشجاعة وتقديم أحسن ما في جعبته. أعتقد أنك جاهز يا ريان وهذا مطمئن، أنت تعلم أنني أعول عليك كثيرا.

أنا جاهز فعلا فكلما أغمضت عيني رأيت نفسي فوق الحلبة في وضعية استعداد منتظرا صوت الحكم معطيا إشارة البدء.

ضرب جود على رجل ريان وقال له:

تعلم أن انتظارك لن يطول كثيرا وأتمنى أن تكون نهاية النزال في صالحنا...

ثم نهض متجها نحو رافاشول تاركا ريان مستلقيا على الأرض راخيا عضلاته، فوجده جالسا على الأرض جاحظ العينين لا يكاد يحرك جفونه فانكب عليه وعانقه قائلا:

إلى أين ترنو عيناك يا صديقي؟



إن روجي تطوف أزقة المدينة المثالية التي طالما حلمت بها، فقد اشتاقت نفسي لها، إنني أتخيل سعادة الناس وبهجتهم، تكاتفهم وترباطهم، حبهم واحترامهم المتبادل. أمن وسكينة تجوب شوارع المدينة، كل عنصر من سكانها له دور فعال وأهمية مهما كانت وظيفته أو مستواه المعيشي، أهميته تكمن في إيجابيته نحو أسرته وجيرانه ومجتمعه بغض النظر عن لون بشرته أو دينه وهندامه، عكس ما نعيشه ونسمعه في عالمنا هذا الذي كثر فيه الروبيضة.

قال القديس أغوستينوس حين سافر من الجزائر نحو روما مقولة شهيرة:

في روما افعل ما يفعله الرومانيون أو في روما عش كما يعيش الرومانيون.

هذه المقولة أفرغها الأغبياء من لبها واكتفوا بقشورها، فلباس الروماني وأكله أو حتى اسمه عادات لا تتعدى العشرة بالمئة من حياته ومبادئه، هذه المقولة المليئة بالحكمة والتي تصلح لكل مكان وزمان استعملها الكاتب زيمور فيلسوف زمانه لإقضاء فئة من الشعب واضطهادهم فكريا ومعنويا، فبخبت صدر للناس النسبة الصغيرة التي اختلفت بها هذه الزمرة عن باقي الشعب وغض البصر عن ما هو أهم وأفيد لكل.

فخمار فاطمة لم يمنعها من إعطاء رعاية حسنة للشيخ جون فرونسوا، والعجوز غوزلين القابعين في دار المسنين، فبعملها الإنساني هذا تقدم خدمة جلييلة للمجتمع، ضف إلى ذلك مساهمتها في اقتصاد الدولة بدفع الضرائب وتحريك عجلة السوق بالبيع والشراء مع احترام الناس وتطبيق القوانين... كل هذه المبادئ المشتركة مع باقي الشعب لم تشفع لها أمام غباء وحقد من هم على شاكلة زيمور، فقد دققوا النظر في قطعة القماش التي على رأسها وأغمضوا الجفون على كل الصفات الحميدة والأعمال المفيدة التي تقوم بها يومياً كأي مواطن صالح، فأنا كفرنسي أبا عن جد أجد نفسي أقرب لهذه المرأة الرائعة من ذاك البرلماني الذي نهب من أموال الشعب وأعطى لزوجته وابنه مرتبات خرافية دون تقديم خدمة فعلية، فهي أشرف وأكثر مواطنة منه، ثم كما ترى فأنا هندامي وتسريحة شعري مغايرة تماماً لتقاليد بلدي حتى أكلي مغاير فأنا نباتي فهل هذا يقلل من وطنيتي؟ إذا كان لا فلماذا يقلل من وطنية مامادو أو فاطمة أو محمد...

أتدري يا رافاشول أمثال هذا الكاتب هم أبواق تُنفخ فيها أنفاس النظام الحاكم لتصدر الأصوات التي تصب في مصلحته، فمصلحة من يتحكمون فينا أن نبقي مشتتين منقسمين



متصارعين لتسهل عليهم مهمة تسييرنا والتحكم في مصائرنا، وهذا المدعو بزيمور أحسن من يخدم أجنادات النظام الحاكم مع أنه يوهمنا بأنه معارض، ثم العجيب في أمره أنه يذكرني بشخصيات مرعبة في تاريخ البشرية مثل نابوليون الإيطالي المنشأ الذي أوهم الشعب أنه أكثر فرنسية من الكل وأدخلهم في حروب عالمية لإشباع رغباته الدموية، وأيضا مثل هتلر النمساوي المنشأ الذي أوهم الكل أنه أكثر ألمانية من الألمانين وجرّ شعبهم نحو دمار شامل ومجازر يندى لها جبين البشرية وها نحن الآن أمام ظاهرة بنفس المنطق ونفس الفكر، يهودي جزائري يريد أن يقنعنا أنه أكثر فرنسية من شارلمان ومن حسن حظنا أن منصبه لا يتعدّى بهلوان على الشاشات وأنه أجنب من أن يقود جيشا كما فعل نابوليون، وإلا لذكرنا بمجازر كانت البشرية قد تجاوزتها منذ زمن.

أحلم يا جود بمدينة الشعب فيها هو الحاكم هو الأمر وهو الناهي، هو المشرع والقاضي، أحلم بمدينة لا ينتظر فيها شعبها رئيسا يحل مشاكلهم ببلاهة وسذاجة اقتصادية مثل الذي قال لصاحب الشهادة العليا اقطع الطريق لتجد عملا كنادل في مطعم، وكأن الشاب الذي درس أعواما ليكون إطارا في الدولة ينتظر نصيحة ذاك الشخص الذي يعيش في عالم مغاير تماما

لعالمنا كي يعمل كنادل، ثم لماذا يدرس ويأخذ شهادات
ويخسر أعواما من حياته وجهدا من جسده كي ينتهي به الأمر
كأي شخص يعمل دون تكوين؟...

أحلم يا جود بمدينة لا يستعطف فيها رب أسرة مصرفي
البنك أن يقرضه مبلغا من المال كي يسكن وعائلته بكرامة في
منزل يليق بهم، أحلم بالحرية من كل هذه القيود يا جود...

سننالها عما قريب يا رافاشول ونبين لكل أن هذا الشعب
ليس بحاجة لمرضى نفسيين كي يقودوه، أشخاص كل همهم
دخول التاريخ وكتابة أسمائهم في القائمة الذهبية لحكام فرنسا،
لا خدمة بلدهم وهددة الهموم من على كاهل هذا الشعب
العظيم، مثل ذلك الشيخ الهرم الذي استجدى الفرنسيين
بالتصويت له لأنه طاعن في السن موضحا أن هدفه الترشح
لعهدة واحدة، وكأن لسان حاله يقول أرجوكم اجعلوني رئيسا
عليكم لمرة واحدة كي أنال حسن الخاتمة وأختتم حياتي
ومسيرتي السياسية في أعلى منصب في الدولة، وكأن كل همه
سيرته الذاتية وسجله الشخصي فقط، وليس من أجل النهوض
باقتصاد البلد واقتلاع مشاكل الشعب من جذورها.

لو حالفنا الحظ في خطتنا هذه ونجحنا في خلط أوراق هذا
النظام، فإننا سنعمل على تقديم مقاليد الحكم ومفاتيح القيادة



للشعب، فيكون سيّد أمره وصاحب قصده ليقود البلاد لمصلحة
جماعية لا لمصالح شخصية أو إشباع رغبات ذاتية.
خطى جود خطوات في ممرّ ضيق، جدرانها فارغة إلا من
ثقوب ومسامير لإطارات صور أو لوحات كانت معلّقة من قبل
لم يبق منها إلا بصماتها الصّفراء، حتى وصل إلى غرفة مظلمة
يكسر سوادها بعضاً من خيوط نور دخلت متطفّلة عبر شبابيك
مغلقة، كان يجلس فيها هناك على الأريكة جوليان شاحب الوجه
مهموماً.

ألا تعتقد يا جود أن مخيلتنا ذهبت بعيداً، لقد كانت أفسى
أمانينا أن نأخذ مالا من غني متجبر ونعطيهِ لفقير مستضعف
لكن أن نسقط أنظمة ونستعدي دولاً وجيوشاً فهذا جنون، فالنظام
الحاكم مرتبط بدول كبرى، لن يقبلوا أن تمس مصالحهم ولو
سقطت فرنسا يسقط معها الاتحاد الأوروبي ولتضررت معها
مصالح أمريكا أنتصور عظم المهمة التي نحن بصدد تنفيذها!
فالإخفاق ستكون عواقبه وخيمة وحتى النصر سيضعنا أمام
حتمية البناء من الصفر.

لو كنت ترى يا جوليان أن مهجتنا أبحرت بعيداً مواجهة
أمواج عاتية بصدور عارية، فنقص نظر من يحكمنا هو سبب
مغامرتنا أو تهورنا أو حتى جنوننا إذا أردت رؤيته جنوناً، فقد

أعمى المال والنفوذ بصيرتهم فأصبحوا لا يرون مصائبنا ولا يسمعون آهاتنا فبحر ظلمهم اجتاح كل أطراف المجتمع شيخا وشابا...، أما نحن فلسنا مكلفين بالنجاح والنصر لكننا مجبرون على التحرك خاصة وأن الشعب انتفض من عنديته ونحن لم نحركه ولكننا جزءا منه!، إذا لزم علينا الكفاح والنهوض ضد الظلم ومساندة من خرج محتجا.

ومن يعلم قد تأتي النتيجة بكثير من الحظ والتوفيق وإن أخفقنا فعلى الأقل سنكون قاعدة ينطلق منها من سيأتي من بعدنا، فالنصر يأتي خطوة خطوة وقد تقدّم من كان قبلنا خطوات نحو العدل والمساواة وها قد جاء دورنا لنمضي قدما نحو العزة، وما أدراك، قد نكون نحن الجيل الذهبي الذي سيصل بهذا الشعب إلى برّ الأمان وإلى الحياة المنشودة: عيش بكرامة يا جوليان!!

أم نسيتها؟

ألم تكن هذه كلماتك التي طالما ردّدتها مذ كنت مراهقا؟!
أتعلم؟ أنت من غرس في عقلي هذه المبادئ النبيلة وأنت من دلني على الطريق، صحيح أنا من خطط ورسم معالم مجموعة VAGA لكن أصل الفكرة أنت، فقد استقيتها من كلامك وأفعالك فأنا يوم ثرت، ثرت لألم شخصي فقد انتفضت



لآلام أبي، وأبي قد ذهب بعد صراع مريع مع المرض وذهبت
آلامه معه، وانتفضت لنفسي ونفسي احتقرتها واحتقرت عذابها
الهيّن أمام مهانة الشيخ الكبيرة في ذاك المطعم أتذكره؟ إذا
كنت نسيته فأنا أتذكره جيدا، أذكر ذاك اليوم حين قفزت
كالنمر في وجه صاحب المطعم دفاعا عن مستضعف أهين أمام
ناظريك، فوجهه الضعيف وشهامتك اتجاهه هما من أيقظا في
نفسي حب نجدة المستغيث ومساعدة المسكين.

ففضلك أنت نحن هنا!

وتأتي بعد كل هذا المشوار وعند المنعرج الأخير ترتد على
عقبك وتخذلنا وتخذل هذا الشعب الذي بك استغاث!!
لم ولن أخذلكم يا جود قال هذا وهو يضغط بشدة على
يديه ثم أضاف،

ربما هو الخوف والرهبة يا صديقي.

ومنذ متى يخاف جوليان حينما يقف بجانب الحق مدافعا
عن المغلوب على أمره؟!

ابتسم جوليان واستردت بشرة وجهه لونها الطبيعي
واستجمع قواه واسترجع شكيمته، ونهض وحضن صديق عمره
حضن الأخ لأخيه وقال له:

سننجح يا جود ما دمت أنت من صمم هذه الخطة فسنتنصر
ونصل لأهدافنا النبيلة.

ابتعد جود مصطحبا معه همومه لينزوي بعيدا عن أعين
رفاقه وليقف في زاوية ضيقة لا تسع سواه مواجهها نفسه بكل
مخاوفه... ووقفت أمامه همومه تستجدي لها مكانا بجانبه
لتقاسمه هواجسه... فلم يجد لها إلا كتفيه مكانا شاغرا
فأجلسها فيه رغم ثقلها وراح ينتظر أفول الشمس في منظر
قد تجده مشابها لامتحان تحدي التحمل في برنامج كوهلونت
kohl-lanta الذي يذاع على قناة tf1 أين يقف المتسابقون يثقل
كاهلهم أوزان مرهقة، الفائز فيهم من يقف متحملا ما على
كتفيه من مصاعب أطول فترة ممكنة.

كان السكون يخيم على الغرفة التي يقف فيها جود، سكونا
يساعد على التركيز والتشاور الذاتي مع نسمات تتسلل من
خلال الشقوق الموجودة على نوافذ الغرفة لتحدث سمفونية
موسيقية هادئة تخفف قليلا من تشنج الأعصاب، لتهب فجأة
ريح قوية محدثة إنذارا معلنة انتهاء المسابقة ليتحرك جود من
ركنه غير آبه لاسم البطل الفائز، متمسكا بأحماله وغير مبال
بتعب كتفيه ليصل إلى النافذة ويرى من خلالها قوة تحرك في
طريقها برشاقة كل ما خف وزنه أوراقا تتطاير وشعورا ترفرف



وتنورات تهتز، بل وتحرك ما ثقل وزنه أيضا حيث دفعت الريح بصعوبة الشمس بعيدا تحت عرش الإله جارة الليل في ذيلها ليحلّ الظلام، ويحين معه وقت البثّ المباشر على الفايسبوك. تقدّم جود بثبات نحو مكتبه أين كان يجلس حاسوبه الأسود منحنيا نحو ورقة الرّسم البيضاء الواقفة على الحامل الخشبي كعروسة، تحمل في طياتها باقة أقلام ملوّنة بألوان الزّهور.

بعدما أن أشعل الحاسوب دخل إلى حسابه على موقع فايسبوك وفي تمام الثامنة بدأ البثّ المباشر، بقي صامتا ينتظر دخول المعجبين والمتابعين له ولم يدم انتظاره ثواني قليلة حتى ظهر أول قلب على الشاشة ليليه ثان فثالث فعاشر لتمتلئ الشاشة بالرموز الفايسبوكية المعروفة وتتصاعد الجمل بسرعة كنهاية فلم سينمائي تحاول جاهدا قراءة أسماء الممثلين لكن دون جدوى ورغم كل هذه الحشود... إلا أن جود آثر السكوت واستمر في صيامه... فقد قيل كل شيء ولا جدوى من مزيد فلا إضافة له اليوم ليقولها فقد نضبت الكلمات وعقد اللسان وجف الحلق، والكرة الآن في ملعب الشعب فالقول الأخير قوله، وقبل أن يمسك قلمًا من رزمة الأقلام الموجودة في رف الحامل الخشبي أخرج من جيبه هاتفه وضغط على تطبيق يوتيوب وشغل أغنية الحرية لسولكينج التي تقول:



يبدو أن السلطة تُشتري، حرية، هذا كل ما تبقى لنا
إذا تكرر السيناريو، سوف نكون ممثلي السلام في العالم.
مغلوبة جدا... خطاباتكم مغلوبة للغاية
نعم والخطأ الكبير أننا تعودنا عليها
لكن انتهى الأمر، الكأس ممتلئ
في الأسفل، يصرخون، هل تسمع أصواتهم؟
صوت العائلات المليء بالحزن
الصوت الذي يصلي من أجل مصير أفضل
اغفر لي لأنني موجود. اغفر لي مشاعري
وإذا قلتُ بأنني سعيد معك فأنا أكذب
اعذر وجودي. اغفر مشاعري
أعد إلي حريتي. إنني أطلب ذلك منك بهدوء.
الحرية، الحرية، الحرية،
هي مبدئياً في قلوبنا
الحرية الحرية الحرية... لا تخيفنا
اعتقدوا أننا موتى، فقالوا «هذا أفضل، فليذهبوا إلى الجحيم»
اعتقدوا أننا نخشى، من ذلك الماضي الأسود
لم يعد هنالك أحد، سوى صور وأكاذيب
سوى أفكار تعصف بنا، انتهى! خذوني إلى هناك



نعم لم يبق هنالك أحد، لا يوجد سوى الشعب
شيغيفارا ومعطوب (ثائر بربري جزائري)، خذوني إلى هناك
أنا أكتب هذا في إحدى الليالي، من أجل صباح جديد
نعم أكتب لكي أومن، المستقبل ليس مضمونا
نعم أنا أكتب لأننا، يدا بيد
أنا أكتب لأننا، الجيل الذهبي
الحرية الحرية الحرية،
هي مبدئيا في قلوبنا
الحرية الحرية الحرية... لا تخيفنا
حرروا من هي رهينة، حرروا الأرواح، هناك خلل في العدالة
حرروا الرهائن، هذا كل ما نملك نحن
ليس لنا سوى الحرية
ونحن بمثابة الابتلاء في طريقكم أيتها السلطة، ونار صدورنا
لن تنطفئ أبدا
هذه رسالتنا، إنذارنا الأخير
الحرية الحرية الحرية،
هي مبدئيا في قلوبنا
الحرية الحرية الحرية... لا تخيفنا
أخذ قلمه وراح يرسم وجوها شاخصة وأخرى غاضبة وجثثا

حياة زاحفة وأخرى راكضة تخرج كمياه الفيضان من كل صوب
لتستقر في نقطة الملقى، وسط ميدان عرضه اليابسة والماء،
تتاشبك أيديهم وأرجلهم وحتى رقابهم تلتوي الواحدة على
الأخرى، فهم كشجرة العنب تحتل جدارا، يتسلق الآخر الأول
إلى أن تذوب ملامحهم ليتحولوا إلى كتلة سوداء موحدة
ومتماسكة تسلك طريق العلى لتشكّل حين ملامستها السماء
كرسيا فاخرا تخرج من مقعده يد حديدية تمسك سبيكة ذهب
تضاهي الشمس نورا.

سيدي إن الفنان على المباشر.

ردّ المفتش صارخا ببلاهة وهو يحكّ خصيتيه من قلة
الاستحمام

أي فنان هذا! وهل الوقت وقت حفلات يا هذا!

نظر الضابط باستغراب مسدلا حواجه على عينيه طاويا
ذقنه على رقبته:

أي حفل يا سيدي! أكلمك بخصوص العمل، إنه رسام
الفايسبوك...

يبتسم المفتش 'مايرام' بغباء كمحاولة أولى فاشلة للقفز
بالزانة على علو 6.03 متر من الحرج، ليديها بمحاولة أخرى كي
يداري حرجه فيبادر الضابط بوابل من الأسئلة:



ماذا قال اليوم؟ هل لَمَحَ أو ذكر مكان السطو؟ هل ذكر تاريخا معينا؟

تتغير نبرة صوت الضابط وترجع تقاطيع وجهه إلى حالتها العادية ويعتدل في جلسته ثم يجيب:

لا يا سيدي فهو لم ينطق ببنت شفة فقد اكتفى اليوم بالرسم وبأغاني ثورية.

هوى المفتش على الكنبه رافعا يديه كعلامة نصر معلنا اجتيازه 6.03 متر بنجاح، وجلس يراقب تصرفات الفنان على الفايسبوك.

أنهى جود رسمه توقف قليلا ليعم السكوت في غرفته لينتشر بعدها ذلك الصمت كالفايروس في كل غرفة يتابعه منها صاحبها، حتى غرفة المفتش 'مايرام' أين سكت الكل يراقب بفضول ما سيقوله جود أو ما سيفعله هل سيعلن عن شخصيته أم سيعطي إشارة البدء لتنفيذ خطته.

بعد هذا السكون الذي توقف فيه الزمن لهنيهة حرك جود يده ممسكا بقلم مغاير، طبع به إمضاءه على اللوحة والكل يراقب ويستمع إلى صوت القلم يهرش الورقة ليختم فيها

كلمة VAGA

ثم يقول:

أتى يوم الحساب أيتها العصابة.

ثم أغلق البث دون أن يضيف شيئاً أو يفصح عن المزيد من المعلومات، أحدثت هذه المعلومة بلبلة وقلق على مواقع التواصل الاجتماعي والمقاهي والحانات، فئة من المثقفين أفصحوا عن امتعاضهم ورفضهم لفكرة أن قائد الثورة والمتحدث باسمها والأكثر شعبية من بينهم هو رئيس عصابة تسطو على أملاك الغير، هذه الفئة تنتمي إلى الأرستقراطيين الباريسيين، ولم يعر آخرون من نفس طبقتهم هذه المعلومة أي اهتمام وعلّقوا قائلين:

لا يهم من يفجر الثورة أو من يقودها، الأهم من هذا من سيستفيد منها ومن يمتطي جناحي نجاحها ليصل لمبتغاه هؤلاء هم الانتهازيون عادة ما يستفيدون من أي تقلبات في الأوضاع، فهم مع المنتصر دائماً، فتجدهم رأسماليين مع الرأسماليين وشيوعيين مع الشيوعيين ومتدينين مع المتدينين، هم كالحرباء يتلونون بلون محيطهم، أما عامة الشعب والغوغاء فقد فرحوا لسماع الخبر، لأنهم يرون فيه بطلاً حقيقياً، بطلاً ضد النظام وهؤلاء من عول عليهم جود واستهدفهم في خطابه لكثرتهم أولاً ولسهولة تسييرهم، فضعاف النفوس والمقهورون يبحثون دوماً عن بطل مخلص يخلصهم من معاناتهم.



أما الحكومة بآلتها الإعلامية فقد تلقفت المعلومة بكل سرور واستعملت كل قوّاتها المرئية والسمعية لشيطنة الفنان، فراحت تكيل له السباب وتروّج عليه الإشاعات وتحظّ من قيمته:

كيف لشعب عظيم مثل شعبنا يتبع لصا محتالا؟ وكيف تستمعون لاحتياالاته ومكائده ومنكم من يصدقها! بلد فيكتور هيغو وموليار والإخوة لوميير، بلد القائد نابليون والقائد شارلمان يقود ثورتها سارق محترف! هذه أكيد ليست ثورة بل مؤامرة، هل خلت فرنسا من علمائها ودكاترتها و مثقفها وسياسيها كي يقودها مجموعة لصوص...

ليضحك أحد المتابعين وهو يرتشف جعة قائلا:

و كأن من يحكموننا ليسوا لصوصا، هم أكبر لصوص سراق ببدرات، على الأقل هذا من يسمي نفسه الفنان لم يكن يسرق لنفسه بل ليعطي للمحتاج...

طاف 'مايرام' على وجوه فرقته كما يطوف الملك بسراريه، نظر إليهم بعلو ثم قال بكل ثقة وفخر:

غدا سنمسكهم كالفئران وسيلجون بكل سذاجة في مصيدي التي أعددتها لهم، وسنستمتع برؤيتهم وهم مذعورين مندهشين خائبة آمالهم لهذه النهاية آآ..الجميلة.

قال هذا وهو يضحك والشر يتطاير من عينيه ثم أردف أريد خمسين شرطيا مدنيا يتوغّلون فرادى كالعملاء إلى البنك مع أول دقيقة من بدء الدوام، لكن على فترات متباعدة نسيبا لينتثروا في أربع زوايا المبنى وينظروا تعليماتنا، وسأصل بمدير البنك كي يسهل عليهم المهمة.

وأريد من كلّ شرطي مندرس في المجموعات أن يبقي هاتفه مفتوحا، فمن المؤكد أن غدا صباحا سيشتغل التطبيق ويبدأ في إصدار الأوامر كي يتجمعوا هنا تحت البنك وأول ما يجتمعون أريد أن تحيط بهم قوة وسياج بشري من خيرة شرطة باريس، أريد سدا منيعا يحبس حتى قطرات عرق المتجمعين تحت البنك.

بعد أن أعطى المفتش كلّ تعليماته واطمأنّ على كلّ ترتيباته همّ بالدّخول إلى غرفته وهو يقول:

إن الساعة تقارب الواحدة ليلا سأخلد للنوم لأرتاح قليلا، فغدا سيكون يوما شاقا وشيقا مليئا بالأحداث يحتاج جهدا كبيرا ولياقة عالية.

وفي الجهة المقابلة كان جود يقف أمام النافذة يستمع لسكون الليل ويراقب سواده الذي التحف الضباب كما يلتحف الفارس البربري برنسه الناصع البياض، وقف مسترخي



العضلات لا يفكر في شيء، فوقت التفكير والتخطيط ولّى ولا مكان له في ذهنه، فالأمني والأدعية والتضرّعات ملأت فكره ولهج بها قلبه، فكلّه رجاء بأن تسير خطّته كما رسمها وأن لا تظهر مفاجآت قد تفسد بعضها منها.

* * * * *

الحرية كلمة تضاهي الحياة في قيمتها وتوازي السّماء في سعتها.

والحرية هي التحرّر من كل القيود والأغلال. تحرر البلد من أغلال المحتل، تحرر الشعوب من قيود دكتاتورية الحكام، أو تحرر المجتمع من أصفاد التقاليد، وقد يرى البعض أن الدين أغلالا يجب التخلص منها!... أو أن تعتزل الناس هربا من قيود الضيافات وتبادل الهدايا أو حتى الهرب من كرم الشّهام، فلو كنت أصيلا فسيأسرك كرم من أكرمك.

لكن هك الحرية بإطلاق محمودة، والقيود بإطلاق مذمومة؟

قد تكون الحرية في مواضع كثيرة مذمومة!، فالإنسان حرّ في أقواله وأفعاله أما شتمك للآخرين واعتداؤك



عليهم واستهزأؤك بهم حرية مذمومة.
هنا نصل إلى نتيجة أن بعض القيود المحمودة، فتقيّدنا
بالقوانين فيه حياة لنا ولغيرنا، فتحدد سرعة سيارتك مثلاً
من القيود المحمودة لأنها تحفظ حياتك وحياة غيرك...



الفصل الثالث عشر



دقّ النوم باب جود فاستلقى على الكنبه وأغمض عينيه
ملتحفا السقف مستسلما للوسن الذي استولى برفق على
جميع مفاصله.

ومرّت خمس ساعات بسرعة الضوء لم يكد جود يغمض
عينيه حتى فتحهما، حتى ظن أنه لبث مغمض الجفنين دقيقة أو
دقيقتين، ليستيقظ على صوت جهاز كومبيوتر فلادمير.

صباح الخير فلادمير.

صباح الخير يا جود.

وكأنك لم تنم فقد تركتك البارحة على نفس الوضع!

لا نمت قليلا هنا على الكرسي.

لكنّه ليس مريحا!

ليس الوقت وقت راحة يا جود نرتاح بعد العملية.

ضحك جود ثم قال:

ينتظرك عمل أكبر بعد العملية!

أعلم أعلم يا جود!

سأحضّر إبريق قهوة أتريد فنجانا؟

نعم

ثمّ أردف وكأنّه يكلم نفسه:

مع كأس فودكا لو سمحت.



بعد دقائق أتى جود حاملا فنجان قهوة وقدمه لفلامير:
تفضّل القهوة لكن كأس الفودكا تشربه بعد العملية فلا
خمر ولا مارخوانا إلا بعد ان ينتهي الأمر.

ولم المارخوانا؟!

هي نبتة طبيعية ترخي عضلات الرأس فقط!!

يقول هذا رافاشول من تحت لحافه.

أريد أن تكون كل عضلاتك مشدودة وهمتك مشحودة
فالوقت ليس وقت استرخاء يا رافاشول.

أنت تعلم أنني نباتي وأقدر جدّا كلّ النباتات لهذا أحب أن
أستنشق عبقها وأضم بين ضلوعي بخارها.

يوجد شاي أخضر نباتي أيضا ممكن تشربه مع قليل من
النعناع وتزين أذنك بالقليل المتبقي.

يردّ جود ممازحا ثم يلتفت لجهاز فلامير ليسأل:

كم بقي من الوقت لنبدأ؟!

بعد ثلاثين دقيقة وأربعين ثانية

بعد مرور بضعة دقائق أين وقف الجميع على أهبة الاستعداد
مشمرين على أذرعهم وسيقانهم كجنود همّوا بالانقضاء
على العدو منتصبين وراء فلامير الذي ضغط في تمام الساعة
صباحا على زر تشغيل التطبيقات تلك الضغطة الواحدة التي

جعلت آلاف الهواتف ترن وتهتز وترتعش رعشة الممسوس من الجان ثم تظهر على الشاشة صورة جود وهو يقول:

حان وقت الحساب أيتها العصابة... حان وقت الحساب أيتها العصابة... هذه ليست ثورة جياح بل ثورة وعي ولن نسمح لكم بخداعنا بعد الآن...، كي يرتسم بعدها مخطط طريق يشبه نظام تحديد الموقع GPS ليبدل حامله على المكان الذي يجب أن يتوجه إليه، لتبدأ حركة غريبة في شوارع باريس عشرات ثم مئات بل آلاف من الرجال والنساء منتشرون يحلقون بعشوائية الفراش الذي لا تعرف له وجهة محدّدة، الكل ينظر إلى هاتفه غير مبال لا بطريق ولا بسيارات يمشي الواحد على رجل الآخر فلا هذا يطلب المعذرة ولا الآخر ينزعج كل منغمس في هاتفه. دخل الضابط إلى غرفة المفتش 'مايرام' فوجده نائماً باسطاً يديه ورجليه كالكلب:

سيدي... سيدي... هناك حركة مريبة في شوارع باريس، وقد وصلتنا تقارير من بعض المندسين بأن هواتفهم الخاصة التي تحتوي على التطبيقات دفعتهم للخروج إلى الشارع.

وإلى أين هم متجهون إلى هنا؟

لا ندري بعد لكن لكل مجموعة وجهة مغايرة ومسلك تسلكه، وكأنهم يلعبون تلك اللعبة الغبية 'بوكيمون جو' أين



يخرج اللاعبون في الشارع والحدائق مجموعات باحثين عن
بوكيمونات وهمية.

والهواتف التي بحوزتنا هل أصابها ما أصاب الآخرين؟
نعم سيدي لكنها توقفت عند فيديو المدعو الفنان فكلامه
يتكرر دون انقطاع ولا نستطيع إيقافه، وكأننا فقدنا السيطرة
على الهاتف... ويبدو أنه يجب علينا التحرك في الشارع كي
ينتقل بنا إلى المرحلة المقبلة.

أريدك أن ترصد تحركات كل من له هاتف به هذا التطبيق
وتابع خطوة بخطوة تحركات رجالنا المندسين في وسطهم،
أعتقد أن هذه العشوائية وهمية بل في حقيقة الأمر هي نظام
فهم مسيرون لمستقر ما بمسارات مختلفة ومستقرهم هنا هذا
البنك الذي نحرس.

مهلا قلت لي بعض المندسين فقط من تحركوا في شوارع
باريس والآخرين!؟

لم يتحركوا سيدي.

ولماذا؟

لم يظهر على شاشتهم أي GPS أو مسار يتبعوه ربما أصاب
التطبيق خلل.

أتريدهم أن ينطلقوا مع الآخرين؟

لا دعهم في أماكنهم سنتابع تقدّم الأحداث ثم نقرر فقد يكون لهذا الأمر هدف.

أما في الشارع وبعد أكثر من ساعة من العشوائية ظهرت بوادر النظام بتشكّل مجموعات كثيرة، كل مجموعة تمشي في نهج مغاير لكن على ما يبدو أن وجهتها واحدة.

سيدي أعتقد أن توقعاتك في محلها! بدأت تصل الوفود إلى الساحة إنني أراها وأظن أن الساحة ستمتلئ عن آخرها بعد دقائق.

هل دخلت الشرطة المدنية إلى البنك كما أمرت؟
نعم دخل فريق منهم كعمال وآخرون كعملاء سيكتمل العدد عما قريب.

حسنًا أريد دورية شرطة في مدخل البنك.

دورية واحدة فقط سيدي؟

نعم أريد إيهامهم بضعف موقفنا كي نسهل عليهم دخول البنك كي نقبض عليهم بعيدا عن أعين المتظاهرين وسنطبق على الكل بالسياج البشري الذي ستقوم به الشرطة.

لكن الساحة ضخمة وسياج كهذا سيتطلب عددا ضخما من الشرطة.



لا يهم فقد بدأت قوات شرطة باريس بمعداتنا الثقيلة
تتحرك نحونا فعلا.

وتترك باقي المدينة شبه خالية من الشرطة؟!!

المدينة في أمان وأهم شيء الآن حماية أكبر بنك في باريس
والأهم من هذا كله الإمساك بهؤلاء الصعاليك فالخطر هنا
وليس في باقي المدينة.

بعد وقت يسير انقطع توافد الجموع وتجمهر عدد ليس
بهين في الساحة وكان المنظر مهيبا فلا صوت يعلو إلا صوت
التصفيق الذي كان بنفس نسق أولترا الملاعب، وظهر ما
يقارب العشرون ملثما يلبسون سترات طويلة سوداء وكأنهم
استنسخوا من فلم ماتريكس الشهير يظهر جليا أنهم من يسير
المتظاهرين.

سيدي لقد توقّف مدد الجماهير وشحّ توافدهم وتحدّد
عددهم، فقد احتلّوا الميدان والشوارع التي تحيط به وقد ميّزنا
من بينهم هدفنا.

نعم إنني أراهم أصحاب السترات السوداء، عددهم كبير نوعا
ما يصعب على رجالنا السيطرة عليهم.

سيدي أقترح أن نقبض عليهم مباشرة بعد إقامة السياج
البشري وحين نحاصرهم من كل جهة، فننقضّ عليهم كالسّمك



يلتقفه النسر من على سطح الأمواج.

لا ستمهّل عليهم كي نمسكهم متلبسين في قضية أكبر من
تظاهر أو حمل سلاح، ننتظر حتى يدخلوا البنك ونطبق عليهم
بجنود من الخارج مع مساندة من رجالنا في الداخل كي لا
نعطيهم أي فرصة للنجاة...

سيدي قوات الشرطة في الطريق ولم يتبق لها إلا بضع من
الكلومترات لتصل.

أعطهم أمرا بالتوقف قبل اثنين كلومتر من البنك، لا يجب
أن ترى العصابة كل هذه القوات كي لا يصيبهم فزع فيحترسوا
فيلغوا ما هم مقبلون عليه، يجب أن يطمئنوا لخطتهم وعلينا أن
ننتظر ونكون حذرين وفور ولوجهم البنك نجهز عليهم...

لم تنتظر العصابة وقتا طويلا فلم يكن هناك وقت لتضييعه
فوجودهم عند بوابة البنك مريب، ومن المؤكد أن قوات الشرطة
في طريقها نحوهم.

تقدّم العشرون ملثما نحو بوابة البنك أين كانت تقف
سيارة بها أربعة من الشرطة، أشهروا في وجوههم الأسلحة
الأوتوماتيكية وطلبوا منهم الاستسلام، فاستسلمت الشرطة دون
مقاومة رافعين أيديهم إلى السماء طالبين ضبط النفس:



لن نكون حائلا بينكم وبين البنك لهذا نرجو منكم عدم
التهور، دعونا نذهب بأمان أرجوكم فلا طاقة لنا لحماية البنك!
أوماً أحد الملتهمين لزميله برأسه ليتقدم هو واثنان معه
ليجردوا الشرطيين من أسلحتهما وجراهما نحو البنك كرهائن
مصفدين بالأغلال.

سيدي لقد دخلوا البنك ماذا نفعل؟

اعط أمرا بتقدم قوات الشرطة في الحال لتكون الساحة
كلها محاصرة دون الاحتكاك مع المتظاهرين...
لما دخلت العصابة إلى البنك لم تجد ولا موظف في مكانه
المعتاد بل وجدت نفسها وجها لوجه مع خمسين شرطيا
مدججين بالأسلحة ينتظرون دخولهم وكأنهم على علم بكل
تفاصيل خطتهم.

أتريدونها مجزرة؟ يصيح أحد الملتهمين ثم يضيف:

سنأمر بدخول آلاف المتظاهرين إلى البنك وسندعهم يتولون
هم سرقاته وسنخرج معهم سالمين غانمين.

سيدي يمكنك إعطاء الأمر بتقدم القوات يوشوش أحد شرطة
البنك للمفتش 'مايرام' وفرقتة ثم يصيح في وجه الملتهمين:

أکید ستخرجون من هنا سالمين لكن بشرط أن تسلموا
أنفسكم وأن تخلوا سبيل رهائكم.

يضحك المثلثم قائلاً:

اعتدتم أن لا تخافوا الجماهير وأن لا تضعوها في الحسبان
وكانهم حشرات، لكن هذه المرة ستتغير الموازين وسيكون
لهم كلمة وستسمعوها غصبا عنكم...

لا تكن متفائلاً ألم تسأل نفسك ماذا يفعل خمسين شرطياً
في بنك أنت بصدد سرقاته، أما شرذمة المتظاهرين في الخارج
فمقدور عليها وهم تحت السيطرة مثلكم تماماً.

ومن يسيطر علينا بعض من رجال الشرطة لا تضحكني بالله
عليك ثم يصيح بأعلى صوت... نحن الشعب تجدنا كالوادي
يعجبك صوت خريره الهادي لكن يوم ثور ثائرته يلتهم كل
ما يصادفه أو يقف في طريقه، لهذا أنصحك بالتحني جانباً وأن
تقف فوق هضبة عالية وتشهد بانحياز إذا لم تكن معنا وإلا
وجدت نفسك في القعر مع كل خردة صدئة.

وفي وسط هذه الحرب الباردة التي تدور رحاها بين القطبين
سمع ضرب مكثف للقنابل المسيلة للدموع ورصاص يبدو أنه
مطاطي وأصوات رجال ونساء تتعالى وخطوات أرجل تتراكم
وفي غضون دقائق احتلت قوات الشرطة الساحة وتبادلت
المناصب فأصبحوا هم من يتوسط السياج البشري حيث وقفوا
سداً منيعاً يحول بين البنك والمتظاهرين.



نزل المفتش 'مايرام' إلى ساحة البنك بعد أن أمن شر المتظاهرين، يمشي كالملك مختالا وسط فريقه يكاد ذقنه يلامس السحاب من التباهي بنتيجة عمله.

انتهت اللعبة أيها الفنان يقول المفتش في مكبر الصوت ثم يردف:

خسرت الرهان ويجب أن تقبل هذا، صحيح خطتك كانت ذكية لكن فطنتي كانت أعلى من ذكائك فأنا الفنان اليوم وليس أنت، وأنا من سيرسم لوحة سجلك الجنائي واسمي من سيخلد بتوقيع في آخر اللوحة، نصيحة مني كي لا تزيد وضعيتك سوءا، أطلق سراح الأسرى على الأقل ينتهي الأمر دون دماء، وتحفظ أرواح من غرّرت بهم قبل أرواح من تأسرون... تراجع المثلثون إلى مكتب منزو جارين معهم الأسرى جثيا ليغلقوا الباب عليهم دون أن يُسمعوا أي رد...

سيدي أمر غريب! لقد بدأ المتظاهرون في التراجع وكأنهم ينسحبون.

بقيت وحدك يا فنان وانفضّ المتظاهرون من حولك فماذا أنت فاعل الآن؟ ألا تحس بالضعف؟ ما رأيك في طعم الهزيمة؟ مرة أليس كذلك؟ على كل حال مرارة الهزيمة أحلى من مرارة الإحساس بالذنب والإحساس بالضعف أهون من الإحساس

بالندم لقتل أناس أبرياء خطيئتهم الوحيدة هي قيامهم بعملهم،
لهذا أطلب منك أن تسلم نفسك وتسلمنا قبل هذا عناصر
شرطتنا الذين أسرت.

نظر أحد الملتهمين من النافذة فوجد جحافل الشرطة تحيط
بالبنك من كل جهة وأيقن أنه لا مفر فصاح قائلاً:
نريد مهلة للتشاور فيما بيننا ثم نوافيكم بعدها بما اتفقنا
عليه

سيدي يريدون مهلة للتفكير ماذا نفعل؟

لأبأس يرد المفتش، ثم يضيف.

اطلب لي فنجان قهوة لأحتسيه مقدار وقت تفكيرهم، فرأسي
تؤلمني فأنا لم يسعني الوقت هذا الصباح حتى لارتشاف بعض
من القهوة.

....

سيدي الجموع التي كانت هنا لم تنسحب بل اتجهت
إلى الطرف الثاني من المدينة، وهناك أخبار عن حركة غير
عادية لشاحنات نقل تجوب المدينة تسير في نفس اتجاه
المتظاهرين، لا يهم فعندما نتمكن من رأس الحية هنا باقي
الجسد سيتخبط قليلاً ثم يسكن، فكل هذه الجموع تحرّكها
أيادي هؤلاء الملتهمين وأعدك أنه أول ما ينقطع الاتصال بين



العصابة والمتظاهرين فسيولون الأدبار وينشغل كل بمشاكله الخاصة وحياته اليومية وكأن شيئاً لم يكن.

وفي غمر المفاوضات والمماطلات التي تعمدها المثلثون امتلأت باريس بعشرات الآلاف من المتظاهرين بل مئات الآلاف، أعداد مهولة أضعاف ما كان عليه في ساحة البنك تتسرب من كل صوب وتخرج كالحشرات من أنفاق الميترو، كانت تمشي كأسراب جراد تعرف هدفها وكانت تحتل شوارع باريس في كل شارع سرب مختلف، فشارع يضم موكب البلاك بلوك ومن يميل لهم، وشارع يضم موكب الأنارشيست ومن تأثر بمذهبهم، وشارع يضم موكب الفيمينيسست ومن يساندهم، وشارع يضم تلاميذ الثانوية والجامعة مؤزرين

بأساتذتهم، وهذا السيل الجارف من المتظاهرين يصب في نفس الساحة ساحة لويس الرابع عشر المشهورة.

أما باقي الشوارع فقد أغلقت بعشرات من شاحنات النقل واختبأت وراءها عشرات آخر وكأنها تنتظر أمرا بالتحرك. سيدي أعتقد أننا خدعنا فما توقعته أنت يحدث فعلا لكن ليس هنا بل في الضاحية الأخرى من المدينة وما حصل هنا ما هو إلا تمويه، مصيدة وقعنا فيها كلنا والمصيبة أن كل قوات الشرطة معنا هنا، فالمدينة في قبضتهم الآن.

ماذا تقول صاح المفتش 'مايرام' وعلامة الدهول تحتل
ناصيته ثم أضاف:

ومن في الداخل إذا؟!!

ثم أمر بالهجوم في الحال على العصابة الذين انبطحوا
مسلمين أنفسهم فور ما رأوا أفراد الشرطة فمهمتهم تنتهي عند
هذا الحد فلا داعي للمقاومة، وريح مزيد من الوقت، لن يكون
له أي أثر فيما هو آت.

سيدي لقد تم تثبيت أفراد العصابة!

أراك متعجبا هل هناك خطب ما؟ فأخبارك السيئة لا تنتهي!

إنهم مراهقون لا تتعدى أعمارهم السبعة عشر عاما! وكما
توقعت ليسوا هم من يدير المشهد، والمشهد الرئيسي يدور
الآن في الجهة الأخرى، لقد تم استدراجنا هنا كي تخلو لهم
المدينة هناك.

أسرع المفتش نحو أحد المراهقين ليرميه أرضا ويوسعه
ضربا وهو يصيح:

من أرسلكم إلى هنا قل لي مع من تواصلتم ومن أعطاكم
الأوامر؟.

والفتى لا يجيب ولا يتفوه إلا بآهات ألم ليتبعها بابتسامات
مستفزة تزيد في حنق المفتش الذي بدوره ضاعف قوة الركلات



حتى كاد يقضي عليه لولا تدخل الضابط الذي أخذ المفتش على جنب وصرخ فيه كي يرجعه إلى صوابه:
ما تقوم به لن يفيدنا في شيء فالفتية ضحايا مكيدة مثلنا نحن، الأهم الآن أن نتحرك في الحال إلى الضفة الأخرى من المدينة، قبل أن يفوت الأوان. مُر الشرطة بالتَّحرك نحو ميدان لويس I4 فحسب آخر ما وصلني من أخبار أن هذه الساحة هي هدفهم.

هل يوجد بنك في هذه الساحة؟ يسأل المفتش.
نعم وليس أيّ بنك إنه البنك الفرنسي فهو على بعد خطوات فقط من تمثال لويس الرابع عشر.
لنتحرك إذا فليس لدينا مزيد من الوقت نصيِّعه في هذا البنك اللعين، خذ الفتية وضعهم في سيارة نقل المساجين وقل للسائق أن يتبعنا إلى هناك فقد نحتاجهم في مفاوضاتنا مع العصابة.

اتضح فيما بعد أن الفتية الذين خاطروا بأرواحهم ينتمون إلى دار أيتام كان جود يتكفل برعايتهم.
هل أمر كل الشرطة أن يتبعونا إلى ساحة لويس الرابع عشر ونخلي باقي المدينة من شرطتها كما فعلنا أول مرة؟!
نعم واطلب الإمدادات من المدن القريبة ومرهم بأن يتحركوا

فوراً، يجب أن نقضي على هذه العصابة حتى ولو تحتم علينا
الأمر بقتل نصف المتظاهرين واعتقال النصف الآخر.
دهش الضابط لكلام المفتش في بادئ الأمر لكنه اعتقد
بعدها بأنه غير جاد في كلامه وأن ما تلفظ به كان تحت تأثير
الغضب فقط.

* * * * *

في الحرب العالميّة الثانية كان لهتلر فيلق من جنود
مراهقين
سمّاهم بالشبيبة كانوا الأكثر ولاء والأكثر جرأة
وإقداماً.

ونحت نُدُوه الجماعات المسلّحة الخطيرة في كل بقاع
العالم فجذّدت مراهقين، واستعملت تهوّرهم ونقص
خبرتهم وقلة تمسكهم بالحياة لخدمة مصالحهم
وأجنداتهم الشّيطانية.

حتى مروّجو المخدّرات في الأحياء الشعبية استعملوا
الفتية كبائعين وأعين تجارهم فتنبههم حال
وجود مداخلهم من طرف الشرطة...

فإلى متى نقفي أولادنا دون حماية تحت رحمة وحوش

بلا ضائر تضيع مستقبلهم!5



الفصل الرابع عشر



امتألت الشوارع في الضفة الأخرى للمدينة المحيطة بساحة لويس الرابع عشر عن آخرها حتى أصبحت الحشود كالجلد في تماسكها لا ترى مسامته إلا بصورة مكبرة، أما الساحة وبداية الشارع المؤدي إلى بوابة البنك فقد ركن فيها عشرات من شاحنات النقل ومن فوقهم رداء أسود معلق بين البنايات ليحجب عمل الشاحنات، ليتسلل من بينها جود ورفاقه أين خرجوا من بين الحشود حيث كانوا مندسّين بملابس عادية وبزّات صفر ككل المتظاهرين متجهين نحو بوابة البنك التي سيفتح أبوابها الأيادي الخارجية، والتي توغّلت في الدقائق الأولى من فتحه بصفة عملاء بعد أن أمر مدير البنك بإغلاق أبوابه حينما وصلتته أخبار بأن مظاهرات تتجه نحو ساحة لويس الرابع عشر، فقد أغلق الأبواب دون أن يخلي البنك من العملاء لاعتقاده بأن الأمر سينتهي فور وصول الشرطة فهو لم يعلم بأن الأمر جلل وفي الحقيقة ليس هو الوحيد الذي عمي عن عظم الأمر بل جهلته كل نفس تستنشق هواء فرنسا، وجهله كل مسؤول عن الأمن من الشرطي البسيط إلى أعلى قيادة في البلد.

تمكّن فريق VAGA من الاستلاء على البنك والتحكّم في جميع مفاصله ثم باشروا دون مماطلة تنفيذ خطتهم، فالوقت



ليس في صالحهم، والعمل الذي ينتظرهم شاق ويستلزم ساعات من الكد والجد دون انقطاع.

وبعد أن كُبل عمال البنك كالعبيد بسلاسل تحد من حركتهم وتربط الأول بالآخر جيء بمدير البنك ونائبه، ووضع كل واحد فيهم في مكتبه وقبل أن يبدأ جود ورفاقه سلسلة الوعيد والتهديد بالتعذيب ثم القتل بادرهم المدير قائلاً:

أيها السادة الأفاضل اعلموا أن ما تقومون به غير مجد فالمال المتواجد في البنك لا يستحق كل هذا العناء، أما لو كنتم تنوون طباعة أوراق نقدية فهذا لن يكون ممكناً فقد ضغطت على زر التوقف التام المستعجل في حالة الخطر ولن يبطل مفعوله سواي ومن جهاز كومبيوتر مكانه الإليزيه...
ضحك جود ثم قال:

ومن قال لك أن أوراقك النقدية تهمنا فهي بالتأكيد لا تدخل في حيز اهتماماتنا خاصة وأنا نعلم مصيرها.

وما الذي تريدونه مني ومن بنكي إذا؟!

بنكك! هل ورثته عن أبيك أم ربحته في اليناصيب؟ هذا البنك ملك للشعب، وكل ما بداخله من ثروة يجب أن يعود ليد ملاكها الحقيقيين.

أي ثروة؟ قلت لك لا يوجد مال هنا، إن لم تصدقني فهذا هو البنك تحت سيطرتك أنت ومن معك فتشبه وخذوا كل ما وجدتموه.

قلت لك لا حاجة لنا بأوراقك البالية، نحن هنا لذلك الشيء الذي لا يتغير بتغيّر الزمن ولا بتبدل المعطيات نحن هنا من أجل ذلك المعدن الأصفر البراق.

تنتقصد الذذهب ووومن قال لك أن هذا البنك يحتوي على الذهب؟

يسأل مدير البنك بارتباك شديد.

مالي أرى الكلمات تتعثر في فمك تعثر الطفل الحديث العهد بالكلام، أمرت بك أنت؟ أم أن السرّ الذي تناقلته عائلتك منذ عهد ديقول هو سبب تلعثمك واحمرار وجهك؟

أي سر هذا الذي تتكلم عنه، لا أفهم كلامك فلا دراية لي عن طبيعة السر الذي على ما يبدو لي أنك وحدك المطلع عليه!

قال هذا مدير البنك محاولا استجماع كل قدراته الذهنية كي لا يظهر عليه الارتباك مجددا، ليحييه جود:

لا لست وحدي من يعلم هذا السرّ بل رهط لا بأس به في إيليزيه أين تحتفظ الدولة بأعمق أسرارها، وبالمناسبة ليس هذا السر الوحيد الذي أعرفه بل أعرف طواما ستخرج للعلن في



وقتها أما الآن فالأهم عندي هو الذهب، الذهب الذي استرجعه
ديقول في سرية تامة بعد أزمة أمريكا في الخمسينات من القرن
الماضي وأعوام قليلة بعد أن أمم هذا البنك الذي جعل من قبوه
الواسع مكانا أميناً وسرياً لحفظ مخزون الدولة من الذهب.

ضحك مدير البنك ضحكا هستيريا ومصطنعا، ثم قال:

أعتقد أنك من هواة مشاهدة مسلسلات ناتفليكس.

أمسك جود بربطة عنق المدير ونثره إليه نتره كادت تخلع

رقبته ثم قال:

أنت وأنا نعلم أنه هناك ذهب تحت هذا البلاط، (يخبط
بعقبه على الأرض) وستعطينا كل التسهيلات كي نستحوذ
عليه فأنت مجبر لفعل هذا لا مخير أنت أمام حالة شارلمانية
بحثة حينما دخل على الجرمان وخيرهم بين التعميد ودخول
المسيحية وبين الموت كذلك أنت إما أن تعطينا ما نريد وإما
الموت.

ثم طرحه أرضا وابتعد عنه قليلا ثم التفت إليه صائحا:

هذه ثورة شعب وليست سرقة بنك إن لم تع الأمر بعد (ثم
يخفض من صوته) وأنت تعلم أن لكل ثورة ضحاياها، هل تريد
أن تكون أنت وأسرتك ضحايا هذه الثورة؟

وما دخل أسرتي في ما أنت مقدم عليه؟

كل من له علاقة بهذا النظام ولو من بعيد سنستعمله للإطاحة به وأنت وأسررتك الأرستقراطية رمز من رموزه، انهض واتبعني... انظر إلى شاشة هذا الحاسوب النقال.

ثم أوماً لفلادمير فشغل له فيديو مباشراً من ساحة لويس الرابع عشر.

إنها زوجتي وابنتي يا أوغاد ماذا ستفعلون بهما؟، انظر إلى تقاطيع وجهيهما إنهما مذعورتان، المسكينتان أخل سبيلهما لو سمحت فلا علاقة لهما بالبنك.

القرار في يدك أيها المدير والكرة في ملعبك إن تعاونت معنا وأعطيتنا مفاتيح القبو وكلمة السر أطلقنا سراحك أنت وعائلتك وأشعنا أنك مؤيد للثورة في حال نجاحها، أما إذا فضّلت لعب دور البطولة فستكون نهاية زوجتك كنهاية ماري أنطوانيت ممزقة الجثة وابنتك صريعة مقطعة الأحشاء من كثرة الاغتصاب أما أنت فسينتهي بك الأمر مصلوباً على باب البنك، سنرجع لك بعد عشر دقائق لنسمع قرارك.

خرج جود ومن معه من المكتب الذي حبس فيه المدير متجهين إلى المكتب المقابل أين كان يقبع نائبه فأمسكوه وأقعدوه على الكرسي وأوثقوا يديه بين رجليه وربطوا جبهته بحبل إلى إبطيه ليتجه نظره إلى السقف بحيث لا يستطيع



النظر إلى الأسفل ثم وقف جود عند رأسه وسأله

أعتقد أنك تعلم لماذا نحن هنا؟

لسرقة البنك أكيد.

لا بل لاسترجاع حقوق الشعب.

وهل تعتقد أنك أنت ومن معك هم الشعب، أم الناطقون

الرسميون باسمه؟!

لا لسنا الناطقين الرسميين باسمه فالشعب خرج ليُسمع

صوته ويجهر بمطالبه وتحرك لاسترجاعها بالقوة إن استلزم

الأمر وما نحن إلا سبب من أسباب النصر الذي سيجعل المواطن

المطحون يصل إلى أسمى مطامحه، وكى نختصر الطريق على

بعضنا فسأعطيك لب الكلام فلا وقت لي أضيعه في شروحات

أنا في غنا عنها، في قبو هذا البنك يوجد مخزون الحكومة

من الذهب وهذا الذهب من حق الشعب ولا بد للحقوق أن

ترجع لأصحابها لهذا أنت ملزم بإعطائنا مفاتيح القبو وكلمة

السِر، استمع إليّ جيدا أعلم أن عائلتك وعائلة مديرك تتناوبان

على منصب المدير الذي يتغيّر كل خمس سنوات وأعلم أن

هذه السنة بداية حقبة العائلة الأخرى، وصبرك ليس بالطول

الذي يتحمّل خمس سنوات من الانصياع لغريمك، ضف إلى

ذلك رؤيتك له وهو يتمتع بكل الامتيازات التي خسرتها أنت

وعائلتك.

واليوم نقدّم لك الفرصة كي تسترجع المنصب الضائع منك،
فبإعطائك لنا ما نريد سيتحمل هو المسؤولية وسيعزل وتمسك
أنت مكانه خاصة إذا أشعنا أنه هو من أرغمك على هذا وقد
تستفرد عائلتك بهذا المنصب إلى أبد الأبدين وفي انتظار
ردك وكي نتفادى ملل الانتظار سأحاول وضع بعض من الإثارة
وقليل من التشويق فاسمح لي بقطع شرايين يديك وسأتركك
تستمتع بدقات الساعة وصوت قطرات دمك تتساقط في الدلو
وبعد دقائق معدودة إن لم تعطنا ما نريد ستخسر منصبك
والامتيازات التي تترتب عليه وأهم من هذا ستخسر حياتك،
ثمّ خرج وترك النائب شاخص الوجه مذعورا يحسّ بقطرات
تتصبّب من على جبينه ويسمع أخرى تتساقط في الدلو، لكن
قلبه وعقله وكلّ كيانه كانوا منكبين يراقبون ما يحدث ما في
ذاك الدلو الذي أصبح أغلى من ناصيته وما عليها.

خرج جود من المكتب مناديا ليا ليأمرها قائلاً:

أحضري الأكياس من الشاحنة الأولى واركنيها في أقرب
موقع من باب البنك فلن يطول الأمر لنبدأ بتحميل سبائك
الذهب وأحضري عمال البنك وسوقيهم مكبلين وعرفّهم
مهمتهم وعامليهم كالعبيد حينما ينزلون معك إلى القبو.



عبيد! قبو!! هذه الكلمات المثيرة تولد في ذهني أفكارا
شيطانية، لو قلت لي من قبل أنه سيكون هناك عبيد للبت
بدلتي الجلدية ولأتيت بسوط معي، لم أكن أعلم أنه لك أذواق
عنيفة كهذه أيها الفنان.

ثم انطلقت مسرعة لهدفها وضحكها تملأ الصالة، أما هو
فقد اتجه مباشرة نحو مكتب المدير فوجده مركزا نظره نحو
ركن في الحائط حتى خيل لوجود أن المدير مهندس معماري
يدقق النظر في عمل بنائيه عليه يجد فيه دغلا.

هاه هل اتخذت قرارك أم تريدنا أن نقرر مكانك؟ يسأل جود
بصوت فيه كثير من الحزم، لكن المدير بقي متجمدا لا يتحرك
وكان ريحا قطبية مرت به.

فلاذمير اعط إشارة للشباب كي ينقضوا على الغزالتين!
الانتظر تتتمهل يقول المدير جارا بلسانه سلسلة حروف
بثقل جبال الألب ثم أضاف:

لو سمحت لكم بالاستيلاء على الذهب سأخسر وظيفتي
ومكانتي.

ولو منعنا ستخسر حياتك و حياة زوجتك وابنتك وأنا أعتقد
فيك الحصافة والفتنة! ضع في الميزان عملك ومكانتك وفي
الجهة الأخرى ضع حياتك و حياة زوجتك وابنتك وانظر أي

الكفتين تسقط.

طأطأ المدير رأسه وفرك ناصيته ثم قال:

أعتقد أنني سأختار حياتي وحياة عائلتي، ثم أين ستذهبون بكل هذا الذهب في وضح النهار فمهما ابتعدتم ستجدون الشرطة لكم بالمرصاد.

أحسنت القول أيها المدير فكلامك منطقي جدا وأعتقد أن منطقتك هذا يهون عليك الأمر قليلا، فمستحيل نقل هذه الكمية الهائلة من الذهب خارج البنك ومهما أخذنا لن يؤثر هذا كثيرا على ضخامة الكمية فهل ينقص من البحر سكب دلو ماء في ثقب على الشاطئ حفره أولاد يلعبون!؟

يبدو أن المدير اقتنع بمنطق جود وكلامه فمهما كان الاختيار صعبا فحياة الإنسان وحياة أقرب الناس إليه أهم من كنوز سطح الأرض وباطنها، ولمعان الذهب وبريق الفضة وحتى ولو فرط في حياة أقرب الناس إليه لتمسك بحياته وما تخلى عنها. بعدما أن أخذ جود ما يبتغيه من المدير تحرك نحو مكتب نائبه فوجده في حالة ذعر حتى سجانه يشفق عليه فيها، اقترب منه فوجد قطرات تنهمر على خديه كالسيل وهو ينادي خذوا كل ما تريدون واذهبوا بي فورا إلى المستشفى فأنا لا أريد الموت.



اعطنا مطلبنا وسندخل في الحال فريقا طبيا ليووقف نزييف
شرايينك.

بعد أن رضخ النائب بدوره لمطالب جود فكت قيوده ونزعت
أكياس الدم التي كانت ملصقة على معصميه، والتي كانت سببا
في تساقط قطرات الدم ليصيح ضاحكا فرحا كالمجنون:

أنا بخير لن أموت! كنت أعلم أن شهامتكم ستصدكم عن
إلحاق الأذى بي فمن يسرق لإطعام المساكين وإيواء المتشردين
ورعاية الأيتام قلبه لن يطاوعه على القتل.

سيدي الطرقات كلها مغلقة ونحن منعزلون تماما عن الشق
الآخر من المدينة فعدة طبقات من شاحنات نقل تحول بيننا
وبين باقي أحياء باريس، وإماطتها من على الطريق يتطلب
ساعات طوال يقول الضابط... ثم يستطرد:

لقد أحكم قبضته على كل المدينة وأدخلنا بدهاء في مصيدته
بمحض إرادتنا.

لم تنته اللعبة بعد يرد المفتش 'مايرام' وهو يتعصر غيضا
ثم يضيف:

أين وصلت شرطة المدن المجاورة؟ هل هم على الأبواب؟
يبتسم الضابط... ابتسامة العاجز ثم يقول:

قلت لك أن خطته محكمة يا سيدي فقد أغلق الفلاحون
بجزاراتهم وآلاتهم الضخمة كل الطرق السريعة والطرق الوطنية
المؤدية إلى وسط باريس، وسلاسل السيارات المتوقفة على
الطرق غير منتهية.

الوغد الحقير أي شيطان لعين هذا الفنان لم يترك كبيرة ولا
صغيرة إلا خَطَط لها.

صوت رنين هاتف المفتش يقاطعه:

ألو سيدي الوزير كيف حالك؟

تسأل عن حالي!! هل أنت مجنون قل لي ماذا يحدث في
مدينتنا؟ ألم تقل لي أن الأمور تحت السيطرة وأنتك تسير
القضية بكل ثقة.

لا تقلق سيدي نحن في طريقنا نحو البنك وسنلقي القبض
عليهم في الحال ونسترد السيطرة عليه.

ماذا أنت لست أمام البنك وتهم بالذهاب إليه وأين كنت
كلّ هذا الوقت في حضانة مومس من مومساتك، على كل حال
لقد راسلت الجيش وهم في طريقهم إلى البنك.

الجيش! الأمر لا يتطلب تدخله سيدي.

لو كنت تعلم أهمية هذا البنك ما تلفّظت بهذه الحماسة،
صورت لي الأمر على أنه عصابة مبتدئة حالفها الحظّ فيما سبق



من سطو واليوم أرى أنك أنت المبتدئ الغبي الذي عجز عن تقييم قدرات خصمه وإعطائه أقل من حجمه، حسابك سيكون عسيرا جدا هذا إن بقيتُ في منصبِي...

اللّعة اللّعة ثم اللّعة، أحضروا لي رافعات شاحنات ترفعها أو مغناطيسا يشفطها أو ساحرا يقوم بإخفاء كل هذه الشاحنات فورا، لا أريد رؤيتها أمامي وأريد أن أدخل على هذا الحقيير وأدك على رأسه هذا البنك المشؤوم...

أخذ جود مفتاح المدير وبطاقة رقمه السري وأخذ جوليان مفتاح النائب وبطاقة رقمه السري ونزلوا القبو عبر سلالم عتيقة بأحجار كبيرة منحوتة باليد على طراز القرن الثامن عشر، وبعد نزول ستين درجا قابلهم باب خشبي ضخم تحتوي كل جهة منه على ثقب مفتاح والمفتاح يحتوي على شفرات سرية مجهرية مكتوبة على ظهره حينما تدخل المفتاح في الثقب المخصص له يخرج لك زران يشبهان زر البحث عن تردد محطات المذياع، وضع جود من جهته شفرة الزر الأول 80 وشفرة الزر الثاني 04 ووضع جوليان شفرة الزر الأول 45 وشفرة الزر الثاني 05 ليتردد صوت صدى القفل في القبو وهو يفتح، سحب كل واحد فيهم دفّة الباب المحاذية له فوجدوا أنفسهم أمام مصعد خيل لهم أنه أول مصعد في التاريخ كان هيكله ذهبيا وبابه حديديا يفتح

نحو اليسار مزين بقضبان حديدية مبرمة على شكل شوارب شارلو كهمس، نزل بهم خمس وثلاثون مترا تحت سطح الأرض ليجدوا بابا آخر معدنيا أكثر تطورا يرجع صنعه للقرن العشرين أملس بلون أبيض ككل الغرفة التي نزلوا إليها لا يحتوي إلا على فتحة مستطيلة بطول بطاقة البنك أخذ جود بطاقة كلمة سر المدير وركبها على بطاقة سر نائبه ثم أدخلهما في الفتحة المستطيلة وبما أن الباب ليس له مقبض.

تراجع الكل إلى الورا منتظرين الباب يفتح أوتوماتيكيا نحوهم لكنهم فوجئوا بالباب يتراجع إلى الخلف ربما رهبة من الوجوه الجديدة التي فاجأته، لتنبعث أنوار تخرج من عشرة غرف متقابلة خمسة على اليمين وخمسة على اليسار، ليتشابك لمعانها تشابك الأيدي فتشكل ممرا نورانيا كأنه صراط جنة النعيم.

تقدم جوليان بحذر متبعا النور المنبثق من الغرف فأخذ قلبه لمعان الذهب، وسحبت روحه جاذبية بريقه واشتعلت عيناه ثم انشغلت بشعاعه ولم يرجع إلى صوابه إلا بعدما أحس بيد جود تلامس كتفه وسمع كلماته حين قال:

لقد أرسلت في طلب ليا وأيديها الخارجية ومعها رافاشول ومجموعته وعمال البنك بسلاسلهم كي ينزلوا إلى القبو



وسَيُنزَلون معهم كل الحمالات، ضعوها في الغرف العشر
بالتساوي وحينما تنتهي نصب ليا قائدة على من في القبو ثم
وافني فوق مع فلادمير كي نتابع آخر المستجدات...
لقد وصلت الشرطة وهم بصدد إزالة الشاحنات من أمام
طريقهم يقول فلادمير لجود.

حَضَرَ القنبلة إذا أريد أن يُسمع صداها يابسة الأرض وماءها
وأن تهتز سهولها وترتج جبالها يجب أن يسمع صوتها من به
صمم ويرى لهيبها من أصابه طلس.
ثم يردف أسمع أصوات طائرات هلكوبتر تتقدّم نحونا هل
تمّ توزيع الألعاب النارية على المتظاهرين؟
نعم لقد تم ذلك.

ابعث إنذار المروحية على هواتفهم وعزّزه بأمر استعمال
الألعاب النارية كسلاح يمنع تقدمها ويحول دون هبوطها فوق
سطح البنك أو أسطح البنايات المجاورة لابد من إبعادها
وإخافتها كما يخيف رجل القش الغربان.
سيدي أنظر إلى سرب طائرات الهليكوبتر الآتية من بعيد
إنها تابعة للجيش أعدادها كبيرة أعتقد أنهم سيحطون فوق
سطح البنك والبنايات المجاورة.

نعم المهمة ستوكل إلى الجيش هذا ما قاله لي وزير الداخلية

قبل قليل، سوف يسيطرون على الوضع في دقائق معدودة... ما هذا؟

إنها ألعاب نارية سيدي.

عددها مهول ستمنع طائرات الهليكوبتر من الاقتراب.

فعلا إنها تتبعثر كالذباب... تتراجع... إنها تتراجع سيدي...

انتبهوا لقد أصيبت واحدة... إنها تسقط

سكت الكل في ذهول، المشهد كان هوليوديا، دهشة عارمة

تصيب أفراد الشرطة وأهazيج متصاعدة من أمام البنك وأصوات

ألعاب نارية تتعالى معلنة بدأ احتفالية عيد النصر.

وفي وسط هذه الوجوه الشاحنة خرج وجه المفتش 'ماريام'

الحازم والمصر صائحا:

إنها فرصتنا لاستعادة السيطرة على الأمور، فالجيش يتراجع

والمتظاهرون منشغلون بألعابهم النارية... هيا أزيحوا كل هذه

الشاحنات من أمامي.

وبسرعة البرق وبعزم كبير استطاع أفراد الشرطة التغلغل

إلى الشارع الذي كان يحتله طلبة الثانويات والجامعات وانقضوا

عليهم بكل شراسة، فقد استعملوا معهم كل أساليب القمع من

ضرب مبرح تحرمه الدساتير وسحل تقشعر له الأبدان.



الأوغاد ما كل هذا الإجرام صاح جوليان لَمَّا رأى تجاوزات الشرطة عن طريق آلات التصوير التي تجوب الميدان على متن طائرات درون، ثم انطلق يجري متجها نحو الطلبة لكن جود أمسك به بقوة فصاح جوليان قائلاً:

اتركني يا جود أخي وأختي في الميدان ويجب أن أنقذهم أو أسعفهم إن كانوا من المصابين.

أعلم أن إخوتك هناك لكن مكانك هنا في القيادة.

لكن إخوتي في خطر...

لا تقلق سأتكفل بالأمر... فلادمير أرسل مددا لشارع الطلاب فوراً.

وفي الحال أرسل فلادمير أمرا عبر هواتف المتظاهرين ليتحرك فيلق من البلاك بلوك وآخر من الأنارشيست لنصرة الطلاب.

ثم أمر أحد أفراد مجموعته بأن يبحث عن المفتش 'مايرام' ويأخذ له فيديو دليلاً يدين تجاوزاته، وبالفعل أمسكته الكاميرا متلبساً، وهو يعتدي بكل وحشية على مراهق لم يصل سن الرشد بعد أن كان يكيل له الضربات بالعصى على رأسه ثم طرحه أرضاً وأمسك بأذنيه وراح يضرب برأسه على الأرض بكل وحشية حتى أسلم روحه وسقطت يداه أرضاً وتنحت مقاومته

جنباً وجلست عند رأسه تندبه، وبكى معها كل من في البنك لهول المنظر وبشاعته، ليصل أنصار الطلاب فيتدخلوا بكل بسالة ليردوا على عنف الشرطة بعنف يضاھيه ويذيقوهم من نفس الكأس حتى اضطروهم للتراجع، لتفاجأ الشرطة بضربات أكثر عنفاً بعضي من فولاذ، ضربات تكاد تكون مميتة... إنهم جماعة المكسرين لقد كانوا على الحياذ يراقبون وينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض على محل للمجوهرات والساعات الثمينة كانوا قد استهدفوه لكن بشاعة المنظر استفزتهم وأخرجتهم عن شعورهم وتركيزهم، ودفعتهم إنسانيتهم للذود عن المظلومين، فهم في الأصل جماعة من اللصوص الملتهمين يخرجون من أحيائهم الفقيرة أيام المظاهرات ليستغلوا حالة الفوضى وانشغال الشرطة بالمتظاهرين كي يكسروا محلات الذهب والأشياء الثمينة كي يستولوا عليها.

أعاد المتظاهرون الشاحنات إلى أماكنها وسدوا أي ثغر ممكن أن يتسرب منه هؤلاء المجرمون!

وفي نفس الوقت خرج ريان ومن معه يحملون أول أربعين حمالات ذهب ليصيح في فلادمير:

هيا يا صديقي فلنبداً:



كانت هذه أول دفعة يمكنها التخرج وضعها في بهو البنك ثم نزل ومن معه إلى القبو مرة أخرى ليجلبوا الدفعة الثانية. حرك أحد الأيادي الخارجية لفلادمير أربعين شخصا من بين المتظاهرين ليقودهم نحو بوابة البنك فيستقبلهم جوليان ويوقفهم صفا أمام رزمة الحملات ليمسك بيد أحدهم ويتقدم به ويطلب منه نزع سترته وأن يرفع حمالة ويلبسها ثم يأمره بربط حزامها على خصره ثم يستدير ليطلع على رقبته بجهاز يبقي علامة وكأنها وحمة حمراء ثم يضرب على كتفه ويقول له نلتقي غدا مساء في مدينة ليون وهكذا فعل مع الأربعين ليليهم أربعون آخرون ثم آخرون... ليبدأ نزييف الذهب الذي سيصعب على أي أحد إيقاف تدفقه.

بعد أن تراجعت الشرطة إلى الخلف أعاد المفتش 'مايرام' تنظيمها وأعطاهم دقائق لتستريح وتسترجع أنفاسها قبل أن يهاجم مرة أخرى ثم اغتنم هذه المدة ليتصل بالكولونال قائد عملية الجيش كي ينسق معه.

صباح الخير سيدي معك المفتش 'مايرام' الموكل له عملية البنك.

مرحبا سيد 'مايرام'

لقد اتصلت بك كي ننسق مع بعض عملية اختراق صفوف المتظاهرين والقبض على العصابة.
أحسن ما فعلت فأنت مطلع أكثر مني على تفاصيل القضية وعلى ما يبدو أن الأمور أكثر تعقيدا ممّا ظننت.
نعم سيّدي فنحن نواجه عصابة منظّمة، والرّأس المدبّرة لها في منتهى الذكاء.

لاحظت ذلك لقد أمرت طائرات الهليكوبتر أن تحطّ بعيدا عن حيّز المظاهرات أما باقي الكتيبة فنصفها معي والنصف الآخر بصدد إزالة الكم الهائل من الحواجز على الطّريق السّريع سيطلب هذا وقتا لكنني أعطيتهم الضوء الأخضر لاستعمال كل الإمكانيات اللازمة لفتح الطريق في أقرب وقت ممكن، جميل جدا هكذا ينضم إلينا فرق الشرطة للمدن المجاورة.
قل لي أيها المفتش ماذا تقترح خطة لفضّ المتظاهرين.

سيدي المتظاهرون منقسمون إلى عدة مجموعات، كل مجموعة تحتل شارعاً وكل مجموعة تنتسب إلى تيار سياسي معين، عندك تيار البلاك بلوك وتيار الأنارشيست، وتيار الفمنيست بالإضافة إلى الطلبة وهذان الأخيران هما أضعف حلقة، لهذا يستعين هذان الشارعان بمجموعات تعزّز قوتهم يأتون من شارع البلاك بلوك وشارع الانارشيست في حال



الهجوم عليهم.

أقترح إذا أن نشن هجوما مباغتاً في نفس الوقت، أنتم على شارع الفمينيست، ونحن نعاود الكثرة على شارع الطلاب كي نزعزع توازنهم ونخلط أوراقهم.

حسنا خطة جيدة تستحق التجسيد، فيما يخص الشاحنات تقرير وصلني للتو أنه يوجد شاحنات أخرى في ساحة لويس الرابع عشر، وتمتدّ إلى أن تصل إلى بوابة البنك، أعتقد أنها وسيلتهم لتهريب الذهب.

ذهب أي ذهب يا سيدي؟

مخزون البلد للذهب يقبع في قبو هذا البنك أكنت تجهل هذا؟! كيف تدير عملية بهذه الخطورة وأنت تجهل مدى أهميتها!! أي استهتار هذا من طرف الحكومة...؟

جود أرى أن جنود الجيش يتجمعون خلف شارع الفمينيست وأفراد الشرطة نظموا صفوفهم خلف شارع الطلاب، أعتقد أنهم يحضرون لغارة ثنائية يقول فلادمير.

نعم لقد لاحظت هذا، حسنا الآن ستبدأ الحرب، هل القنبلة جاهزة؟

على أتم الاستعداد ضغطة زر، ويُسمع صداها في أربع زوايا

العالم.

اضغط إذا...

قبل أن ننهي جلستنا اسمح لي بطلب صغير قبل أن أنصرف.

ضحك الوزير ثم قال:

كنت أنتظر هذه الكلمات فأنا أعرف مكرك وجشعك.

ابتسم المفتش 'مايرام' بخبت قائلاً:

لا تظلمني يا سيادة الوزير فالطلب ليس لي! لي صديق رجل أعمال وعنده مشروع كبير في باريس ويطلب بعض التسهيلات وقليلاً من الامتيازات وغض الطرف على كثير مما سيقوم به من تجاوزات.

لا إشكال خذ له موعداً مع سكرتيرتي وستجري الأمور كما يشتهي أو أكثر المهم عمولتي 10%، كالعادة ورقم حسابي في سويسرا تعرفه أحسن مني، حال ما أرى المال في حسابي كل معاملاته ستوقع ومشروعه سينطلق.

بالمناسبة صديقك هذا عنده يخت وفيلا في الكوت دازير؟

نعم له يخت من أفخم اليخوت في المنطقة.

رائع قل له أن يحجزه لي في الصيف المقبل مع الفيلا، فليس لي وقت لأذهب بعيداً هذه السنة، لهذا أفضل أن أقضي عطفتي في جنوب فرنسا هذا إذا أراد طبعاً.



بالعكس سيفرح كثيرا بل يشرفه استضافتك على يخته،
سأعلمه بالأمر وسأطلب منه أن ينظم هذه العطلة مع سكرتيرتك
حين يقدم لها معاملات مشروعه.

هنيئا مريئا كل هذه الكمية من سرطان البحر والاستكوزا
التي أكلت أيها المفتش.

أتريدني أن أدفع ثمن الغداء أيها الوزير؟

يتساءل الوزير ضاحكا تدفع؟ وما الفائدة من أموال الصّرائب
إذا كنا سندفع ثمن أكلنا وشربنا ومسكننا؟ نحن نتعب من أجل
هؤلاء الرّعاع ومثل هذه الامتيازات أقل ما يستطيعون أن يقدموه
لنا، فمن دون عقولنا حتما سيعيشون كالحوانات في الغابة أو
كالأفاعي في الجحور أو كالحشرات تحت الأرض أو على أقصى
تقدير كالبربر يأكل القوي فيهم الضعيف.

كان هذا تسريب صوت وصورة سرّيته VAGA لغداء العمل
الذي جمع وزير الداخلية والمفتش 'مايرام' قبل أيام، وأُرفق
بالجريمة الوحشية التي قام بها المفتش قبل دقائق ثم خرج
عليهم جود مباشرة من قلب ميدان لويس الرابع عشر خاطبا
في الشعب الفرنسي:

هذه عيّنة عمّن يتحكّم في مصائرنا وأكاد أجزم أنّ كلّهم
على هذه الشّاكلة ومن نفس الطينة مخلوقين من عجينة الخبث

والخيانة، إنّ من يحكمنا لصوص قتلة ومجرمون نهبوا أموالنا وسرقوا أحلامنا وقتلوا شبابنا وقضوا على كل شيء جميل فينا. سمعتم بأذانكم مدى احتقارهم لنا ورأيتم بأعينكم عظم كرههم لنا أو بعد كل ما رأيتموه وسمعتموه تتركونا نهلك!، ذلك الشخص الذي مات منذ قليل لم يكن لصا ولا إرهابيا ولا شيوعيا متعصبا بل كان شابا مفعما بالحياة مات ناشدا غدا أفضل له ولكم وضحي بروحه محاولا استرجاع حقوقكم التي سلبها هؤلاء.

أيها الشرطة ويا جنود الجيش أنتم منا ونحن منكم مشاكلنا من مشاكلكم وهو اجسنا من هو اجسكم وعدونا واحد، فكيف رضيتم لأنفسكم وقبلتم أن تكونوا العاصف في يد خصمكم واليد التي يبطش بها؟ فأنتم باعتدائكم علينا تعتدون على أنفسكم وأهليكم وبحماية مصالحهم تضرّون مصالحكم ومصالح أولادكم من بعدكم.

أنتم ونحن من طبقة واحدة لنا نفس الأمانى والأحلام، أما هم فمن طبقة عليا لهم مشتبهيات ورغبات نستحي حتى أن نحلم بها، فأنت وأنا نحلم ببيت صغير نضيع أعمارنا وأحلى أيامنا في تسديد أقساطه، أما هم فلهم قصور وفيلات تعدو فيها الخيل وكلما ملّت أنفسهم منها غيروا ديكوراتها بعشرات



الآلاف من اليوروهات، أنت وأنا نحلم بعطلة آخر السنة فننهك أنفسنا بالادخار ونحرمها من أبسط الرغبات لنقتصد بعض المال كي ننتهي في مخيم صيفي أقرب من إسطنبول بهائم منه إلى مكان راحة وترفيه، أما هم فيتنعمون بأموال ضرائبنا في يخوت على شواطئ موناكو وجزر المالديف...

سيدي الكولونال نحن على أهبة الاستعداد ماذا عنكم؟
وجنودي أيضا ينتظرون إشارة الهجوم.

وفي الحال انطلق الفريقان كل يضرب بقوة من جهته فيتوغل جنود الجيش توغل الخنجر في لحم الذبيحة حتى مزق لحمة المتظاهرين وشتت توحدهم، وتغلغت الشرطة واخترقت صفوف الطلاب المنهكين إلى أن وصلت إلى نصف الشارع في وقت قصير ليرسل فلادمير جمعا كبيرا من الأنارشيست مآزره للطلاب وأرسل البلاك بلوك إلى شارع الفمينيست فكانت معركة ضارية أراد فيها جود كسب الوقت بشتى الطرق، فكان يحرك المتظاهرين كالأخطبوط الذي له عدة أطراف حيث كان البنك هو قلب ومركز التخطيط وإدارة الأحداث، يحرك من خلاله أطراف الأخطبوط كيفما اقتضت الحاجة فلو ضعف طرف عززه بالطرف الأقرب إليه وهكذا... وقد حدت خطة جود من تقدم قوات الجيش والشرطة، بل دفعتهم للتراجع وأبعدتهم

عن مبتغاهم في الوصول إلى البنك وعزله عن المتظاهرين.
 جود لقد اخترقت فرقة مكونة من الشرطة والجيش شارع
 الأناشيسست الذي أرسلنا جزءا كبيرا منه لمساندة الطلاب.
 والمتواجدون في الشارع لن يستطيعوا الثبات لوقت طويل
 الأوغاد لقد عقلوا خَطَّتنا وقَسَموا أنفسهم إلى ثلاثة فرق
 بدلا من اثنين لتراجع إذا... هيا يا فلادمير مرهم بالتراجع
 وسيرهم كلهم نح والبنك ليشكلوا كتلة واحدة.

وفور ما وصلت التعليمات عبر الهواتف تراجعت أطراف
 الأخطبوط وتقهقرت نحو المركز لتشكل كتلة كبيرة يحيطها
 الجيش والشرطة من كل صوب، لم يثن هذا أفراد الجيش
 والشرطة عن التقدم بل زادوا في الضغط على المتظاهرين الذين
 أبلوا البلاء الحسن حتى الآن، لكن خبرة الشرطة وقوة الجيش
 أضعفت موقفهم وأنهكت قواهم، ولم يبق عن بوابة البنك إلا
 أمتار قليلة، فبدأت قواهم تنهار ومعنوياتهم تتهاوى وهمّة أفراد
 الجيش والشرطة تتصاعد.

كان الموقف حرجا جدا والكل يراقب بخوف ما يحدث في
 الميدان إلا جوليان ومن تحت إمرته كانوا منهمكين في تسريب
 الذهب، فالوقت كان يتناقص بسرعة كفتيل قنبلة، فقد كانت
 ليا ومن تحت سيطرتها داخل خزنة الذهب يضعون السبائك



داخل الحمالات ويوصلها رافاشول ومن معه إلى المصعد ليستلمها ريان بعضلاته وعضلات مجموعته كي يصعدوا بها الدرّج ويضعوها تحت أقدام جوليان الذي بدوره يسلمها للمجموعات، حيث كانت كلّ مجموعة تحتوي على أربعين شخصا، كل شخص يلبس حمالة تحتوي على أربع سبائك وكل سبيكة تزن اثني عشر كيلوغرام، فكان كل شخص يخرج بثمان وأربعين كيلوغراما من الذهب، وبالتالي كلّ مجموعة تهزّب ألفا وتسع مائة وعشر كيلوغراما، وكان جوليان يسير مجموعة كل أربعين ثانية بما يقارب تسعون فوجا في الساعة، بما يعادل مئة واثنان وسبعون ألف كيلوغرام كلّما أنهى العقرب دورة كاملة.

* * * * *

الحياة!..

هي أغلى ما يمتلك الإنسان والغريب أننا كلّما تقدّمنا في السن كلما عرفنا قدرها وكلما تشبّثنا في ذيلها، فتجد الجسد كلما هسّرّ ووهن احتضن روحه كما يحتضن العاشق حبيبته التي همت بفراقها له.

فلو أخذت مثلا طفلا يبلغ من العمر عامين ووضعت في مكان عالٍ وطلبت منه القفز في أحضانك لقفز دون

تردد، ولو قمت بنفس العملية معه بعد عامين وطلبت منه
أن يقفز لأبى خوفا على حياته.
لهذا كثيرا ما نجد أن الإنسان الناجح هو الذي نضج في
زهرة شبابه، وعرف فيها قيمة الحياة فعمل كي يجعلها
أكثر سعادة



الفصل الخامس عشر عشر



أحدث الفيديو الذي سرّبه جود والخطاب الأخير الذي ألقاه هزة في عرش السلطة، أخلطت أوراقها وبعثت أفكارها وزادتها حيرة فوق حيرة وحرك مشاعر الشعب الفرنسي الذي ثارت ثائرتة لما رأى من تجاوزات وجرائم، فنزع من على روحه غشاوة الخنوع وعرى قلبه من لباس الخوف وخرجوا بصدور عارية نجدة لمن كانوا في الميدان ثأرا لمن مات وانتفاضة في وجه من طغى.

جود تعال بسرعة، انظر!!

يا للهول ما هذا بحق الإله تعالوا انظروا!!

المشهد كان رهيبا اقشعرت له الأبدان، ملايين من الناس اتجهوا نحو ساحة لويس الرابع عشر، خرجوا من ديارهم وشركاتهم، تركوا سياراتهم وشاحنات عملهم وهرعوا نحو المتظاهرين نصرّة لهم، أسرعوا ليقفوا بجانب المظلوم صارخين صرخة رجل واحد في وجه الظالم ذاك المعتدي الذي استغفلهم وسرق أموالهم واحتقرهم وسلب كرامتهم، خرج ذلك الكهل الذي لم يهتمّ يوما بسياسة ولا لانتخابات، لم يطرق سمعه لحوارات بي أف أم تيفي العقيمة، ولا سمع لكلمة من كلمات الرئيس، كان همّه الوحيد أن يطعم أولاده متجاهلا زيادة في الأسعار وإضافة في الضرائب فقد كان الحل في يده إذ لم ينتظر



حلًا من السياسيين لمشاكله الاقتصادية، فكلّما زادت الأسعار وتضاعفت الضرائب زاد تقشّفه ونقصت رفايته، كان الأهم لديه أن يعيش بسلام مكتفيا بحبّ أفراد عائلته وأحضانهم ومتحمّلا مشاكله على كتفيه، لكن هذا الفيديو الذي رآه كان بمثابة دلو ماء بارد سكب على رأسه فأيقظه من مضجع اللامبالاة ونزع عنه غطاء الخضوع، وهرع ذاك الشاب إلى نجدة أقرانه الذين طالما تمادى من قبل في انتقادهم ووصفهم بالمتخاذلين الكسالى فقد قرّر رغم العراقيل والبيروقراطية ونقص رهيب في مناصب الشغل الاعتماد على نفسه في شق طريق مستقبله معولا على ساعديه دون أن يأبه للمشاكل الاقتصادية، فاختر أن ينهك بدنه ويشتغل في غير مجاله على أن يتعب نفسيا منتظرا حلًا من طرف الحكومة، لكن هذا الفيديو كان القطرة التي أفاضت كأس غضبه فأخرج إلى العلن حقه الدفين، وعادت من بين الأموات آلام قبرت في برزخ كبريائه، فهو قبل اليوم لم يجد بدءًا من إظهار آلامه أو الحديث عنها، إذ لم يثق يوما في من بيدهم السّلطة وأيقن في قرارة نفسه أنه إذا تكلم لن يسمعه فغشاوة آذانهم كانت كالسترة الواقية لا تصيبها رصاصات الناقدين وغباوة عقولهم مزمّلة بغطاء عازل لا تصلها أمطار الناصحين، وخرج أيضا ذلك الشاب الذي غيب عقله باحتساء

الخمير وشرب سجائره الملفوفة بالعشبة السحرية ملبيا نداء الشهامة التي غيبها مخدر اليأس لدهر من الزمن، فلم يعد يهمه لا عمل ولا مال اكتفى بإعانات الدولة والجلوس على أريكته يستنشق أوهامه ويتجرع خيبته، فظهر له هذا الفيديو على هاتفه صدفة فكان عبارة عن جرعة كافيين كانت كافية لتنشيط كل خلايا جسمه.

هؤلاء هم حزب الأريكة الذين خصّهم جود بخطابه الأخير، فهم التنين النائم الذي إذا استفاق حرق الأخضر واليابس وها هو يجري مستفيقا ونار محتدمة تخرج من فمه صارخا ومناديا بمحاكمة القتلة وعزل الفاسدين ومصادرة أموالهم، ومن بين الأسماء التي كان ينادي بالإطاحة بها وزير الداخلية والمفتش 'مايرام'، كانت أسماؤهم تدوي الساحة التي احتلّوها وطردوا منها عنوة أفراد الجيش والشرطة وأبعدوهم عن باب البنك وميدان لويس الرابع عشر بمئات الأمتار.

وبعد دقائق من استرجاع الأنفاس ودقائق من المحاولة لفهم الوضع واستيعاب العقل والعين لملايين من المتظاهرين التي تحيط بهم. رنّ هاتف المفتش 'مايرام':

كيف حالك سيدي الكولونال هل استطاع جنودك التسلّل من بين أيدي المتظاهرين بسلام؟



رد عليه برّد مقتضب:

نعم نعم نحن بخير أعطني الضابط لو كليز لأكلمه.
حاضر!!... أيها الضابط لو كليز الكولونال يريد أن يكلمك.
يكلّمني أنا!!.. ألو معك الضابط لو كليز، سيّدي أتامرني
بشيء.

نعم من الآن أنت قائد المأمورية مؤقتا مكان المفتش 'مايرام'
آآ.. حاضر سيدي
وألق القبض عليه وجرّده من سلاحه.
ماذا أفعل!! هل هناك خطب ما.

نعم الأمر خطير للغاية وسيخرج الجيش بقوات كبيرة لحفظ
الأمن، من الآن يجب ضبط النفس والتعامل مع المتظاهرين بكل
هدوء وروية فالحالة العامة للشعب لا تحتمل مزيدا من الأرواح
ولا التجاوزات.

أرواح!! أي أرواح؟

ادخل إلى هاتفك وتصفّح الشبكة العنكبوتية وستفهم.
أغلق الضابط الخط. ودخل على الحساب الخاص به
للفايسبوك ليصادفه فيديو المفتش مباشرة دون عناء بحث.
فوقف شعر رأسه ذهولا لما سمع ورأى واشتعلت عيناه غضبا
وهو يرمق المفتش الذي كان يراقب الوضع بحذر، فخبّرتة فهم

أن المهمة نزع من يده لكنه لم يفهم سبب نظرة الضابط له.
ليصبح فيه ممسكا بقميصه:

أيها الوغد نحن نخاطر بأنفسنا حفاظا على الوطن وسلامة
المواطن، وأنت تخاطر بنا وبأرواحنا حفاظا على مصالحك
ومصالح الفاسدين المنتفعين من مناصبهم أمثالك... خذوه غلوه
وارموه في سيارة الترحيلات واجعلوه يغرب عن وجهي.

ممممماذا حدث مممما الأمر أيها الضابط لوكلير كيف
تجرؤ على مخاطبتي بهذا الشكل؟

ماذا حدث أتريد أن تعرف ماذا فعلت؟

ليشهر في وجهه الهاتف ويشغل له الفيديو قائلا:

هذا هو سبب سخط الملايين من الشعب، كدنا أن نقضي
على العصابة لم يكن بيننا وبينهم إلا خطوات قليلة، لكنك
أفسدت كل شيء وألهبت سخط الجموع بجشعك وطمعك
أتمنى أن تقضي بقية حياتك في السجن.

وقع المفتش 'مايرام' مغشيا عليه بعدما عرف سبب إلقاء
القبض عليه، حيث كان وقع الصدمة قويا جدا عليه. فقد أيقن
أن حياته انتهت وأن سمعته تلطخت وأنه خسر كل شيء، ولم
يستفك إلا دقائق بعد هول الفاجعة أين كان في سيارة الإسعاف
محاطا بممرضة وشرطي لحراسته، بقي مغمض العينين يفكر



في حل لمأزقه حيث كان تائها بين ملايين الأفكار التي تتسابق في ذهنه كحيوانات منوية تتبارى من أجل تلقيح بويضة، لكن أفكاره تساقطت الفكرة تلو الأخرى جثسا متعفنة تأبى الضباع أكلها وتعفّ الجوارح نهشها لتنجح أخيرا فكرة وحيدة بالتزاوج مع عقله والتوافق مع مبادئه الشيطانية، حلّ خطير فيه مجازفة بحياته لكن حياته لا قيمة لها بعد اليوم فقد وصل إلى القعر ولا مخاطرة فيما سيفعل بعد الآن، وبعد أن فكّر ثم قرّر، قفز فجأة من سريره بسرعة الفهد لينقضّ على رقبة حارسه فيكسره ويجرّده من سلاحه، ثم أمسك بقوة ذراع الممرضة المدعورة وصرخ فيها:

اتبعيني وطبّقي أوامري كي لا يلحق بك أي أذى.

حاضر سيدي، أجابت الممرضة وهي ترتعش بوجه اسودّ رعبا وعينان لمعتا ثم دمعتا خوفا، فجرّها من رقبة قميصها حذرا ممن هم حوله مختبئا ورائها وهي أمامه تمشي مهتزة الجسم تلتوي بمفاصل رخوية كحياة يمسك بها صياد من عنقها.

أمسك الضابط لوكلير هاتفه مجددا ليعاين الفيديو للمرة الثانية كي يتأكد ممّا رأى وسمع ليقطع الفيديو رنين اتصال، ألو، مرحبا أيها الضابط قل لي هل تمّ القبض على المفتش

مرحبا سيدي المفتش مونيبي نعم تمّ وهو الآن في سيارة
الإسعاف لقد أغمي عليه لما رأى الفيديو.
حسننا دعوه في سيارة الإسعاف حتى أصل فأنا في طريقي
إليكم.

فجاء من أقصى الميدان شرطي ينادي:
أيها الضابط، أيها الضابط لقد تمكن المفتش 'مايرام' من
الهرب !

ماذا تقول ! وأين هو الآن؟

ليس ببعيد يمسك الممرضة كرهينة.

سيدي المفتش هناك مشكلة!

نعم لقد سمعت الخبر... حاصروه ولا تدعوه يفلت من بين
أيديكم حتى لو استلزم الأمر تصفيته، على كل حال سأصل
بعد دقائق لأتسلم زمام الأمور.

ثم أغلق الهاتف والتفت قائلاً لشرطيين ملثمين كانا معه
في السيارة:

ستنزلان بآمتار قبل أن نصل للموضع الذي هو فيه، تختبئان
وتتحيّنان الفرصة السانحة للقضاء عليه.

وفعلا ما هي إلا دقائق حتى نزل المفتش من سيارته متجها
نحو الضابط:



هل تمكّنتم منه؟

ليس بعد سيدي لقد لجأ إلى هذا المنزل وأحکم غلقه وسدّ
كل النوافذ وتترّس برهائن.

حسنا هل جرّدتموه من هاتفه النقال أم مازال بحوزته؟
لا لم نجرّده منه... سأحاول الاتّصال به إذن... إنّه يرنّ سيدي
لكنه لا يرد.

ابعث له رسالة، قل له: المفتش العام لمدينة باريس السيد
مونيي هنا ويريد محادثتك.

بعد أن قرأ 'مايرام' الرّسالة عرف أن المفتش مونيي وصل
أخيرا، فعاود الاتّصال به دون تردّد.
إنّه يتّصل سيدي...

مرحبا سيد 'مايرام' كيف حالك؟

حالي!! على أحسن ما يرام يقولها بنبرة استهزاء ثمّ يضيف
فليكن في علمكم أنني لن أسقط وحدي بل سأجرّ معي رهطا
من السياسيين ورجال الشرطة والجيش...

لن ندعك تسقط فأنت واحد منا، سلّم نفسك أولا وبعدها
سنبحث عن حلول، الأهم الآن أن نحميك من الجمع الغفير
الذين عزموا على الإطاحة برأسك من على كتفيك.

وما هي الضمانات التي ستقدمها لي كي أسلمك رأسي؟

عن أي ضمانات تتحدث أظن أنك لست في موقف يخوّل لك وضع شروط.

بل أنا في موقف جدّ قوي مقارنة بكم، فأنا كما تعلم خسرت كل شيء ولا حاجة لي في الدنيا بعد هذه اللحظة أخاف عليها، أما أنتم فبلى وقد حسبت حساب يوم كهذا فلي ملفات لو طفت على السطح لسقطت رقاب كثيرة وأولهم أنت فملفك عندي بكل تفاصيله من حسابك البنكي في سويسرا مروراً بعلاقاتك المشبوهة بما في المخابرات بالإضافة لحوادث التعذيب وتلفيق التهم... كله مثبت عندي.

حسنا ما دمت لعبت بأوراق مكشوفة فسأبرز أوراقك كذلك، كلنا نلعب نفس اللعبة القذرة وكلنا لنا ملفات عن الآخر لكن أنت تعلم أننا نقف مع من يسقط حتى الرمق الأخير ونبذل قصار جهدنا كي ننتشله مما هو فيه ولو فشلنا فمن الطبيعي أن يكون كبش فداء كي ننقذ باقي القطيع، فأنت تعلم مخاطر ما أقحمت نفسك فيه فقد غامرت بسمعتك وحياتك من أجل المال واليوم يجب أن تتحمل مسؤولية اختياراتك لهذا أطلب منك للمرة الأخيرة أن تسلّم نفسك واعطنا فرصة كي ننجو بك أو نجد لك طريقة نهربك بها من البلاد فنحن أرحم عليك ممن يتربصون بك خارجا.



حسنا أيها المفتش... سأثق فيك وأسلم نفسي، لكن فليكن في علمك أنه لو حصل لي مكروه فستخرج الملفات إلى العلن تلقائياً ثم أغلق هاتفه وحرّر رهائنه ورمى بسلاحه أرضاً وجلس على كرسي يشرب سيجارته الأخيرة مشغلاً لفافة شريط حياته ذلك الشريط الأسود الذي حينما تعرضه إلى الضوء يظهر لك صوراً ومحطات غير واضحة الملامح يقسمها عمودياً شريط صغير أبيض لو دقت فيه لوجدته مكوناً من كلمة ندامة مكررة آلاف المرات بأحرف مجهرية، نعم لقد ندم لاختياره المشي في طريق مسدود عبّده بكرامته وفرشه بمبادئه، داس على أخلاقه وسار على شهامته وركب مركبة الجشع وانطلق دون أن ينظر إلى الخلف بسرعة مسابق فورميلا I، ودون أن يعير انتباهها للإشارات التنبيهية إلى أن اصطدم بشارية عملاقة مكتوب عليها بالبند العريض:

يوم لا ينفع ندم.

لما دخل المفتش... وجد 'مايرام' جالسا شارد الذهن قلقا يمسك سيجارته بيده اليمنى تدخن شفاهه إبهام يده اليسرى. سيد 'مايرام' قف لو سمحت... آسف يجب أن أقيّد يديك أمام الملائحة فأنت في نظرهم مجرم يجب الاقتصاص منك.

يقف ماذا يديه منكسرا خاضعا ككبش عيد يمد رقبتة طوعا
بعد طول مقاومة، مشيا جنباً إلى جنب نحو باب الخروج وأول
ما وصلا بادر المفتش مونيي بالسؤال:

أعتقد أنك كنت تراوغ حين قلت أن الملفات ستنتشر
تلقائياً في الشبكة العنكبوتية لو حصل لك مكروه.
ابتسم 'مايرام' بخبث ثم قال:

نعم كانت خدعة للمحافظة على حياتي، لكنه من الصعب أن
أخدع رجلاً فطنا خبيراً في فن الخداع مثلك.

ليعطي المفتش إشارة اخترقت بعدها رصاصة رأس 'مايرام'
فأحدثت فيه ثقباً مكان عينه اليسرى ليسقط ميتاً قبل أن
يلامس رأسه الأرض، ليخرج من هذه الدنيا من أضيقت الأبواب...
أيها المفتش مونيي سلم نفسك وارم سلاحك.

ليرفع رأسه مذهولاً فيجد جمعا من الشرطة على رأسهم
الضابط لوكلير شاهرين أسلحتهم ضده.

ماذا يحدث؟ ماذا دهاكم؟!

ليرد عليه الضابط.

يا ابن الزانية مكالمتك مع المفتش 'مايرام' كانت منقولة
على الهواء وسمعها كل الشعب، يا لكم من أوغاد لقد لظختم
سمعنا وسيظن الناس أننا كلنا فاسدون مجرمون مثلكم... لقد



عراكم هذا الفتى المدعو بالفنان وأبرز سوأتكم للكل وأظهر
حقيقتكم البشعة، أتمنى من كل قلبي أن أراك معلقا على عمود
في ميدان أنت وكل من اشترك معك في تحطيم هذا البلد.

تقهقر المفتش بخطى مضطربة ليستدير ثم يهرب مستجيرا
بأعلى البناية ناهجا نهج ابن نوح الذي أبى أن يركب سفينة
النجاة، واحتمى بأعلى جبل ظنا منه أن فيه نجاته لتكون
عاقبتهما واحدة فقد جرف المفتش مونيي طوفان غضب
الشعب فأخذه أخذة رابية ثم ألقوه من فوق البناية جثة هامدة
منكبا على وجهه كغريق رمته الأمواج على الشاطئ.

وقع المفتش مونيي في فخ جود حين اتّصل بالمفتش
'مايرام' الذي كان قد حمّل تطبيق فلادمير على هاتفه فمكّنه
من قرصنته والاطلاع على كل ما فيه وأول ما رأى أن 'مايرام' في
اتصال مباشر مع المفتش مونيي جعل المكالمة على المباشر
في صفحة جود فتقاسمها الناس على صفحاتهم وتناقلتها
المحطات التلفزيونية للأخبار ليصل الغضب ذروته عند الشعب
بكافة أطرافه وتوجهاته لينزل إلى الشارع عن بكرة أبيه في
كل مدن فرنسا وقراها ولاحت في الأفق بوادر عصيان مدني،
فشلت البلاد وتجمّدت عقول الساسة وتعذّر عليهم إيجاد
حلول فالضربة كانت مفاجئة وأتت في مقتل، وكان أفضل

ما توصلوا إليه هو أولاً القبض على وزير الداخلية وبعض من السياسيين والزجّ بهم في السجن أمام الملا لعل هذا يخمد قليلاً نيران غضب الشعب، لكن الوزير تبخر ولم يجدوا له أثراً فأخر مرة شوهد كان قبل ساعتين في الإليزيه أين دخل غرفة الملفات السرية، ثم غادر مقر الرئاسة دون مرافق أو سائق وحتى عائلته تمكنت من مغادرة البلاد قبل دقائق في طائرة خاصة نحو المغرب.

ثانياً المحافظة على الذهب ومحاصرة العصابة في البنك دون مزيد من العنف أو المواجهات المباشرة مع المتظاهرين، فالوضع لا يتحمل مزيداً من التجاوزات. يكفي أن نرصد الذهب ونحافظ عليه ونتأكد من بقاءه في مكانه إلى أن يتفرق الجمع ونستفرد بالعصابة، فمهما طال استقواؤهم بالشعب، فالشعب سيمل ويتعب وينفضّ من حولهم لهذا سنكتفي بالمراقبة من بعيد.

وبالفعل اكتفت الشرطة وأفراد الجيش بالمراقبة ومحاصرة المتظاهرين دون نية لمواجهة أو استعمال عنف، بالعكس فقد سربل الهدوء المكان وهبّ نسيم الوئام وتبادل المعتصمون أكواب الشاي الساخن والقهوة مع أفراد الشرطة والجيش وتبادلوا أطراف الحديث بكل حب واحترام واتفقوا بأن ما



يحدث من تجاوزات من طرف الحكومة يجب أن يتوقف وأن يحاسب كل فاسد عن طريق محاكمات علنية وراعدة كي يكونوا عبرة لغيرهم.

* * * * *

من الطبيعي أن يحب الإنسان المال لكن المؤسف أن يختار طريقا مكيفيليا لجنيه، ففي هذه الحياة طرق جملة لا حصر لها لكسب المال الحلالا قد تبدو لك صعوبة في البداية أو موصدة الأبواب لكنك حينما تجد مفتاح النجاح ستتوالى النجاحات وتكثر الأصفار في رصيدك البنكي وتتراكم بسرعة كرة ثلج صغيرة، تحاولا جاهدا في بداية الأمر دحرجتها لكن أولا ما يصادفها منحدرًا ستتدحرج دون عناء منك آخذة حجما أكبر فأكبر كلما اقتربت إلى سفح الجبل، وفي المقابل هناك سبلا محدودة لجمع المال الحرام قد يخيل لك في أولا الأمر أن الطريق سهلا معبدا، أبوابه مفتوحة على مصراعيها لكن في حقيقة الأمر هي حلقة حلزونية تجري فيها نحو الهاوية كمجموعة ثيران وحشية هاربة من ملتهمها مطأطئة الرأس تسقط أكثريتها في الهاوية قبل أن تصل إلى بر الأمان، ومن ينجو منها



ينجو إلى حين.

فليس من العيب أن يحب المرء المال لكن العيب في وسيلة كسبه له، فالمحب للمال محب للنجاح والإنسان الناجح منتج مفيد لمن حوله، وأيضا من الرائع أن تختار خصلة الرضى بالقليل لكن من العيب أن تختبئ وراء هذه المنقبة الجميلة كي تخفي مثلبة التكاسل القميئة، فمن رضى بقلته رزقه فهو إنسان قنوع لكن قناعتك بمحدودية دخلك لا تعني أنك إنسان غير منتج فقد تنتج فكرا أوعلما أو مجهودا لمساعدة غيرك، أما لو ادخرت مجهودك في كسب المال وادخرته في إنتاج كذا ما سبق فأنت كسول متخاذل ورضاك بقلته رزقك عيب لا مكرمة.



الفصل السادس عشر عشر



إنها السادسة والنصف مساء وما زال ملايين من الناس يجوبون الشوارع وآلاف مؤلفة مكدسة حول البنك ككتب مرصوفة بعناية، على رفوف مكتبة ينتظرون سماع خطاب رئيس الجمهورية مباشرة على الساعة الثامنة مساءً، أما جود وجماعته فقد كانوا فرحين بأخبار المتظاهرين خارج أسوار البنك فخورين بنجاح خطّتهم مشمّرين عن ساق الجد مكملين بمنتهى المثابرة في تسريب سبائك الذهب حيث تمّ تهريب ما يقارب ألف وخمسمئة طن وما زال العمل على أشده لاستئصال كل ما يشع من قبو البنك.

بعد بث النشيد الوطني لامارسييز على شاشة تحتل خلفيتها خارطة فرنسا مكسوة بالألوان الثلاثة للعلم يقسمها شريط مائل أسود في الركن عنوانا للحزن، ورئيس يطل بوجه شاحب وشفاه بيضاء متصنعا الهدوء ورباطة الجأش...

أيها الفرنسيات والفرنسيون، أعزائي المواطنين والمواطنون القاطنون بين ثنايا حدود بلدنا أو من كانوا وراء البحار، كنت أمل أن أخرج عليكم في ظروف أحسن من هذه وفي جو عام ألطف من هذا لكن للضرورة أحكام، وقبل أن أبدأ حديثي وجب عليّ أولاً أن أتقدّم بأحرّ التعازي لأهل الشاب الذي قتل بكل وحشية ودون أدنى رحمة أو إنسانية هذا الصباح والمؤسف



المخزي أن من قتله هو المخول بحمايته والدّود عنه... وأنا هنا لا أخص بالتعزية أهله فقط بل أعزي الشعب كلّ الذي فقد شابا لامعا واعيا، فالיום بفقدان هذا الطالب البطل قد نكون فقدنا عالما جليلا أو رئيسا نبيلًا أو طبيبا فضيلا...

أعلم أن خيبة أملكم كبيرة في قائد شرطتكم ومعه أحد الوجوه الممثلة لحكومتمكم وغضبكم مشروع وردة فعلكم طبيعية بل مطلوبة، فأنتم في الحقيقة حماة الديمقراطية وحرّاسها، وسيلتها وغايتها، بل أنتم مصدرها ومستقرّها، وانتفاضتكم هذه بالإضافة إلى أنها حق كفله لكم الدستور فهي أيضا ميزان يزن به السياسي أعماله ومعياري يقيّم به نفسه وآلة صاعقة تعالج بالصّدّات أمراض السياسة، فأكيد خروج الناس بالملايين سيعود بالنتفع علينا فنصحّ أخطاءنا دون أن نهدم ما بنيناه، فقد ثار أجدادنا على النظام الملكي قديما وأنتجت ثورتهم نظاما ديمقراطيا رائعا، وها قد جاء اليوم دورنا كي نشور لنصحّ غلطاتنا ونتجه بهذا النظام نحو الكمال، صحيح أن الديمقراطية صنعها الإنسان على صورته بتناقضاته وعيوبه لكننا سنعمل معا كي نقلل من هذه العيوب ونصحّ قدر المستطاع تلك الغلطات، وأن نرمم ما يجب ترميمه دون أن نهدم ما بني منذ قرون خلت، يجب أن نصحّ المسار لا أن نرجع

على أعقابنا كي نبدأ من جديد، فانتبهوا من دعاة الهد والهدم دعاة التخريب وما أكثرهم واستمعوا لدعاة التعقل، فتريشوا ولا تنقادوا وراء دعاة الفتنة، فتصحح المسار يستلزم هدوءً وروية ومناخا يسوده السلم والأمان، لهذا أطلب من الكل أن يلزم بيته عمله وأشغاله المعتادة، وسنعمل معا لمكافحة الفساد ومحاربة المفسدين فيجازى كل حسب ما اقترفه، ليكون الجزاء من جنس العمل...

ولقد أمرت بفتح تحقيق شامل مع كل من له علاقة بالسياسة وأولهم أنا مروراً بالوزراء والنواب وصولاً إلى رئيس أصغر بلدية، ثم أصدرت قراراً جمهورياً بمنع سفر كل هؤلاء إلى أن تنتهي كل التحقيقات فنبرئ البريء ونشجع الأمين فيهم ونقاضي المذنب ونعاقب الخائن منهم...

وبعد ساعة كاملة من كلام عقيم وكذب على الذقون وبعد ساعة من وقت إضافي في صالح VAGA خرج جود على صفحته الرسمية وعلى قناته في اليوتيوب كي يرد على رئيس الجمهورية الذي جهل أن تلك الساعة التي تكلم فيها كلفته كثيراً فقد كان ثمنها باهضاً جداً حيث كانت تزن آلافاً من السبائك الذهبية التي تسربت خفية، ليربح جود ساعة لا تقل ثمنها قائلاً:



أيها الرئيس حسب معلوماتي أنت من محبي ركوب الخيل والفروسية، لكنني كنت أجهل أنك أتقنت ركوب الأمواج العاتية فإني أراك اقتنيت لوحتك وركبت أمواج الثورة وحشرت أنفك مع الثوار بل حسبت نفسك قائدا لهم فرحت تصدر الأوامر وتملي الخطط،

لكنني أقولها لك ولمن دنست السياسة قلوبهم أمواج الثورة عالية هذه المرة عن مطامحك وتطلعاتكم فمهما حاولتم تسلق جدرانها فستهوي بكم بقوة لتدوسكم أرجل مفجريها. أيها الرئيس لقد حصرت المشكلة في أشخاص تستعملهم كأكباش فداء لتوهمنا أنك قضيت على المشكلة متى قضيت عليهم، لكن الشعب عمّ المشكلة على نظام بأكمله تزول المشاكل بزواله، وأنت أول من يجب أن يتنحى ويحاسب، فبطانتك أنت من اخترتها وأنت المسؤول عنها، فحتى لو كنت أمينا صادقا فأنت فاشل، لست أهلا للثقة فكيف لك أن تختار لنا الطريق الصحيح وقد فشلت في اختيار وزرائك...؟ هذا رد مبدئي فقط أما الرد الحقيقي فما ستراه غدا دون ما تسمعه اليوم فاللعبة في أولها وما زال في جعبتنا الكثير...

أنهى جود كلماته والساعة تشير إلى العاشرة ليلا تزامنا مع اختفاء جماعة VAGA بين الجموع دون علامة تلفت الانتباه

أو لبس يجلب الأنظار أو أجهزة تدعو للشك بل ارتدوا بزات صفراء ككل المتظاهرين.

بدأت أطراف الأخطبوط تتلاشى وتنكمش نحو المركز ملتفين بالبنك والشاحنات التي كانت تتحرك ببطء طوال اليوم وكأنها تشحن شيئاً ما تحت الرداء الأسود من أمام بوابة البنك حيث تحرك الكل كموكب ملكي تحوطه الحراسة من كل جانب.

لقد تركنا ما يقارب المئة وخمسون طناً من الذهب يا جود وهذه كمية كبيرة يعز علي تركها لهؤلاء اللصوص.
قال هذا جوليان وهو يمشي بحذر مبتعداً عن البنك ومنفصلاً عن المتظاهرين شيئاً فشيئاً مصطحباً جود.

لا تقلق يا جوليان فالذهب الذي أخذناه أضعاف مضاعفة، فقد أخذنا ما يقارب ألفين وثلاثمئة طن ثم أنت تعلم أن الذهب ليس غايتنا بل وسيلتنا لإسقاط النظام الحاكم وإقامة نظام جديد جمهوري يكون الشعب هو السيد فعلاً، نحن الآن بصدد كتابة تاريخ جديد وصناعة دولة جديدة، دولة يسودها العدل والأمان، التقدم والازدهار فثورتنا ليست ثورة جياع كسابقاتها بل هي ثورة وعي ثورة علم ومعلوماتية فإذا عرفنا استغلال العلم والمعلومات بالإضافة إلى المال الذي نمتلكه في صالحنا



فسننجح في إطاحة النظام، ونجح أكثر في إقامة دولتنا...
ألو نعم سيدي الرئيس معك الكولونال نُوال.

كيف هي الأحوال أيها الكولونال؟ طمّني على سيرورة
الأمر، لقد بدأت المظاهرة في الانكماش ولكن العدد مازال
لابأس به، إنهم يتحرّكون مع العصاة يحرسون الذهب المحمّل
في الشاحنات ونحن الآن نتبعهم ونحاصرهم من كلّ جهة
نتظري الأوامر الجديدة فأخر أوامر وصلتنا كانت تقول بعدم
التعرّض للمتظاهرين.

لا تتركوا الشاحنات تغيب عن أعينكم وأول ما تجدوا
الفرصة انقضّوا عليهم وحولوا بينهم وبينها.
علم وسينفذ سيدي الرئيس.

ولم تمرّ دقائق حتّى انفصل المتظاهرون عن الشاحنات،
حيث توقّفوا عن المشي وأكملت الشاحنات طريقها عشرات
من الأمتار ثمّ توقفت عنوة أين كان الجيش لها بالمرصاد الذي
احتضنها وسربلها كذرع مقاتل ظنّا منهم أنهم للذهب حامون،
أما الجماهير فقد تقهقرت ثم في ومضة برق اختفت ليغنم
الجيش شاحنات خالية إلا من بعض الألعاب النارية وأقنعة
مضادة للغازات وبعض من القهوة والشاي.

ضحك الكولنيل نُوَال لَمَّا اكتشف ما تحتويه الشاحنات، ثم أمسك فنجان قهوة ارتشف منه رشفتين، وقال:

يا له من داهية، هذا الشاب تغلّب على نظام كامل بجيشه وشرطته وإعلامه بصفحة على الفايسبوك وقليل من الألعاب النارية، لقد أوقع الكل في حبال شبكته العنكبوتية التي حيكت بطريقة متينة رغم وهن مكوناتها!! خسارة أنه اختار السرقة والنصب لو دخل الجيش لكان قائدا لا يشقّ له غبار، ولتمنيت أن أكون تحت إمرته كي أحظى بملازمته والتعلم منه والانتشاء بانتصاراته...

ومع آخر رشفة رنّ الهاتف... إنه الرئيس يسأل عن الأوضاع وقد كانت صدمته كبيرة لسماعه خبر تبخر الذهب وضياع أثره، فهذا الخبر سيكلفه منصبه لهذا دخل في نوبة هستيرية أقرب من الجنون إلى العقل، ليأمر حاشيته بالقيام بمداهمات فورية تمس عددا من رجال السياسة ورهطا من أصحاب المال والأعمال، وشدد على أن تكون هذه المداهمات تحت أنظار كامرات الصحفيين كي يخففوا بها من احتدام غضب الشعب ويمتصوا بها تأجج ثورته، وكان أول رأس مطلوبة هي رأس وزير الداخلية... الذي احترقت كرتة ووجب التخلص منه ووضع موضعا كبش الفداء، وبعد تحريات مكثفة اتضح أنه انتقل خفية



من الإليزيه إلى منزله ثم اتجه نحو محطة القطار أين فقد أثره
فلا يدري شخص أي وجهة سلك.

بعد أن سلك جود ورفاقه وحملة سبائك الذهب طرقا وعرة
ومدنا صغيرة متفادين الطرق السريعة التي امتلأت بدوريات
الجيش، وصلوا أخيرا إلى ضواحي مدينة ليون تحديدا إلى
بلدية 'ريولا پاپ' أين اتخذوا لهم مبنى خاصا ليكون غرفة
عمليات ومقر تخطيط لما هو آت، فقد لوحظت حركة غير
اعتيادية في المدينة مع بزوغ الفجر أين توافد عليها آلاف من
المهاجرين مثقلين بسبائك ذهب ويحملون بين طياتهم أفكارا
جديدة وآمالا كبيرة في النهوض بحضارة جديدة بمبادئ مبنية
على الحرية الحقّة والعدل والمساواة.

لما دخل جود إلى مقره اتجه مباشرة إلى غرفة الطابق
الأرضي لملاقة شخصية مهمة جدا للخطوة المقبلة من خطته،
فالحراك الشعبي يجب أن يدوم أكبر وقت ممكن ليخلق فوضى
أكثر يدمر بها النظام الحاكم، فيزعزع بها استقرارهم ويشوّش
بها على أفكارهم وقراراتهم ويعطي لنفسه ورفاقه وقتا كافيا
للمضي قدما في إنشاء نظام حكم جديد ليتموقعوا بموقع الأول
في السباق كلما أراد المتسابقون اللحاق به يزيد من سرعته
ليحافظ على المسافة الفاصلة بينهم دوما.

كيف حالك أيها الوزير؟ السابق طبعاً.
حيًا جود وزير الداخلية بكل ثقة وثبات ليرد عليه الوزير
مرتجفا متوترا.

بخير... بخير... وأنت كيف حالك أيها الفنان؟ وأين وصلت
في مخططكم؟ وهل نجحتم في سرقة الذهب؟
رويدك أيها الوزير تمالك أعصابك فأنت في أمان بيننا...
نعم تمكنا من الاستحواذ على الذهب وخطتنا ناجحة حتى الآن
وستكون أكثر نجاحا بمساعدتك.

أنا تحت أمركم وسأمدكم بكل المعلومات اللازمة مادمتم
عند وعدكم لي...

قبل أن يأمر جود بإرسال ونشر الفيديو الذي أثار جنون
الشعب وأثبت بما لا يدعو للشك تورط شخصيات سامية في
الحكومة والشرطة في فضائح مالية، أمر أولا بإرساله إلى الوزير
كي يبتزّه به ويفاوضه على حياته وحرية وسلامته من المساءلة
بتهريبه إلى خارج البلد وإيصاله إلى إحدى بلدان شمال إفريقيا
عبر البحر بمقابل أن يعطيه مستندات ودلائل وتسجيلا لتورط
أكبر عدد من الشخصيات السياسية والقيادية في البلد...

أكيد... أكيد... فأول ما تعطنا المستندات وتسجل فيديوهات
اعترافاتك على نفسك وعلى كل من كان معك وواكب فسادك



أو من كان قبلك واتخذته إماما لك. عندها ستجدنا صادقي
الوعد وسنهربك من هنا نحو مدينة تورينو الإيطالية ومن
بعدها نحو مدينة سيسيليا ومن ثم عبر زورق سريع يوصلك
إلى تونس، وسنعطيك المال الذي يكفيك كي تعيش بنفس
مستوى معيشتك الحالية.

وبعد أن صادق على الاتفاق الذي أبرم البارحة عبر الهاتف
أخذ جود المستندات التي تدين عددا كبيرا من صناعات القرار،
ثم باشر بتسجيل فيديوهات مع الوزير يفضح من خلالها
تجاوزات الدولة ومن يسيّرهما.

وكان أول تسجيل سربه جود هو مكالمة بين حاشية الوزير
الأول الفرنسي الأسبق وأفراد من مخبرات أفغانستان ونظيرتها
السعودية أين اتفقوا على تفجير حافلة تنقل على متنها تقنيين
فرنسيين وأفغانيين وعرفت الحادثة باسم كابول 2001 أين
انتقلت حاشية الوزير من الرئيس السابق ومكتبه التنفيذي
الذين أوقفوا التعاملات المشبوهة والعمولات غير المشروعة
التي كان يستفيد منها بعض من أصحاب القرار في فرنسا،
وبعض من الوسطاء في الأعوام التي تلت 1995 وهذا على إثر
بيع أسلحة وغواصات حربية... أثبت هذا التسريب تورط عناصر
من الحكومة الفرنسية في قتل مواطنين فرنسيين دون وجه حق،

قتلوهم غدرا وبأبشع الأشكال نكاية في من قطع عنهم سبيلا
من سبل الفساد.

ومعه تسريبات لمكالمات وتسجيلات لأفراد من المخابرات
الفرنسية مع عناصر من الحكومة تعمل على تحريك والتلاعب
بعقل الإرهابي القاتل مولود عاشور فحينما وجدوا فيه الشخص
المناسب الذي يستطيعون توجيهه ونحت فكره بما يخدم
مصالحهم ووجدوا عنده قابلية للقيام بمجازر تأبى أن تقوم
بها الحيوانات المتوحشة أرسلوا إليه عناصر من المخابرات
الفرنسية التي تغلغت في وسط الإرهابيين وأقنعوه أنهم من
القاعدة وأوكلوا إليه سلسلة قتل أفراد جيش ثم اختتموا
مجزرتهم بقتل أطفال أبرياء أكبر ذنبهم أنهم ولدوا يهودا،
وكان المولود يختار عرقه ولونه أو دين أبويه ومن بين المقاطع
التي سرّبت لهذه القضية مقطع لمكالمة شرطي كان من ضمن
فرقة التحري حين اتصل برئيسه يومين بعد موت أول ضحية
الماريشال أنيس فرج:

سيدي لقد لاحظت شيئا مهما قد يفيدنا في معرفة
الإرهابي... لما دققت في هاتف الضحية وجدت أن آخر من
اتصل به شخص معروف ومصنف في ملفات سين للمشكوك
في انتسابهم إلى جماعات إرهابية والمدعو بمحمد مراح وهو



فرنسي من أصول جزائرية سافر سفريات مربية نحو باكستان وأمسك به في حدود أفغانستان. وموت المريشال ابن زياتين مباشرة بعد الاتصال به أمر يدعو إلى الريبة... لهذا أطلب أن يوضع تحت المراقبة فوراً...

بعدهما أنهى المفتش المكالمة اتصل فوراً بمكتب المخابرات كي يطلعهم على ما توصلوا إليه... وبعد ساعات فقط تفاجأ المفتش والشرطي بنزع الملف من أيديهم ومنعهم من الإدلاء بأي تصريح كي تستفرد المخابرات بالتحري في مجريات القضية والأغرب من هذا أن ملود عاشور بقي حراً طليقاً دون مراقبة ليزيد من عدد ضحاياه فيقتل عنصرين آخرين من الجيش وبعد أيام يقتل أربعة براعم أبرياء أمام بوابة مدرستهم وكأنهم تركوه ليكمل مهمة مسطرة ومحددة قبل أن يقتلوه كي يذهب معه سرهم يقول المفتش في مذكراته.

بعد أحداث البارحة تفاجأ الكل صبيحة اليوم بهاته التسريبات التي أدخلت الشعب في عصيان مدني تلقائي، فوجدت الحكومة نفسها مع عدو لا تستطيع مقارعتة ولا مواجهة عتاده فهو ليس مجموعة أفراد ينتهي أمرهم بمجرد إلقاء القبض على رأسهم المدبر بل كان غريمها شعب بأكمله بنسائه ورجاله، كهوله ومراهقيه وغنيه قبل فقيره حتى الحلفاء والمنتفعون انفضوا

من حولها، فهذا هي كل القنوات الموالية تصبح أشد عداوة من غيرها فقد أصبحت أكبر مروج لهذه التسريبات، وها هم الناشطون السياسيون ومقدمو البرامج الذين كانوا يسبحون بحمد الحكومة، أول القافزين من المركب التي بدأت في الفرق كي يركبوا أمواج الثورة وليلعبوا دور الثوار المغرومين بالوطن والمغمورين بالوطنية.

فالحكومة الآن تتمايل تمايل الملاكم الذي أخذ لكمة على خده الأيمن وأخرى على خده الأيسر، وينتظر ضربة قاضية على الذقن... وقبل أن تستفيق من الضربة الموجهة التي تفاجأت بها حينما تسرب فيديو وزير الداخلية مع رئيس شرطة مدينة ليون، وقبل أن تأخذ أنفاسها من فاجعة سرقة الذهب، ها هي اليوم تترنح على جبال واهية وتقف على حلبة هشة محاولة الصمود في وجه إعصار اللكمات غير المنقطعة التي وجهها لها جود ومن معه، فالحكومة في حالة تيهان لا تدري ما العمل ومن أين تبدأ؟ أتبدأ بالدفاع عن نفسها أم بملاحقة العناصر الفاسدة فيها ومحاكمتهم علنا أو استرداد الذهب وإنقاذ اقتصادها...؟ ولم تنتهي مشاكل الدولة عند هذا الحد فقد كثر عليها المتربصون والمنافسون على كرسي الحكم، فهم لن يجدوا أفضل من هكذا فرصة كي ينقضوا على الرئاسة ويستحوذوا عليها،



فالكل أظهر أنيابه وبيّن نواياه ونادى بأحقّيته في الحكم وأشاد بوطنيته الكبيرة وصدقه وأمانته... ورغم تشرذمهم وانقسامهم قبل هذا فقد اتّفقوا كلهم من أقصى اليسار إلى طرف اليمين على الإطاحة بالرئيس وحكومته، لكنهم يجهلون أن طوفان VAGA سيلتهم الكل ولن يذر منهم أحداً، فغرضه نسف المنظومة السياسية بأكملها بدءاً من حاكمها مرورا بمعارضيهما وختاماً بنظامها الاقتصادي ليترك كل شيء دكا، ثم يشرعوا في إنشاء نظام متكامل جديد بفكر مختلف مبنٍ على مبادئ مغايرة ووجوه نيرة وأيدي نظيفة وقلوب شريفة وشخصيات قوية، لكن الوقت لم يحن بعد للبناء فهم منهمكون في الهدم وتسوية أرضية مستقيمة صلبة مضغوطة خالية من المسامات التي قد تسمح بتسلل داء الفساد...

استمرت المظاهرات المليونية تجوب ربوع البلاد مطالبة بالقيام بإصلاحات جذرية لنظام الحكم وطريقة تسيير البلاد، والظاهر أن موجة الاحتجاجات هذه لن تهدأ ونار غضبهم لن تنطفئ خاصة وأن جود يحضر مادة سريعة الالتهاب لكي يضرم بها الإليزيه ومن فيه، فيقضي على فكرهم إلى الأبد لينشر فكرا جديدا يعطي به الحكم للشعب، فبدلا من أن يكون الرأي عند زمرة من السياسيين يكون عند كل الشعب، وبدلا من أن

تكون الثروة في حوزة قلة من أرباب المال تكون موزعة بالعدل على كافة المواطنين.

أيها المواطنين والمواطنون، أعزائي الشرفاء الأحرار في كل ربوع الوطن، كم تمنيت أن أكون إلى جانبكم وأن أكون واحدا منكم أحارب بكل ما أوتيت من قوة من أجل كرامتنا ومستقبل أولادنا كما تفعلون، لكن القدر وضعني في هذا الموضع وجشعي أوقفني هذا الموقف، فأنتم ستدخلون التاريخ من أوسع أبوابه وتخرجون من الدنيا نحو الأبدية وستكتب أسماؤكم بماء اللجين في أذهان الفرنسيين، أما أنا فسأدخل مزبلة التاريخ من أضيق أبوابها وأحقرها، ويمحى ذكرى من الأذهان ولا أذكر إلا مع شر العباد وأحقرهم، في الأصل كنت مخولا بأن أحميكم وأحمي أملاككم لكن نفسي الأمانة بالسوء دفعنتني بأن أكون جلادكم وسارقكم فقد خنتكم وضيعت الأمانة، ولهذا اليوم قررت أن أكفر عن ذنوبي وأن أخون من خانوكم وأفشي أسرارهم وأفضح تجاوزاتي في حقكم وتجاوزاتهم...

وراح الوزير يسرد اختلاسات ويعطي حسابات بنكية سرية تهرب فيها أموالهم المنهوبة ورشاويهم...

فضح الحكومة الحالية والحكومات السابقة، فضح تعاملاتهم مع الإرهاب وتبادل مصالح بينهم، وفضح النواب والمعارضة فلم



يسلم لا يسارهم ولا يمينهم ومن كان يتباهى منهم بنفسه ويشيد بأمانته، ها هو اليوم معلق في عمود إنارة في ميدان من ميادين فرنسا حيث صلب الكثير منهم وتمكن من الهرب آخرون قبل أن تغلق المطارات ومحطات القطارات وتوصد الحدود، فبعد سلسلة الفضائح التي سرّبها وزير الداخلية سقطت الأقنعة وتهوى النظام وخرّ ميتا كالشور الذي أجهز عليه المبارز بطعنة الرحمة، سقط النظام لافظا أنفاسه الأخيرة تاركا البلد في فوضى عارمة، فلا مدارس مفتوحة ولا محلات، ومصانع مغلقة وإدارات، طوابير عريضة على محطات البنزين وكلومترات من سلاسل سيارات تكتظ بها الطرقات، نساء ورجال هائمون على وجوههم خائفون من المجهول يكون حال وطنهم، مسيرات ومظاهرات تجوب الشوارع الرئيسية، مقرّات الدولة مكسّرة، البرلمان تم احتلاله، الإليزيه تمت محاصرته، جثث سياسيين ثبت جرمهم أو لم يثبت معلقة في وسط الميادين، الوضع كان آيوكليسي أين غابت فيه الشرطة عن المشهد وبقي الجيش محايدا لا يدري ما العمل فتدخّله قد يؤدي إلى حرب أهلية.

* * * * *

احتارت الشعوب في حلّ لغز الدجاجة أولاً أم البيضة، سؤال فلسفي حيّر العقول!! ولما أذكر العقول هنا أكيد أنأى بالعقول النيرة عن هذا السّافه، فمن كان له عقل سليم أكيد يعلم أن الدجاجة أولاً، سواء نما ذلك إلى عقله عن طريق الدين إذا كان مؤمناً، فإيمانه يقول أن الله خالق كل شيء، خلق المخلوقات على أشكالها التي نعرف، أو فقهِ هذا عن طريق النظريات العلمية، فأعتقد أن الدجاجة تتاج تطور جيني لكائنات حية أقدم تطورا مما هي عليه اليوم. فكلما المعتقدين يثبتان أن الدجاجة أتت أولاً، فمن غير المعقول أن نعتقد أن الله خلق بيضة في بادئ الأمر، ومن غير المعقول أيضاً أن يعتقد دعاة التطور أن الطبيعة أنتجت بيضة في سلسلة تطورها!! كذلك أولو الألباب مستحيل أن يعتقدوا أن التغيير يأتي من القعر أو من عامة الناس بل يأتي من النخبة المسيطرة والأقلية القائدة. فإذا صلح رأس المجتمع تبعه سائر الجسد ونهج نهجه، وإذا اعوجت النخبة اعوج معها المجتمع ونحا نحو ميلها، فلو كانت الشعوب تصدّح سيرها وتقوّم اعوجاجها من عنديتها لما احتاجت لنخبة وما افتقرت لقيادة، ولتصدّرت للأمر دون أن تلجأ لرئيس أو ملك أو أمير يأمرها فتطيع، ولكانت



هي الأمر الناهي والخصم والمختصم إليه. فالمجتمع مزيج بين الخير والشر، والاجتهاد والكسل، وأفراده خيط بين السارق والأمين، والجاهل والعالم، والطائش والرصين، والعاقل والمجنون، فإذا انتظرت من العاقل أن يصلح حاله فانتظارك لن يطول، وإذا انتظرت من المجنون أن يصلح حاله فأصحك بأن تأخذ غرفة مجاورة له في مستشفى الأمراض العقلية. فلو تركنا الأمر للمجتمع فسيفسد المفسد عمل المصلح وهمّة المفسد أعلى من همّة المصلح، لأن الأول يعمل بتلقائية وبنفس جبلت على حبّ السوء، أما المصلح فهو في حرب على جبهتين حرب الذات وحرب إصلاح المجتمع. أما إذا استقامت النخبة التي بيدها الحل والعقد فستقومّ المجتمع أولاً: بقوة القانون فتدجم من فساد المفسد وتعاقبه على تعدييه وتشجّع المصلح وتبارك عمله وتجازيه على صنيعه، ثانياً: بعملها على زرع حضارة في نفوس الشعوب تساعدهم على تقبّل الخير والصالح ونبذ الشرّ والفساد فيميلون طوعاً للاحترام القوانين.



الفصل السابع عشر



وفيما كان الكل تائها لا يدري ما العمل وما الحل، وفي ظل غياب النظام وتفشي الفوضى في وسط حكومة فقدت شرعيتها ومعارضة فقدت مصداقيتها وشعب فقد ثقته في الكل. خرج جود بكل ثقة وثبات ليعلن قيام دولته في ضاحية رهون آلب واختار مدينة ليون كعاصمة و'ريولا پاپ' مقر إدارته لشؤون البلاد فراح يبين للناس مشروعه ومنظومته الجديدة وفكره السياسي والاقتصادي والاجتماعي الجديد.

وأهم نقطة تكلم فيها فيما يخص النظام السياسي هي لمن يكون الحكم، ففي القديم كان الحكم للملك أو للأسرة المالكة فهي من تتحكم في زمام الملك فلها وحدها سلطة التصرف في شؤون الدولة ورعيتها ممثلة بملك قد يكون قويا أو ضعيفا حكيفا أو غبيا وتكون الدولة على صورة ملكها إن كان له شخصية تكون الدولة قوية رائدة وإن كان إمعة تكون الدولة ذليلة تابعة...

ثم أتت الجمهورية التي أطاحت بالأسرة المالكة ونصبت نخبة حاكمة، هذه النخبة التي تستمد شرعيتها من الشعب عن طريق انتخابات وتصويت للراشدين من المجتمع لتنفرد بعدها في التصرف في شؤون الدولة ورعيتها في سن القوانين، وتقرر مصير الدولة دون الرجوع إلى مصدر شرعيتها وتكون



الجمهورية على صورة نخبتها إن كانت مثقفة نزيهة كانت الجمهورية مزدهرة عادلة، وإن كانت النخبة انتهازية ظالمة كانت الجمهورية دكتاتورية متخلفة، لكن في الحالات الأربعة يكون الملك أو النخبة بعيدين عن الشعب ومشاكله متناسين همومه وتطلعاته، يكون الحاكم في عالم والمحكوم في عالم آخر، حيث تتشكل فجوة بين الاثنين ويكون حالهما كحال المخمور المنتشي بسكره الذي يأكل من القمامة، وحال الصاحي الذي يتجرّع مرارة العيش وضنك الحياة، فكلاهما يعيش في عالمين متوازيين لا يلتقيان إلا في نقطة البرزخ التي يكون فيها المحكوم في حالة نشوة وهو يصعد سلالم المجد نحو الحكم. فينسى بيئته التي أتى منها وينسى ناسها وهمومهم ويقابله الحاكم في حالة انكسار وانحدار نحو القاع حينما يخسر حكمه فيعيش ويحسّ مآسي شعبه لكن بعد فوات الأوان...

كما تلاحظون نظام الحكم الأول همّش الشعب تهميشا كلياً وجعل من نفسه سيّداً، ومن الشعب عبداً يأمر فيطاع وأما النظام الثاني فقد أعطى للشعب بعضاً من الحرية فاستعمله ليصل إلى سدة الحكم ليهمشه بعد أن جعله جاهلاً فسيره كما شاء، أما اليوم فسأقدم لكم نظاماً جديداً تكون فيه الحاكمة الكلية

للشعب، فلا ملك بعد اليوم يستعبدكم ولا نخبة تحتقركم، نحن كلنا كشعب سنسن قوانيننا ونحن من يقرّر مصيرنا فلا وصاية بعد اليوم علينا، نحن أوصياء أنفسنا... فمن أراد أن يكون حرًا في تقرير مصيره فلي انضم إلينا.

أما النظام الاقتصادي، فقد عاصرنا نظامين عظيمين الأول الاشتراكي وقد فشل فشلا ذريعا لتحديه الطبيعة البشرية، تلك الطبيعة المحبة للمال والجاه وكلّ رفاهيات الحياة، فقتل في النفوس حبّ النجاح وحبّ تسلّق درجات المجد، فأصبح الشعب كسولا بلا طموح الكلّ سواسية، العالم المخترع مع الجاهل المستهلك، واستوى رب العمل مع العامل واستوى صاحب الفكرة مع المستفيد منها، فشعب بلا طموح ودون منافسة مآله الزوال.

أما الثاني فقد فشل بدكاء حين أعطى للناس بعضا من ملذات الحياة، فجعلهم عبيدا لملذّاتهم، واحتكر الباقي للنخبة المالكة وفتح أبواب النجاح، وجعل مناصبها قليلة وجعل مفاتيحها في يد غيلان اقتصادية تسمح بالنجاح لمن تريد وتسحق الباقي... وكما تلاحظون انغمس الاشتراكيون في فقرهم، وقاد الرأسمالية حيتان كبيرة تتغذى على أسراب السمك الصغير...



لكن في دولتنا سنشارك الناجحين نجاحاتهم ونعينهم على بلوغها، دون أن نبخسهم حقهم أو نحط من مكانتهم.

بني هذا النظام على قوة الرأسمالية ورحمة الاشتراكية، فأطلق العنان لطموح الطامحين وعبّد لهم طريق النجاح دون أن يقيدهم بقيود كثيرة تحد من اجتهادهم أو تشبط من عزيمتهم ثم حثّهم على مشاركة البعض مما جنوه مع باقي الشعب دون حرمانهم من ملذات الحياة ومظاهر الترف والنعمة، فالغني في هذا النظام له حرية التصرف في ماله دون تبذير صارخ يديره كيفما يراه مناسباً ويغرف منه ما يحلو له، وحسب حاجاته الضرورية أو الكمالية. ليحس بقيمة نجاحه وتفوقه ثم يشارك منه عشرين بالمئة باقي الشعب، وفي حالة وفاته يورث عشرون بالمئة من ثروته ويوزع الباقي على المشاريع والأفكار التي يتسم فيها النجاح وهذا منطلقاً من فكرتين

الأولى: بما أن الولد لا يرث من خطيئة أبيه، فمن العدل أن لا يرث من نجاحه فكل إنسان مجبر على الأكل من عرق جبينه. المبدأ الثاني هو أن الإنسان يملك ما ينفقه أما الباقي فليس من نصيبه، فسيكون لورثته أو لجمعيات خيرية يختارها قبل مماته فالمليونير أو الملياردير مهما أنفق لن ينفق أكثر من عشر ثروته والباقي سيؤول لابن عاق يبذره في الخمر وفي

لعب القمار أو لجمعيات لا تعود بفائدة عظيمة على المجتمع، فأقسى ما قد يأخذه معه بعد وفاته هو نعش مزركش وقبر جميل وتأبين أرستقراطي.

فهذا يبذل كل إنسان جهده للنجاح دون الاعتماد على إنجازات من قبله، وكذلك منعا لتراكم واحتكار المال عند عائلات قليلة ليوزع على كثير من العائلات والأفراد للقضاء أو التقليل من الطبقة الاجتماعية.

وتوزع الثروات توزيعا عادلا ويأخذ كل نصيبه حسب أفكاره ومشاريعه وطموحاته، فالبشرية لا تنقصها الأفكار بل ينقصها المال المحتكر عند قلة من أصحاب المال، فبدلا من أن نحتكر فكرة ونعمّمها ونجعل ملايين من الأموال في خدمتها وفي يد مبتكرها ونقتل باقي الأفكار في مهدها، وجب علينا تشجيع هذه الأفكار وإثراء السوق بها، ونمنع تراكم الثروات عند العائلات الأرستقراطية فنذيب الطبقة بين أبناء الوطن، ونجعلها مع المنافسين من البلدان المجاورة. فحتكر علومنا وأفكارنا لأنفسنا ونتقاسمها مع بعضنا، ونمنعها عن من عادانا أو نافسنا...

كان لوجود معجيين بالآلاف من عامة الشعب، فقد رأوا فيه بطلهم المخلص وقبطانهم الذي سيصل بهم إلى بر الأمان،



ولكن بعد هذا الحديث والتعريف بدولته وقوانينها لم يستقطب المزيد من العامة فقط بل أغرى نخبة القوم وصفوة المجتمع، ووقع الكل في سحر كلامه وجاذبية شخصيته علماء وسياسيون صحفيون وفنانون بالإضافة إلى جنرالات وقيادات في الشرطة الذين ضاقوا ذرعا بالسياسة المنتهجة منذ زمن، وأحسوا بفكر عال في ما قدمه جود لهم فقد علموا أن سرقة للذهب لم تكن غاية بل وسيلة، وأن غايته أسمى بكثير من الماديات، ولم ينتظر جود وجوليان أن ينظم إليهم عليّة المجتمع ووجهأؤه بل بادرا بمغازلتهم واستمالتهم، فقد اختارا مجموعة من الشخصيات التي لها حظوة في نفوس الناس واتسم فيهم الخير فاتصل بهم فردا فردا عن طريق تطبيق الفاير، وشرح لهم بالتدقيق مشروع الذي هو بصدد تنفيذه، بهم أو من دونهم، لكنه عرفهم بأن الأمور ستكون أسهل لو انضموا إليهم، فالمدينة الجديدة تحتاج كل شخصية لها وزن وفكر وشغف لتفشي العدالة وانتشار الخير بين الناس، ومن بين الشخصيات التي اتصل بها جود وجوليان المكنى بالرجل الطائر ذلك العالم الذي اخترع وسيلة نقل يتقمص فيها الإنسان دور الطائر فيحلق في السماء بكل أريحية ومرونة وأطلق عليها اسم الفلابيورد آر حيث صمم جوليان على هذا العالم تصميمًا كبيرًا خاصة بعد أن قمعته

بيرقراطية الدولة البائدة فمنعته من الطيران وقصّت أجنحته بقوانين ساذجة لا تراكب العصر، وليس من الغريب أن يصدر هذا التصرف القميئ من دولة تخاف من كلمة حرية، فقد أرعبتهم فكرة طيران الشعب وتحليقه كطائر حر، بعيدا عن أعينهم متخلصا من أغلال قوانينهم الجائرة. نعم قد أدركوا أن إعطاء بعضا من الحرية لهذا الشعب تعني صعوبة في التحكم فيه وفي مصيره...

اتصل جوليان بالرجل الطائر وطرح عليه عرضا من الصعب رفضه، وأطلعه على مشروع مبني على اختراعه سيغير وجه الأرض والسماء...

بعد سماعه واستمتاعه بأطروحة جوليان لملم الرجل الطائر حقايبه ومخطوطات اختراعه وأدوات عمله وحلّق مباشرة إلى مدينة ليون، فقد كان أول الواصلين والسباق في المتبين لهذا المشروع العظيم، ثم باشر في العمل دون تعطيل...

وفي الوقت الذي كانت مدن فرنسا المتبقية تغرق في الفوضى والجريمة وازدياد في مظاهر القمع والدكتاتورية والعنصرية بعد أن استولى على الحكم فريق من اليمين المتطرّف، وبغياب القانون حدثت مجازر في حق العرب والسود وحتى اليهود الذين عاشوا حقبة ذهبية في ظل الجمهورية السابقة، نالهم نصيب



من القمع والتنكيل ذكّرهم بحالهم في القرون الماضية ففروا مع الفارين نحو ألمانيا وبلجيكا وهولندا وإنجلترا ومعظمهم نحو بلدانهم الأصلية في إفريقيا الشمالية وإفريقيا السوداء تاركين أملاكهم وأعمالهم وأصدقاءهم وذكرياتهم متجهين نحو بلد يحبونه ولا يعرفون عنه إلا القليل، فأكبر تجارب لهم فيه هي أيام العطلة السنوية الجميلة أين يلقون أحر الترحيب ويقضون أمتع الأوقات، لكنهم أدركوا أن العيش فيه ليس عطلة، ومن رحّب بهم كضيوف سيكونون عالية عليه كلاجئين.

واعتقد المتطرفون أن كل مشاكلهم قد حلت بطرد المغتربين لكنهم قريبا سيعلمون أنهم أول من سيكتوي بنار دكتاتورية اليمين المتطرف.

كانت في المقابل المدينة الجديدة في طور التكوين وبدأت معالم المدينة تظهر وبرزت أطراف نظام حكمها الجديد، نظام ليس فيه رئيس ولا أحزاب ولا حكومات، حتى المعارضة العقيمة اندثرت، نظام الشعب فيه هو الحاكم والمحكوم الناشد والمنشود وهو الأمر الناهي، فمن أحسن من الشعب تموقعا كي يرى مشاكل الناس ويحس آلامهم؟ فوحده القابض على الجمر من يدرك مدى أواره.

وأما على الصعيد الخارجي فقد أبرمت المدينة تحالفات سرية مع إيطاليا للتعامل التجاري بما أنهما دولتان متجاورتان فتبادل السلع بينهم كان سهلا حيث أدر بالنفع على الاثنين، وأخرى مع روسيا للتعامل العسكري فقد تشجعت روسيا كثيرا لفكرة مدينة جديدة في قلب أوروبا الجنوبية فهي نواة انقسام اتحاد أوروبي معاد لها وعلى صعيد آخر استحسنت أمريكا الفكرة أيضا خاصة وأن الدولار في تصاعد مستمر منذ أن تهاوت عملة الأورو فأصبحت هذه الدويلة الصغيرة الابن المدلل لأقوى دول العالم فقد وجدوا فيها ضالتهم التي طالما طمحوا لها.

ومن القوانين التي تأسس عليها النظام الداخلي قانون الاستفتاء والأخذ برأي الشعب، فقد اشتغل فلاديمير على تطبيق بحماية عالية يستعمله الشعب للاستفتاء على كل شاردة وواردة تخص المدينة... التي قسمت إداريا إلى أحياء ثم ولايات فمدن، أين اعتاد فيها الشعب على الالتقاء مرة كل ليلة على الثامنة مساء لدراسة أمور حييهم باستعمال التطبيق الخاص بهم، فتطرح مشاكلهم ويبحث لها عن حلول ثم يلتقي أفراد الولاية مرة في الأسبوع لدراسة مشاكلها وانشغالات سكانها بواسطة التطبيق الخاص لهذه الولاية ويتجمع إلكترونيا سكان المدينة كلما تطلب الأمر للقيام باستفتاء عام لأي مسألة تخص الدولة فالكل



معني ولا مكان لنائب ينوب عن الشعب فالشعب سيد قراره. عندما تدق الساعة مشيرة إلى الثامنة مساء، كانت الشوارع تفرغ من السيارات والمشاة وتخلي المطاعم والدكاكين من زبائنهم وتمسي المدينة مدينة أشباح خالية من كل حركة كمجسم لا روح فيه، فالحياة كلها كانت داخل المنازل أين يمسك كل واحد من أفراد الأسرة كبيرهم وصغيرهم بهاتفه يشارك الكل آرائه ويستمتع لأنشغالات من حوله... هناك أسر اختارت أن تضع شاشة عملاقة وتتابع مستجدات المدينة وتتحاور فيما بينها وتبادل الأفكار ووجهات النظر، فيما اختارت أخرى أن تتابع الاستفتاءات فرادى وهذا لاعتقادهم أن الآراء يجب أن تؤخذ دون تأثير خارجي ولو كانوا ذوي قربي، وأن على كل امرئ أن يبني فكرته بما يميله عليه عقله، ومع الوقت أصبح للشعب زاد وباع في السياسة والاقتصاد ووعي كبير وعلم بأمور الحكم وخبرة في إبداء الرأي ورجاحة عقل تجعل من آراء معظمهم صائبة خاصة بعد أن شجع الجو العام على التفقه في السياسة وعلوم الاقتصاد والاجتماع... ولعبت حالة الحرية هذه في إبداء الرأي الذي أصبح له قيمة فعلية لا صورية في الرفع من قيمة المواطن والزيادة في مستواه الثقافي والعلمي، فأصبح يشعر بوزنه كمواطن حقيقي مفيد للمجتمع،

فازداد حسّه بروح المسؤولية وتضاعف مردوده العام سواء في عمله أو مع أسرته أو مع من هم حوله، فارتفع شأنه وحلّق في سماء الفضيلة واقترب من مرتبة الكمال وأحسّت روحه بلذّة الحرية وساعده في هذا الحرية المادية التي غمرته حينما حلّق فعليا كنسر أسود باستعمال مركبة الفلايورد آر التي أصبحت الوسيلة الأولى للتنقل إذ تزوّد كل فرد وصل إلى سن اقتنائها من العائلة بواحدة حيث كانت تخرج من المصنع خصيصا له مصحوبة بخوذة تحتوي على بصمات أذن مالكها فأول ما يرتدي صاحبها خوذته تشتغل المركبة ليتحكم بها كيفما شاء ولا تشتغل إلا له فكما لكلّ شخص بصمة أصابع خاصة به له أيضا بصمة أذن خاصة به يتميّز بها على باقي البشر، فلا يشتغل محرّك المركبة إلا بأخذ أذني الشخص المكان المخصّص لهما داخل الخوذة.

فاستعملها الأب للذهاب إلى العمل واستعملتها الأم للتسوق واستعملتها البنت للذهاب لرؤية صديقاتها واستعملها الابن للعب مع رفاقه، فتجدهم يتسابقون من نقطة بداية إلى نقطة نهاية بسرعة جنونية، ومع الوقت وبعد أن كانت هذه السباقات لهُو شوارع أخذت طابعا جدّيا وأصبحت رياضة معترفا بها ولها قوانين ومتفرّجين ومشجّعين أين كان يرتقي الكلّ ليجلسوا



في مدرّجات وهمية على مقاعد طائرة موصولة بمركباتهم وينظرون إلى ملاعب إلكترونية ترتسم بواسطة خوذهم ويتمتعون بسباقات تعتمد على سرعة البديهة أكثر منها على القوة البدنية، ثم تلتها رياضات أخرى مثل كرة السلة والكرة الطائرة التي أصبحت اسمها على مسمى، حيث خصّصت لها كرات تحتوي على شريحة إلكترونية حينما تلامس الأرضية الوهمية ترتطم وترجع وكأنها لامست أرضية صلبة، وكان بعض اللاعبين المولعين بالأدرنلين حينما يرتقي أحدهم للقيام بلقطة الدانك الشهيرة في لعبة كرة السلة يطفئ مركبته ليهوي كالصخرة نحو الأرض ثم يشغلها فيصعد فجأة كالتائرة النفاثة وهو يصرخ والجماهير تصفّق لهذا العرض الممتع...

ومع مرور الزمن طوّر جوليان والرجل الطائر صناعة الفلايبرد آر واستعملوها في عدة مجالات، وها هم اليوم وبعد مثابرة وإصرار وصلوا أخيراً إلى هدفهم الذي نشدوه يوم التقوا أول مرة فقد عملوا جاهدين لتحقيقه متجاهلين الكثير من الإخفاقات والعديد من خيبات الأمل واليوم هم على موعد مع التاريخ، ففي هذه الصبيحة سيتم الإعلان على اختراعهم والكل يترقب وينتظر حيث جلس جود وفلادمير ورافاشول وريان وليا في المقاعد الأمامية ووراءهم جموع غفيرة، الكل مصطحب

معهُ مر كبتهُ...، جلسوا في المنطقة الفسيحة المقابلة لثانوية أبار كامو أعلى مدينة 'رير لا پاپ' أين التفوا حول مجسم طويل مغطى برداء أبيض.

أيها الحضور الكرام سيداتي وسادتي أود أن أشكركم أولاً على تواجدكم معنا لنتشارك هذا الحدث العظيم... في أول الثورة لم أهتم كثيراً لتطور أحداثها فقد كنت منشغلاً باختراعي وأبحاثي وتجاربي، لكن مع الوقت شدني إصراركم على طلب الحرية وعشقت مثابرتكم لنيلها، ومع هذا اهتمامي لم يكن أكثر من متابعة بسيطة لبعض المنشورات على الفايس بوك أو بعض الفيديوهات المنتشرة هنا وهناك فلأسف ومع تعاطفي معكم لم أتمكن من مشاركتكم بطولاتكم وقاتلكم من أجل كرامتكم وكرامتنا، ولكن فرحتي كانت لا توصف حينما كنت أرى انتصاراتكم، فنشوتي كانت كبيرة وغطتي عظيمة وأنا أرى النظام البائد يتهاوى ورموزه تفضح وتعاقب علانية، وتحسرت كثيراً لعدم انضمامي إليكم، لكن أول ما اتصل بي مهندسوا الانتفاضة الشعبية للمشاركة في بناء نظام جديد مبني على العدل والمساواة وتشجيع العلم ورفع الوعي رحبت دون تفكير وقلت في قرارة نفسي أن هذه هي فرصتي كي أعوض تخاذلي فارتيمت في أحضان هذا العالم الجديد كما يرتمي السجين



على أريكة منزله بعد سنين من الحرمان، فقد كنا نعيش في سجن ذهبي يطلق عليه زورا اسم الديمقراطية... فلما أصغيت لجود وجوليان ارتحت لكلامهم وآمنت بمشروعهم فوضعت كل طاقتي وقدراتي في خدمتهم وخدمتكم وخدمة مدينتنا... وقد سرّني كثيرا العمل معهم وخاصة صديقي المهندس جوليان إيكابيلو وأنا فخور بهذا التعاون وفخور أكثر بالنتيجة التي توصلنا إليها معا...

شكرا لصديقي فرانكي الرجل الطائر إنه لفخر لنا أن تكون هنا معنا، نعتز جدا بانتمائك لنا وإنه لمن الرائع وجود علماء بقيمتك في مدينتنا ننهل من علمه ونستفيد من خبراته... قبل الثورة كنت قد بدأت في بحوث تخصص طريقة جديدة في البناء ونوع جديد من البنايات والجدران وتزامنا مع الثورة بحوثي وتجاربي كانت قد تقدّمت ونسبة نجاحي كانت مقاربة للكمال. وفي خضمّ ذلك الهرج لفت انتباهي اختراع صديقي فرانكي المبهر وتمنيت أن يكون لي معه عمل مشترك وقد تشجّعت كثيرا للاتصال به، أولا لتوسمي في شخصه خيرا، وثانيا بسبب المعاملة السيئة التي عومل بها من طرف النظام البائد، فمثل هذه المعاملات تدفع الإنسان لأن يكون نائرا معارضا لسياسات الدولة وقد صدق حدسي، فقد وجدته متحمّسا للفكرة حتى

قبل أن أفصح عنها... واليوم وبعد عمل مضمن سنقدم لكم نتاج تزواج أفكارنا، ثم أوماً لمعاونيه أمرا بنزع الرداء عن التمثال، فشدوا الحبال التي كانت تمسك به من زواياه الأربعة ليهوي كسرب حمام أبيض نزل أرضا يللم حبات القمح، فبرز تمثال عظيم طوله يزيد عن الخمسين مترا جسّد لوحة ثورية كان قد رسمها جود أيام الثورة وأطلق عليه جوليان وفرنكي اسم تمثال الكرامة.

لما سقط الرداء كانت الردود متباينة فمنهم من صاح صيحة الحسرة، حسرة على الأيام التي خلت، فقد ذكّرهم هذا المجسم بأوقات عصيبة لكنّها كانت جميلة هؤلاء هم من تابع أحداث الثورة وشارك فيها واستمع لفيديوهات الفنان مباشرة، ومنهم من رسمت على وجهه علامة تعجب وتساءل في نفسه:

ما العظيم في تمثال طوله خمسين مترا؟

أعتقد أن هذا هو السؤال الذي يجول في خاطركم، يقول جوليان للحضور، ثمّ يردف: وقبل أن أجيبكم قولوا لي أين يمكننا وضع هذا التمثال الذي تكمن عظمته في تجسيد أعظم لوحة في تاريخنا.

نظر الحضور إلى بعضهم البعض محترين في الإجابة ليبادرهم جوليان بطلب:



هل يمكن لكل واحد منكم أن يرتقي بمركبته عاليًا في مكانه؟ وارتقى معهم إلى أن وصلوا لارتفاع مئة متر وانتظر إلى أن سكن الكل، فأخذ جهاز تحكم من جيبه وضغط عليه فاشتعلت أضواء في التمثال ثم أطلق ريحا فتصاعد غبار من حوله ليبدأ هو أيضا بدوره في الصعود والتحليق بكل رشاقة وكأنه فراشة لا تزن ريشة، واقترب منهم رويدا رويدا إلى أن وصل أساسه إلى مستوى أعينهم فتوقف ثابتا وكأنه واقف على أرض صلبة أو أساس من إسمنت مسلح، ذهل الكل من روعة ما رأوا وتساءلوا كيف لتمثال بهذه الضخامة أن يقف شامخا دون حراك أو اهتزاز متحديا الجاذبية ومقاوما الرياح.

أيها الحضور الكرام كما ذكرت قبل قليل لقد عملت على اختراع مادة شديدة الصلابة وغاية في الخفة لبناء وتشيد العمارات والمباني ولما رأيت اختراع الرجل الطائر نما إلى ذهني فكرة مزج الاختراعين وعمل مبان طائرة، ولما شاركت صديقي الفكرة قال لي إنها فكرة مجنونة ولهذا، سأنفذها معك فاختراعنا هذا نتيجة شراكة بين مجنونين عملا سنوات من أجل أن تكون مدينتنا رائدة في كل شيء في العلوم والتكنولوجيا، في السياسة والاقتصاد لتكون منارة يحتذى بها وبنظامها...

كان هذا الاختراع ثورة علمية ستغيّر وجه الأرض ومعالم السماء وتجعل من الشعوب ملائكة وأرواحا طاهرة تحلّق كحمامات سلام شاهدة على قوة الإنسان ومقدرته على فعل المستحيل في حالة السّلام والصفاء الذهني.

طار أهل المدينة بتمثال كرامتهم نحو حديقة ميريبال واضعين إياه فوق البحيرة - مقابلا لملاعب ليون قروب أما ستاديوم الذي هجرته الجماهير منذ مدة- باسقا مرتفعا يخيل للناظر من بعيد بأن للسماء بوابة... بقي تمثال الكرامة وحيدا كمعلم سياحي يطير له الزوّار لأخذ صور تذكارية معه، والفضوليون منهم يقلّبونه بأعينهم في كل اتجاه محاولين معرفة سرّ ثباته معلقا بلا عمد... إلى أن أتى اليوم الذي حلق مبنى آخر ليؤنس وحدته إنه أول مصنع طائر في تاريخ البشرية مصنع المباني المعلقة فقد افتتح هذا المصنع بعد أشهر من سقوط الرداء على تمثال الكرامة ليتوالى بعد ذلك ارتقاء المباني المبنى تلو الآخر والمنزل بعد الآخر لتحلّق المدينة كلّها في السماء فتصبح مدينة الأجساد المعلقة فوق المباني المعلقة.

ارتقت مدينة VAGA عاليا فوق السحب آخذة لها أبهى مكانة بين النجوم لتتهدي بهديها المدائن وتنهج نهجها الشعوب، وارتقى معها سكانها إلى مرتبة الملائكة في تصرفاتهم والأنبياء



والصالحين في معاملاتهم، فعمّ السلام وانتشر العدل وتفشّى الإيحاء والمساواة بين أفرادها فلا تجد فرقا بين أبيض ولا أسود، لا أعجمي ولا عربي إلا بمقدار نجاحه ومساهمته فيما يصب في صالح المدينة، فأعمالك التي تثري بها المجتمع هي وحدها المعيار الذي بها تقيّم دون النظر إلى لون بشرتك أو هندامك أو عقيدتك، حتى الفروق الدينية اندثرت فلا مكان بين الناس لكلمات تتردّد على الحجاب ولا على الكفة ولا على صليب، بل نسي الكل مآسي الماضي من عنصرية وعبودية ومجازر وحروب، فقد أدركوا أن هذه الذكريات الأليمة ليس لهم يد فيها وما بين أيديهم اليوم هو حاضرهم ومستقبلهم المشترك، فدفنوا بعيدا في أعماقهم كل الفروقات وأبرزوا كل توافق في أفكارهم، فضيّقوا مواطن الاختلاف ووسّعوا نقاط الالتقاء، وفرشوا منطقة التقاطع بفراش الانسجام وحوّطوها بسياج التناغم، وتمادوا في طيبتهم حتى وصلوا إلى مرتبة من التآخي وحدّوا فيها دور العبادة التي بنيت بطريقة محايدة لا زخرفة فيها ولا تماثيل كي تكسى إلكترونيا يوم الجمعة بطراز إسلامي ويوم السبت بطابع يهودي ويوم الأحد على النمط المسيحي، فعمّت المحبّة والودّ بين الجميع وأحسّ سكان المدينة بالطمأنينة والأمان وقلّت المخالفات وانعدمت الجرائم والآثام وكان عقاب مرتكبي

المخالفات على درجات أقلها أن يمنع من حصته في مداخل المدينة التي أصبحت لا تعد ولا تحصى بعد أن احتكرت بيع المدن المحلقة للبلدان الأخرى - فقد اختار سكان المدينة أن يستثمروا في العلم فهو المورد الوحيد الذي لا ينفد ومشاركته الآخرين لا ينقص من أطرافه ولن يسبب شحا في أصوله - وفي درجة أعلى حرمانه من مشاركة الناس في الحياة السياسية والاجتماعية كمنعه من الإدلاء بصوته في الاستفتاءات وكانت أعلى درجات العقاب هي الطرد والنفي من السماء نحو الأرض كي يحس بفضل ما كان فيه من خير ويدرك مشقة ما صار إليه من شر.

لما رأى جود جوّ المحبّة السائدة في مدينته فضّل الانسحاب من المشهد السياسي والانزواء على نفسه. مستفردا بأقلامه ولوحاته دون أهل يعكروا صفوه هدوئه ولا أولاد يملؤوا حيز فراغه، فمذ أن اختفت الجميلة إينايا لم يقرب امرأة قط وكأنه اختار لا إراديا حبا مستحيلا كي لا يصيبه ما أصاب والده من عذاب جرّاء فراق زوجته له، فقد اختار الوحدة طوعا كي لا يضطرّ لتجرّع أهوال الاشتياق...

يصادف اليوم ذكرى وفاة والد جود وقد قرّر زيارة قبره بعد أن عزف عن هذا أعواما وسنين، فركب مركبته مرتديا رداءه



الأبيض وبلحية كثيفة اصطبغت بخليط من لون الملح وقليل من الفلفل الأسود، ونزل نحو الأرض بوقار المسيح المخلص، وكان كلما انحدر نحو الأرض تصاعدت إلى أنفه روائح كريهة وازداد الجو كآبة وساد ظلام غير مكتمل يتخلله قبس نور هنا وآخر هناك متسللين من بين جدران المدينة المحلقة التي حالت بين الأرض ونور الشمس، لما استقرت بجود مركبته أرضا ذهل لما رأت عيناه وكأنه ركب مركبة الزمن، فقد هبط في وسط بلدة بالكاد عرفها، مبان مهذمة وطرقات مهشمة يكسوها أحوال وأوساخ مرمية في كل مكان، أطفال مشردة بثياب ممزقة، أسواق خردة وخضر وفواكه ذابلة حتى خيل له أنه نزل في مدينة من مدن القرون الوسطى، كان الوضع كارثيا، أوبئة وأمراض انتشرت، كان العالم قد قضى عليها منذ زمن، فقد غابت معظم مظاهر التحضر والتمدن وساد الجهل والفقر... ترجل جود طائفا شوارع البلدة يبكي متأثرا لحالها وحال قاطنيها، يكلم نفسه بصوت مرتفع كالمجنون.

ليس لأجل هذا قمنا بثورتنا... ما هذه الفظاعة والوحشية التي جعلتنا نقسوا على أهلنا تحت؟ أترانا نسيناهم لأنهم حجبوا عن أعيننا، فلا نرى آلامهم وأحزانهم، أم ترانا نسينا آلامنا القديمة أم تناسينا من أين أتينا وكيف ربينا أو ربما أعمتنا أنانيتنا كما

أعمت من هم قبلنا، أم تراه الكبر الذي جعلنا نظنّ أننا أعلى مرتبة فنظرنا إليهم بنظرة علوية وجعلناهم تحت أقدامنا؟ ما ذنب هؤلاء الأطفال كي يعيشوا أوضاعا كارثية كهذه؟ وأي جرم اقترفوه ليتحمّلوا قساوة الحياة بكل هذا العنف؟... ما الذي تغيّر فينا؟ أتذكّر أننا ثرنا لأقل من هذا!!
لأنهم أبناء آثمين يا جود.

إن هذا الصّوت لمألوف على أذني، من يكلمني يا ترى؟ قال هذا مكلمّا نفسه ثم استدار، رافاشول صديقي العزيز.

ثم ارتمى عليه ليحضنه بشدة باكيا:

صديقي الحبيب كم اشتقت إليك، لم أرك منذ زمن!! لم تحضر لآخر نسختين من يوم احتفالية ثورتنا... فقد سألت عنك في مرة قيل لي أنك مريض، وحاولت زيارتك لكن لظروف غامضة لم أستطع الوصول إليك، والمرة الثانية قيل لي أنك في سفر، وكلمّا سألت عنك.

لم أمرض ولم أسافر يا جود بل طردت من المدينة! نفيت من المدينة التي بناها معا واستعملوا في ذلك النظام الذي أسسته معك ومع فلادمير لطردي.

ذهل جود لهول ما سمع وسقط أرضا عاصرا الوحل بيديه.

لكن لماذا ولأي سبب؟ ولماذا لم يخبرني أحدا؟ ثم قل لي



لَمْ لَمْ تتصل بي!

لقد حاولت مرارا وتكرارا لكن دون جدوى فقد فرّقوا بيننا
ومنعونا من الالتقاء.

لكن لماذا؟ ومن الذي منعنا؟

منعنا الذين استولوا على المدينة بعد أن انسحبنا وانشغل
كل واحد فينا بنفسه وبحياته الشخصية ظنا منا بأن مهمتنا
قد انتهت، وأنّ الخير قد انتصر على الشرّ إلى أبد الأبدين وأن
النفوس الطيبة انتشرت وعمّ البر والإحسان بين الناس، لكننا
نسينا أن الإنسان بطبعه فاسد ميّال للأناية وحب الخير لنفسه.
فتركناهم يعيشون بعالمنا الذي شيّدناه بدمائنا وجهدنا وعرقنا،
فلم نحمي ثورتنا وفرّطنا في مكتسباتها وجعلناها في يد من
لا يستحقّها.

لكن لَمْ لَمْ تتصل بالآخرين، إن تعذّر اتصالك بي، وجوليان
أين هو من كل هذا؟

جوليان تغيّر فهو لم يصبح ذلك الشاب القوي الذي لا
يخشى في الحق لومة لائم، فقد استسلم للواقع وأصبح شيخا
مغلوبا على أمره موضوعا في زاوية ككومة رماد تتلاعب
بأشلائه النسائم.

عن أي واقع تتحدّث؟

واقع المدينة ومن تسبب في ضياعها.
ولمَ لم يحرك ساكنا إذا كان على دراية بظواهر الأمور
وبواطنها؟

لأن إخوته وأولادهم وأولاده من استولوا على زمام الأمور
وسيروا المدينة لصالحهم الخاص، فقد أشاعوا بأن أخاهم
المهندس 'جوليان ايكابلو' هو مشيد المدينة وهم الثوار الأبطال
الذين أسقطوا النظام البائد، وبالتالي هم الأحق بالقيادة والأولى
بالريادة، ثم غيروا القوانين وزوروا الاستفتاءات وأصبحوا آلهة
يطردون من لا يرضون فكره وتوجهه من المدينة المحلقة
ومن جنة الفردوس نحو شقاء الأرض، فامتألت الأرض بالمظالم
وعجت السماء بالمفسدين المعتدين.

ولم سكت جوليان على هذا الظلم؟

لقد حاول المقاومة والسيطرة على الأمور لكنه فشل، فقوة
الشرف في نفوس أسرته كانت كبيرة وعظمت لما استقوت
بالانتهازيين وأذئاب النظام السابق الذين تسللوا بخبث وتغلغلوا
في وسط الطبقة الراقية واسترجعوا مكانتهم من جديد، وها هم
الآن يسترجعون حكمهم وسطوتهم ونفوذهم ومجدهم الضائع؟
وكان قتل فلاديمير القشة التي قسمت ظهره... أعتقد أنه
استسلم خوفا على حياتنا.



قلت لي قتل!! ألم ينتحر؟

يضحك رافاشول ضحكا كالبكاء ثم يجيب:

فلادمير أقوى من أن ينتحريا جود بل قتل لما اكتشف
التلاعبات الحاصلة في الاستفتاءات فأراد التصدي لهم فدبروا
له مكيده وقتلوه وأوهمونا أنه انتحر.

ولمّا اكتشفت أمر قتله وسببه أرادوا قتلي أيضا، لكن لحسن
حظي أن أحدهم ألح على نفيي.

وأين جوليان الآن؟

لا أدري آخر مرة رأيته منذ عدة أشهر كان يصطاد السمك
بمركبته فوق بحيرة 'ميريال' ولقد حاولت التحدث إليه لكنه
كان دوما يتحاشاني وفي آخر مرة نظر إلي نظرة حزينة ثم
ابتسم ولوّح لي بيده ثم صعد ولم أره بعدها.

وفي غمرة كل هذه الأخبار السيئة والأنباء الحزينة أشرفت
شمس الغروب على البلدة وأنارت شوارعها، فخرجت الجموع
تستمتع بذلك المنظر الجميل فرحة مشرّبة الأعناق تحديق في
نور الشمس متطلعة لغد أفضل.

كان سكان البلدة ينتظرون كل غروب بشغف ليتمتعوا لدقائق
معدودة بنور الشمس الذي منعه عنهم المدينة المحلقة.

هشّ قلب جود لمنظر الناس وهم فرحون بأبسط حق من

حقوقهم، ثم التفت إلى الشمس فرآها تختفي في بحر غويط،
 متمسكة بغيوم نحيفة نحافة القش وضعيفة ضعفا أعجزها عن
 تحمّل عبء نور الشمس التي هوت بين الجبال مرسلّة أشعة
 حمراء وصرخات دامية كغريق يستجدي المعونة ليقع عليهم
 ظلام داكن، فتسقط على وقعه تعابير وجوه من حوله حزنا
 وكآبة.

رفع جود رأسه نحو السماء ثم قال:

حالة الشعب هذه تستدعي ثورة جديدة.

فتساءل رافاشول متعجبا

أطلب منا محاربة السماء؟!

فردّ جود مشيرا للمظلومين من شعب البلدة:

لا بل سنثور ضد من حرموا هؤلاء نور الشمس، وجعلوا
 أنفسهم أوصياء على السماء فنصبوا أنفسهم آلهة ليحلّقوا في
 سماء مدينتهم الفاضلة مع مقربيهم والراضين عنهم ويطردون
 منها المعارضين ومن هم عنهم ساخطين!!